رجل السماء الأول

رواية

د. مجدي صالح

مؤسسة يسطرون للطباعة والنشر والتوزيع



رئيس مجلس الإدارة

عماد سالم

المدير العام

أحمد فؤاد الهادى

مدير الإنتاج

أحمد عبد الحليم

الطبعة الأولى
الكتاب : رجل السماء الأول
المؤلف : د. مجدي صالح
تصنيف الكتاب : رواية
تصميم وإخراج : أحمد عبد الحليم
المقاس ١٤ × ٢٠
رقم الإيداع : ١١٠٣٩ / ٢٠١٧
الترقيم الدولى : 0 - 407 - 776 - 977 - 978

العنوان : المكتبة والمطبعة : ٣ ش صفوت - محطة المطبعة شارع الملك فيصل - الجيزة
التليفون : ٠١٢٢٩٣٠٠٠٢٩ ـ ٠١١٥٧٧٦٠٠٥٢
Email : yastoron@gmail.com
موقعنا على الفيس بوك : مؤسسة يسطرون لطباعة وتوزيع الكتب

الإهداء

إلى كل عقل يفكر ويرتقي.

القائد الأحمق هو من يشعل الحروب ليشعر الشعب بأهميته

والشعب الأحمق هو من يشعل نفسه ليشعر القائد بأهميته

كلمة

قـد تحـدث وقائـع هـذه الروايـة في أي بلـد عربـي لتشـابه أوضـاع أقطـار هـذا الوطـن المضطـرب. لقـد تعمدنـا إغفـال ذكـر اسـم البلـد الـذي تقـع فيـه أحـداث الروايـة حتـى يتسـنى لـكل قـاريء عربـي حريـة التأويـل بمـا يوافـق القطـر الـذي ينتمـي إليـه.

المؤلف

فتحـي الأحمـدي، أسـتاذ جغرافيـا، مثقـف، يحـب القـراءة، هادئ الطبـاع، نحيـل ومتوسـط الطـول، شـعره كثيـف وشـديد السـواد، أسمـر البشـرة. هو أحد سـكان حي الصفيح، ويعتبر لدى قاطني الحي شـخصاً عظيمـاً لأنـه مـن القلائـل الذيـن التحقـوا بالمدرسـة البعيـدة عـن الحـي.

نهايـة الأسـبوع عنـد منتصـف النهـار، دار الحديـث بـين الأسـتاذ فتحـي والعامـل عبـد الحميـد وهمـا واقفـان عنـد مدخـل الحـي عـن آخـر المسـتجدات بشـأن الدرجـة الوظيفيـة. فمنـذ العام الماضي والأسـتاذ يحـاول الالتحـاق بهيئـة التدريـس في إحـدى المـدارس ولم تصـل الموافقة مـن مكتـب التربيـة والتعليـم. سـأله عبـد الحميـد باسـتغراب: »لماذا لم تصلـك الموافقـة رغـم أنـك خريـج جامعـة؟« أجـاب:

– طلبوا مني ڤيتامين «واو».

– ڤيتامين «واو»! ! !

– ڤيتامين «واو» يعني وساطة.

رفع عبد الحميد يده متعجباً واهتز جسده:

– وساطة!... منذ متى أصبحت الوساطة ڤيتاميناً؟!

– منذ أن اخترعنا الصفر لنبقى فيه.

– اطلـب عمـراً تجـد عجبـاً... ولكـن مـن أيـن لـك بوسـاطة أو ڤيتاميـن «واو»؟!

– محتار، لست أدري ماذا أصنع.

قطع حديثهم مجيب القاف بإلقاء التحية والسلام عليهما، فقال عبد الحميد لمجيب بلهجة استغراب:

– هل سمعت بآخر نكتة؟!

– أيها تقصد، فالنكات كثرت هذه الأيام؟

– الوساطة أصبحت ڤيتاميناً! ذهب الأستاذ لطلب وظيفة واتضح له أنهم يريدون رشوة، أو ڤيتامين «واو».

أدرك مجيب أن صيده أمامه وما عليه إلا رمي السنارة، فسأل الأستاذ، هل يريد وظيفة؟ أجابه بنعم. اصطنع مجيب الغضب بل أتقن الدور وراح يعاتب الأستاذ: «نحن أبناء حي واحد وأنت لم تقل لي.... عيب عليك.... لو أخبرتني من قبل لأسديتُ إليك خدمة».

سأله الأستاذ بشغف: «هل تستطيع مساعدتي؟» أجابه بأنه صديق ابن مسؤول له القدرة على مساعدته، ولكنه مادي ويريد في مثل هذه العملية راتب ستة أشهر، يُسلم له كل شهر.

وافق الأستاذ، فقال له مجيب بجدية: «سأذهب إليه وأبلغه بالأمر، وما عليك إلا الذهاب إلى مكتب التربية والتعليم يوم الثلاثاء وتقديم ملفك وستجدهم هناك مرحبين بك ولن تطول معاملتك أكثر من نصف ساعة».

صباح بداية الأسبوع، ذهب مجيب إلى مكتب التربية في تلك البلدية، واستطاع الحصول من الفراش على رقم هاتف مدير مكتب التربية الذي عُين مؤخرا.

أعطى الفراش مبلغا بسيطا من المال مقابل هذه الخدمة ثم توجه إلى مركز اتصالات وهاتف مدير مكتب التربية من هاتف يخفي رقم المتصل مستخدما ذكاءه الحاد وقدرته على إدارة الحوار. هو موهوب، لديه قدرة عالية على الإقناع والسيطرة على محاوريه. يعرف كيف ينتقي عبارات الأوامر. رد عليه مدير مكتب التربية، ادعى مجيب أنه وكيل الوزارة، رحب به وتم تحويل المكالمة إلى المدير، بعد الحديث لأكثر من دقيقتين مع المدير عن سير العمل في المكتب، ادعى مجيب أن الوزير طلبه للحضور في مكتبه. وعلى عجل، طلب منه توظيف الأستاذ فتحي. أظهر المدير الموافقة على طلب الوكيل المفترض مؤكدا له أنه سيقوم بالواجب، فقال له مجيب إن فتحي سيزوره الثلاثاء، أجابه المدير أنه سيستقبله وينفذ مطلبه حال وصوله. شكر المدير وأقفل سماعة الهاتف وعاد إلى الحي، التقى فتحي وأخبره أنه أخبر ابن المسؤول الذي بدوره أخبر والده وأكد له أن والده اتصل هاتفيا بالمدير ووافق المدير على طلبه وما عليه إلا الذهاب في صباح الثلاثاء، وهناك سيجده مرحبا به وأبلغه أن يكون حذرا في التعامل مع المدير. فإذا ذكر له أي مسؤول فما عليه إلا أن يقول إنه صديق خاله أو عمه.

هذا هو مجيب قبل أن يطلق عليه لقب الشيخ. رجل تجاوز التاسعة والثلاثين من العمر. حاد الذكاء، لديه قدرة فائقة على حفظ المعلومات وتذكر الأشياء بدقة، يحسن التصرف دائما لمصلحته، نادرا ما يخطئ، خطواته محسوبة، كل ما يهمه السمعة الطيبة في حيه، وأمام كل من يعرفه حتى ولو كانت تلك صورة يروجها للاستهلاك، يسعى دائما إلى خدمة أبناء الحي والحصول

على المقابل بطريقة ملتوية لا تلفت الانتباه. بهذه الطريقة أصبح الجميع يبادله الاحترام والتقدير، هو من المحظوظين الذين دخلوا المدارس وواصلوا التعليم. بسبب ذكائه، لم يقع يوما في مأزق مادي وهذا ما ساعده على الوصول والالتحاق بكلية العلوم الإسلامية في الجامعة، طريق ساعده على كسب ثقة الجميع. التحق بدورات التنمية البشرية وعمل مدربا لفترة زمنية في أحد المعاهد.

بعد تخرجه في كلية الشريعة بدرجة متفوق، راح يلقي المحاضرات والدروس بعد الصلوات في المسجد، مستغلا موهبة الخطابة والسيطرة على المستمعين، استعان بكتب الأعشاب وشرع في مداواة الناس الذين يثقون بهذا النوع من العلاج موهما إياهم بأن هذا من الطب النبوي، مستغلا الثقة النفسية التي ساعدت البعض على التماثل للشفاء. مؤخرا، نقل مسكنه إلى حي يُناسب دخله المادي.

★★★

مسعد شافي، أستاذ في مدرسة ابن خلدون للتعليم الإعدادي، يعمل في هذه المدرسة منذ أكثر من أربعة عشر عاما، أستاذ تاريخ، متوسط القامة، نحيل الجسم وأبيض البشرة. يعيش مع التاريخ بنفس جميل بالنسبة له، لا يمكن لأحد في هذا العصر أن يجد شخصا يمشي بالشارع وهو يرتدي أقدم الملابس الكلاسيكية القديمة إلا إذا كان مسعد. إنه أهم زبون في أسواق الملابس المستعملة المحلية والمستوردة. كل ما يبحث عنه بدلة أو رابطة عنق موديل قديم من الستينيات والسبعينيات. أحيانا، يجد قطعة بالصدفة. وأحيانا، يتوجه إلى خياط محلي، فهو يعلم طلب الأستاذ. فعلا، يمشي بالشارع بقصة شعره الكلاسيكي

وكأنـه خـرج للتـو مـن شاشـة التلفـاز أبيـض وأسـود، مـن فيلـم قديـم كسـته السـنون بالغبـار. كثـيرا مـا يلفـت الأنظـار بألـوان هندامـه، وكأنـه يرتـدي قمـاش كنبـة أو سـتارة ذات الألـوان والأشـكال العشـوائية الغالـب عليهـا اللـون الأصفـر والأحمـر والأخضـر والبرتقالـي.

مـن أسـعد الأيـام عندمـا اشـترى حقيبـة يـد قديمـة غابـرة وممزقـة نوعـا مـا ليضـع فيهـا أوراق التاريـخ ولترافقـه في ذهابـه وإيابـه.

إنـه رجـل يـرى نفسـه مثقفـا. دائمـا عندمـا يبـدي اسـتغرابه أو البـدء بجملـة لافتـة (بتاريخـي....)

ناقـم علـى الوضع، كل شـيء في الحياة خطأ حسـب تعبـيره الدائم، قلمـا يمتـدح أحـدا في هـذا الزمـان، كل شـخصية هامـة في المجتمـع ينظـر لهـا مـن زاويـة الأخطـاء وكأنـه خلـق لكشـف الخطـأ فقـط، المهـم لا شـخصية أيـا كانـت تعجبـه، لسـانه أطـول منـه، رأيـه يقولـه دون خـوف مـن أحـد، حتـى أنه أثـار الرعـب في قلـوب زملائه خاصـة مدير المدرسـة الذي يخشـاه، ويحسـب لـه مليون حسـاب، معتقـدا أن جرأته قـد تجـر الجميـع إلى جهنـم بـني البشـر. اتخـذ المديـر قـرار إيقـاف مسـعد عـن التدريـس وكلفـه بمهمـة تنظيـم الطابـور الصباحـي وملاحقـة الطلبـة المتمرديـن داخـل فنـاء المدرسـة عنـد فترتي الاسـتراحة والخروج.

هـذا القـرار اتُخـذ بعدمـا وصلـت إلى الإدارة أنبـاء تمـادي الأسـتاذ مسـعد وخروجـه عـن اللياقـة المتعارف عليهـا، فاضطر المدير إلى اسـتراق السـمع حـين كان الأسـتاذ يشـرح حيـاة شـخصيات تاريخيـة وتطـرق لغانـدي. توقـف عنـد مقولـة «كثـيرون حـول السـلطة، قليلـون حـول الوطـن». وفجـأة، خـرج عـن موضـوع الـدرس وراح يقـول: «أيـن هـم

الذين حول الأوطان؟ لا أحد ينتصر لأوطاننا ولهذه الأمة المظلومة، المسحوقة، مجازر ترتكب في حقنا بكل مكان، على مرأى ومسمع العالم، مئات الألوف من الشهداء، شيطنة المجتمعات، إثارة الفتن وتحريض المغفلين على قتال بعضهم البعض. اقتتال هنا وقتل هناك. لكل طرف أوجدوا مبرراً لحمل السلاح، منهم من خلقوا له مبررا دينيا، وآخر مبررا طائفيا أو مذهبيا، وآخر قانونيا أو شرعيا أو وطنيا. وكل طرف موعود بالجنة وكأن لهم علاقة مع الله متميزة، يقضون ويحكمون وينهون الأعمار ويدخلون الجنة أو النار من يريدون، كل طرف يرى نفسه قاضي الله، من نصب هؤلاء قضاة على الله حتى يحكمون على الإنسان أحكامهم الوحشية؟

يا أبنائي، «الرجال بلا قائد عظيم لا قيمة لهم» أنتم أمل المستقبل. صحيح أنكم جئتم في زمن القهر والعجز والتخاذل والتخلف الفكري، ولكننا نعلق على أعناقكم قلائد النصر. أنتم المستقبل. الخونة ستخفيهم السنون في جوف التراب. وأنتم وأبناؤكم من سيبقى على الأرض إلى جانب النصر الأبدي. لا تكونوا كمن سبقكم ولا تأخذوا العبر منهم ولا تجعلوهم قدوة لكم.

أين قادتنا الذين أوكلنا لهم مهمة الدفاع عنا؟.... خذلونا وباعونا ونهبوا ثرواتنا، وأصبحوا هم من يقاتل إلى جانب المحتل ويدافع عنه، بل من عمل معهم بالأمس يتصادم معهم اليوم... يا للعجب، بل وصاروا أبطالاً، وكما قال الشاعر «إنَّ اللصَّ أصبحَ يرتدي ثوبَ المُقاتِلْ»...

أولاد ال.....(اقتحم المدير الفصل وصب نهراً من الغضب والشتائم على الأستاذ أمام الطلاب وأمره بالتوجه إلى الإدارة، ومن ثم توجه إلى

الطلاب وشرح الدرس بطريقته معدلاً ومبرراً ما قاله الأستاذ مسعد).

في الإدارة، اشتد الجدل بين مسعد والمدير، بدا النقاش ساخناً، برر الأستاذ سبب خروجه عن النص بأن ذلك جزء من واجبه التربوي، فرد عليه المدير بصوت مرتفع:

— وما دخلك أنت؟! هل أنت مذيع في قناة إخبارية؟!... (يسخر...) نلتقي بعد الفاصل...

— يا سيدي المدير! من واجبي أن أدخل الحقد والكره إلى قلوب أبنائنا الطلاب ضد المحتلين لأراضينا مادمنا عاجزين عن القيام بمهمة التحرير.

— وهل بلادك محتلة حتى تقول مثل هذا الكلام؟

— وهل هناك بلاد عربية غير محتلة؟ جميع الأنظمة تخضع للسيطرة والاحتلال، والتي لا تخضع للاحتلال يحتلها لصوصها.

يغلي دم المدير ويدور حول نفسه ويصرخ وهو يضرب الطاولة بيده:

— أتريد رمينا خلف الشمس. لم أكن عاقا والدي حتى أعاقب بك.

— ولِمَ تغضب من قول الحقيقة للطلاب؟ ما الضير في ذلك؟ على العكس، أرى أن توعية الطلاب واجب وطني وقومي، وأنا متأكد من تأييدك لي في قلبك.

حاول المدير أن يتحدث بهدوء وهو يدور نصف دورة ثم يعود:

— الوضع مختلف. إذا لم يعجبك هذا، اترك هذه المهنة، أنا مطالب

بالهدوء. لذا، سأوقفك عن التدريس وأوكل لك مهمة رقابية، وهذا أفضل لك ولنا، كم من أستاذ تمنى المهمة الرقابية.

— ولكني.......

قاطعه المدير بصرخة غضب بعد هدوء دام لوقت قصير:

— أنا المدير، من حقي اتخاذ القرار دون نقاش. هيا اذهب إلى عملك...

هذا الأستاذ لا ينتمي لحزب سياسي، فهو يعتبر الأحزاب تخدم مصالحها الشخصية واضعة نصب أعينها الكراسي أولاً وجمع المال من الداعمين ثانياً.

ذات صباح، وبعد دخول الطلاب إلى فصولهم الدراسية، وبما أن الأستاذ مسعد قد قام بواجبه على أكمل وجه، ذهب إلى الإدارة وجلس على الكرسي المقابل لطاولة المدير لعله يقضي وقتا معه إلى حين وقت الاستراحة ليباشر عمله مرة أخرى .

في الحقيقة الأستاذ مسعد غاضب منذ يومين ولسانه لم تتوقف عن الكلام والانتقادات بسبب تأخر راتبه لهذا الشهر على النقيض من زملائه. ذهب إلى مالية التربية والتعليم ليحتج، طلبوا منه وثيقة استمرارية في المدرسة بعد إقرار لجنة المراقبة التي توضح أنه لا يدرس للطلاب ويقضي وقته في العمل الذي يقوم به الإداريون وليس الأساتذة. بعد تسليم مذكرة الاستمرارية بالتعاون مع مدير المدرسة، شكك الموظف في صحة الوثيقة. وهنا اشتد غضب الأستاذ. على هامش الحوار حول هذا الموضوع، قال الأستاذ مسعد بغضب لمدير المدرسة:

- متى يأتي اليوم الذي لا نسمع به من الموظف أن الملف ينقصه وثيقة أو توقيع؟ وهل سيطلع علينا فجر يوم لا يقول فيه الموظف للمتعامل «كيف تثبت أن وثائقك ليست مزورة؟» أكل هذا من أجل تلقي المال مقابل تنفيذ القانون، أم هي الفرصة ليمارس الموظف سلطته العدائية تجاه المواطن واحتياجاته؟!

قال المدير بحذر:

- الوضع الآن أفضل من الماضي (استمر في تركيز ناظريه على الجريدة الناطقة باسم الحكومة..).

- الوضع يا سيادة المدير أسوأ ألف مرة من الماضي (يزداد حماسة في الكلام...) الوضع يدل على كارثة في حق الشعب، العيب فينا.

- الوعي موجود والمستقبل في ظل الحكومة الرشيدة في طريق التصحيح.

- لا مستقبل في يد المفسدين، ولا في يد المواطن العربي، فهو جزء لا يتجزأ من الفساد لسببين (مد أصابعه ليعد السببين وهو يهتز غضبا). الأول: المواطن هو السبب في نشوب هذه الظاهرة لأنه لا يعرف ماله وما عليه ولا يعرف نصا واحدا من القانون يواجه به المسؤول الفاسد. ثانيا: هو من يدفع الرشوة لتيسير أموره في الدوائر الحكومية. فالمبادرة من المواطن، ولو رفض هو دفع رشوة وكذلك باقي المواطنين، لعم الصلاح الدوائر الحكومية. الفساد....

واصل الأستاذ مسعد كلامه، قال المدير في سره «إن الجلوس إلى جانب هذا المعتوه يسبب المتاعب»، انتفض من مكانه ووضع

الجريدة على الطاولة وهم بالخروج قائلا وهو ينظر إليه شذرا:

– سأذهب للإشراف على الفصول وملاحقة الطلبة الغائبين يوم أمس، واصل حديثك مع طاولة المكتب لعلها تفهم ما تقوله. أما أنا، فلم أفهم شيئا مما قلت.

خرج المدير ثم تبعه الأستاذ مسعد ليجلس في غرفة التدريس.

★★★

عبدالحميد وجاره يعقوب من سكان حي الصفيح، صديقان وزميلا العمل في عمارة سكنية تحت الإنشاء في حمل الأسمنت وأحجار البناء. البؤس واضح من جلد وجهيهما المنهك وملابسهما المدعكة والرثة. ومثل السكان البسطاء في أي مكان بالمعمورة، يكاد يكون جل أحاديثهم عن بعضهم البعض. مثلا، فلان قال عن فلان كذا. فلان لم يجد عملاً أو توقف أو طرد. فلان تخاصم مع زوجته أو جاره. كلها أمور واهية وتبقى عادة في المجتمعات البسيطة.

من مرتفع، جلس الجاران في مكان يطل على حيهما، يستعرضان الحي الذي توسع مع مرور السنين وأصبح يحتل بقعة واسعة، وكأنه على وشك أن يصبح مدينة من الصفيح ملاصقة للعاصمة. ذكّر عبد الحميد جليسه عندما سكن إلى جواره أول مرة قبل أكثر من عشرين عاما، وكيف كانت الأوضاع في الحي آن ذاك وكيف أصبحت اليوم. حي مكتظ بالسكان والبيوت العشوائية المتزاحمة والأدخنة المتصاعدة من المنازل بفعل إشعال الحطب والأوراق الكرتونية، وأكوام الخردة والإطارات المستخدمة والمزابل. وراح كل واحد يذكر الآخر بما امتاز به الحي في الماضي من صفات

حميدة لسكان، وظهور عادات سيئة مكتسبة مع مرور الأيام. هذه التغيرات أثارت مخاوف الجارين من الحاضر والمستقبل واشتد خوفهما على مستقبل أولادهما. ما دعاهما إلى التفكير بجدية في كيفية الحفاظ عليهم قبل أن يحدث لهم ما حدث لكثير من السكان.

وقف عبد الحميد في هلع وهو يردد «سترك يا رب، اللهم الطف بنا». نظر يعقوب في وجهه وهو يقول: «الزمن لا يرحم أمثالنا».

بقلق مصحوب بتوتر، قال عبد الحميد:

— علينا مراقبة أولادنا جيدا. أمر مرعب، طفل في سن الثالثة عشرة وهو حشاش؟!

— هذا ما سمعته، كانت وطأة الفاجعة كبيرة جدا على أب يكتشف أن صغيره منحرف.

— الآن، بدأت أشعر بالقلق على ابني إبراهيم.

— لا تخف يا رجل، إبراهيم مهذب ومتزن العقل.

تنهد عبد الحميد طالبا من الله الستر. أخذهما الحديث إلى غير مذهب، وجدا نفسيهما يسلكان الطريق المتعرجة المؤدية إلى قلب الحي. وبعد دقائق، وصلا إلى القرب من سوق الحي المتواضع بحجمه وبما يعرض فيه.

لمح عبد الحميد ابنه إبراهيم الذي تجاوز السابعة عشرة يتحدث إلى لمياء ابنة يعقوب التي تصغره بعام تقريبا، ابتسم عبد الحميد وقال لصديقه يعقوب إن للمياء شأناً عظيماً في قلب ابنه إبراهيم. سأله هل حدثه بذلك؟ أجابه إن ذلك واضح من كلامه معه،

فقال يعقوب إن ابنته لن تجد أفضل من إبراهيم، أكد له عبد الحميد أن العلاقة بينهما متينة منذ الصغر، ويرى أنها ستستمر.

★★★

العميد فاروق أحد أقدم رجال المخابرات. على يده تدرب أبرع المخبرين. لم يكن ضابط مخابرات فحسب، بل مدرباً لكوادر السلك. تلقى تعليمه في الاتحاد السوفيتي سابقا. براعته جعلت مدربيه حينها يثنون عليه. في ذلك العهد، كانت العلاقة مع السوفييت في توسع وتقدم نحو ألا حدود. تأهل على يدهم الكثير من الكوادر بطلب من الحكومة في إطار اتفاقيات بين الجانبين، ذلك كان في زمن يعتبر السوفييت فيه داعما أساسيا قبل أن تنقلب الطاولة فجأة ويصبح التوجه لقطب آخر مع مُعاداتهم.

تقلد العميد مناصب مهمة في الجهاز وأوكلت له مهمات مصيرية في كشف محاولات اختراق أجهزة الدولة والسيطرة عليها. قام بواجبه على أكمل وجه. وبذكائه وحنكته نجح في تجاوز أشد اللحظات الحرجة.

لديه كاريزما قيادية، صوته إذاعي ورنان، شعره الأبيض غابة يكسوها الثلج، رشيق وخفيف الحركة، وجهه العريض يوحي بالصرامة، حليق اللحية والشارب، وما زاد وجهه صفاء.

بالأمس، طلب العميد اجتماعاً عاجلاً لضباط يرى فيهم عامل تواصل للعمل الوطني. هؤلاء هم نخبة النخبة، تتلمذوا على يده ولايزالون يتعلمون منه الكثير. منذ سنين والعميد يراقب هؤلاء عن قرب حتى جاء اليوم الذي يمكنه الثقة بهم بعد غربلة الكثيرين.

في هذا الزمان، زمن التوسع، لم يعد قطب واحد يتحكم بالجهاز مع توسع البقعة العلمية في هذا المجال، بل تحول الجهاز إلى أقطاب وأفرُع عديدة، وهذا شيء طبيعي ويعتبر متطلباً وهدفاً للتفوق. لذا، عمِل طيلة خمسة وثلاثين سنة في تطوير الجهاز وتقسيمه للعمل على جهات كثيرة.

استشعر العميد بأن ما يجري من حوله يثير الشك من تغير مفاجئ لحياة بعض زملائه أو من تخلى عنهم ممن كانوا تحت أمرته. وكعادته، يتحرك سريعا ويسبق الأحداث بوضع الحلول، ويعلن استعداده لمواجهة الخطر قبل وقوعه. بالأمس، استأجر شقة ودعا إليها من يعمل تحت إمرته ويثق بهم من أبرع الضباط.

دخلوا جميعا الشقة تحت حراسة ورقابة غير عادية، لا يسمح لأحد حمل هاتفه النقال. أو ساعته أو أي شيء من شأنه أن يشكل أي اختراق محتمل. عددهم ثمانية، منهم ممن يعمل بالجهة الأخرى للجهاز. حول مائدة الطعام، الكراسي أقل من عددهم، جلس الأكبر رتبة وبقى الأقل رتبة واقفين، هذا اجتماع سري للغاية. وفي مثل هذه الحالات، تكون لحظات الاستشعار بالخطر الكبير. رحب العميد بالحضور وراح يتحدث بجدية مطلقة:

— أبنائي، جمعتكم لأمر مهم، حديثي معكم اليوم سيكون بين الأب وأبنائه المؤتمنين على هذا الوطن. ولا أخفي عليكم أني مفزوع. وهي المرة الأولى في حياتي، لأني أرى متغيرات مخيفة. سأشرح لكم وأنتم تستنتجون أهداف الاجتماع تدريجياً (الدهشة تطفو على أوجه الحضور. فهم يعرفون العميد. لذا، بدوا مركزين على حركاته وكلماته ومازال الكلام للعميد...)

نمرّ بأصعب اللحظات ونحن في نقطة فاصلة ما بين بقاء الوطن أو ضياعه. لقد قضيت خمسا وثلاثين سنة في عملي ولم أشعر بالخوف كهذه اللحظة على الوطن، لم نكن نائمين حتى نقول إننا بدأنا نفشل في حماية المصالح العامة، بل حدثت متغيرات وتوسعت رقعة المؤامرات والتدخلات الخارجية والداخلية للأسف لإفشالنا واحتلالنا مباشرة أو بأبناء هذا الوطن. للأسف، بواسطة أشخاص حاضرين من زمان، منهم من غير جلد وطنيته، وآخرون ظهروا حديثا في أرضنا من أبناء الوطن، خبرتي ستصبح يوما ما محدودة في عصر التكنولوجيا وحرب المعلومات، ما ينطبق علينا ينطبق على الدول العظمى، نحن في زمن مرعب ويتطلب اليقظة والرد الافتراضي. مؤخرا، اخترق جهاز حاسوب الرئيس الأمريكي. وقبله، اخترق الحساب المصرفي الشخصي لرئيس الفرنسي. إذا، نحن في زمن المعلومات المجمعة ومواقع التواصل الاجتماعي وعالم الفضائيات المؤثرة والمؤدية إلى إضعاف الذاكرة الوطنية والتاريخية والاجتماعية، المعارك والصراعات الاستخباراتية أصبحت افتراضية. نتائج المعلومات المجمعة تخطت المعلومات الميدانية، الأذكى هو المنتصر وليس الأقوى بعضلاته. مثلا بريطانيا استعمرت مساحة تساوي ١٣٣ مرة من مساحتها، ليس بواسطة قوتها بل بواسطة العقل والنخب الفاسدة في المستعمرات. حروب المستقبل ساحاتها العقول. لذا، وجب علينا التنبه لخطورة التكنولوجيا وإنشاء المضاد لها. هذا من جهة، ومن جهة ثانية، كنا نرى قرون الرأسمالية واليوم ظهر رأس هذا المخلوق الذي وجدناه غريبا جدا بعد فوات

الأوان والعـالم يسـتيقظ يوميـا علـى كـوارث ماليـة وانهيـار دول، ومـا أتوقعـه أن زلـزل سـيضرب الأرض قوتـه لا تختلـف عـن يـوم القيامـة، سـتنهار الـدول جميعـا ويبقـى الأذكـى والأقـوى، وسـيعاني أغلـب سـكان الأرض مـن الجـوع. نحـن نتعامـل مـع أكـبر عمليـة نصـب في التاريـخ حيـث تُشـترى دول بـأوراق لا جذور ولا أصـل لهـا، يدخـل الرأسماليـون إلى بلـد مـا للمسـاهمة ويشـترون الخـيرات بأوراقهـم ويفلسـون الـدول والجميـع يظـن أنهـم يدعمـون الاقتصـاد ويفـرح النـاس بالكسـب وزيـادة أرقـام الأرصـدة البنكيـة. وفي الحقيقـة، هنـاك عمليـة نصـب بـدأت منـذ نهايـة الحـرب العالميـة الأولى لشـراء نصـف العـالم بـأوراق بـلا قيمـة. سـيحدث انهيـار مالـي للكـرة الأرضيـة وتشـتعل حـروب مـن أجـل القمـح، مـن لديـه الأوراق لا يسـتطيع الاسـتفادة منهـا، ولـن يعيـش إلا مـن يـزرع أرضـه وينتـج لنفسـه. مـن رسـموا ونفذوا هـذه العمليـة يعرفون النتائـج. لـذا، بـدأوا بالتحـرك السـريع لبعـث الـروح في حيلتهـم وإطالـة عمرهـا مـن خـلال الاحتـلالات والسـيطرة علـى ثـروات الـدول بشـكل مباشـر أو غـير مباشـر وإقبالهـم غـير المسبـوق علـى الذهـب ليقيهـم في نهايـة المطاف مـن يـوم الفضيحـة الكـبرى. لـن يخسـروا شـيئاً، العـالم لهـم عبيـد في الماضـي والحاضـر وسـيصبح العـالم لهـم أكثـر عبوديـة في المسـتقبل.

بلادنـا قطعـة مـن العـالم الكبـير، تسـلل إلينـا رجـال الظـل، كمـا تسـللوا للـدول العظمـى. هنـاك مـن سـيطروا علـى العـالم ولا أحـد يعرفهـم، هـم مـن أدخلنـا الآن في حـرب العمـلات العالميـة. لـذا، وجـب علينـا الحـذر ومراقبـة الرأسماليـين في بـلادنا ومتابعـة نشـاطهم

عـن قـرب. بـين يـدي ملـف يثـير الشـكوك حولهـم وحـول أعمالهـم الشـيطانية. حـدث اخـتراق للنظـام والاقتصـاد العـام. دخلنـا مرحلـة جديـدة، ومهمـة الدفـاع عـن الوطـن مهمتكـم. إذا قـدر الله وحصـل لـي مكـروه، العقيـد عمـر يخلفـني وينهـي مـا بدأنـاه جميعـا، عليكـم طاعتـه والعمـل تحـت إمرتـه ولا خـروج عـن أوامـره. سـنضطر لتأسـيس خلايـا للقيـام بمهمـات مختلفـة، الأعـداء يسـتغلون نفوذهـم المالـي لأعمـال توسـعية وتخريبيـة وجاسوسـية. هنـاك علـم التحكـم والسـيطرة عـن بعـد، اختراقـات لرجـال دولـة، اختراقـات للمجتمـع والتحكـم بـه وتحريكـه وتوجيهه.هنـاك مجموعـة أدخلـت سـلاحا متطـورا عـبر الحـدود الشـرقية بمسـاعدة عنصـر لـه وزن ثقيـل في مفاصـل البلـد. هــذا العنصـر كُلـف بتأسـيس جبهـة تمـرد في الشـرق، الأهـداف معروفـة، وغـير المعـروف هـو مـن معهـم ومـن هـم جنودهـم. هـذه مهمتكـم في مرحلتـين، العقيـد عمـر سـيتولى كمرحلـة أولى قيـادة فرقـة خاصـة ممـن نثـق بهـم للهجـوم المباغـت وقتـل المتورطـين في الحـدود الشـرقية. والثانيـة معاقبـة العنصـر المقصـود، تعرفـون كيـف ومتـى حتـى وإن طـال الزمـان. العمليـة سـرية وخـارج إطـار جهازنـا، أثـق بكـم وأحذركـم مـن التـورط في العلاقـات المشـبوهة، وأقصـد النسـاء، حيـث ينصـب كمـين وتتـم عمليـة التصويـر ومـن ثـم الابتـزاز. إنهـا طريقـة قديمـة لكنهـا ناجحـة ومسـتمرة إلى الأبـد. لأن العربـي يقـع في شـباك الإغـراء بسـهولة ولا يمكنـه المقاومـة ولا أدري لمـاذا؟ أهـو الحرمـان؟ الجنـس مقـدس لديهـم (قـال ذلـك بنـبرة المـزاح لتلطيـف الجـو، وسـرعان مـا عـاد لطبعـه الجـاد...) وهـذا مـا حـدث لرائـد محمـود (اندهـش الجميـع)، نعـم محمـود تـورط وتم تصويـره مـع امـرأة مجنـدة لهـم. شـجاعة محمـود وحرصـه علـى بلـده جعلـه يخبرنـي

بذلـك، وطلبـت منـه أن يعمـل معهـم. بـدلا مـن اختراقنـا، سـنعمل علـى اختراقهـم. أبنائـي، نحـن محاربـون لأعـداء الوطـن والشـعب، الأوامـر سـتأتيكم تباعـا عـن طريـق العقيـد عمـر، وكُلٌّ منكـم يقـوم بواجبـه، النـار تحـت أقدامنـا، العمليـات العسـكرية وصـرف السـلاح مسـؤولية نائـبي عمـر، لـن أسـتطيع لقاءكـم بعـد اليـوم حتـى لا يتـم تصفيتكـم لأنـي أشـعر أن أجلـي قريـب. والآن، أسـلم لكـم هـذا الوطـن والشـعب أمانـة، وفي كل مكان سـتجدون وطنيا يعمـل مثلكم، في الجيش رجـال لا يخذلونكـم. عنـد الحاجـة للمسـاعدة، سـيكونون بينكـم. هـم يعرفونكـم وأنتـم لا تعرفونهـم. (أخـرج قائمـة أسمـاء ووضعهـا وسـط الطاولـة وهـو يقـول...) هـذه قائمـة أسمـاء يعملـون لجهـات خارجيـة يتـم تصفيتهـم. تقديمهـم للمحاكمـة وسـيلة لكشـف خليتنـا، وتجعلهـم أبطـالا في وسـائل الإعـلام وتعطيهـم وقتـا للتحايـل. لـذا، وجـب علينـا إرباكهـم مـن أعـداء مجهولـين لا يعرفـون منهـم «لا يكسـر الحجـر إلا الحجـر»، ولـن نـترك فرصـة لأحـد يحـاول الدفـاع عـن نفسـه أو هروبـه أو ممارسـة ضغوطـات مـن أجـل إلغـاء محاكمتهـم أو تأجيلهـا. هنـاك موضـوع لا يقـل أهميـة عـن سـابقيه، أريـد أغلـب قوائـم التجنيـد للمخبريـن هـذا العـام مـن الأحيـاء العشـوائية، خاصـة حـي عبـدالله عيسـى المعـروف بـين العامـة بحـي «الصفيـح» لكونـه موقعاً اسـتراتيجياً مهمـاً، ولا أدري كيـف يمكـن لموقـع اسـتراتيجي أن يصبـح حيا شـعبيا. خاصـة أن هـذا الحـي يشـرف علـى أهـم طريـق إمـداد العاصمـة.

رفع العقيد عمر يده طالبا الإذن:

- سيدي... لي اقتراح.

- تفضل وقل ما عندك.

- نوعز للجهات المعنية نقل جميع الأحياء العشوائية إلى مواقع أخرى غير استراتيجية.

- لا نريد للحكومة أن تصطدم مع الإعلام. كما تعلمون أن الحي قديم جدا وكان في منطقة معزولة ومع توسع العاصمة بمرور السنين صار في الخاصرة. كان هناك قرار بنقل الحي بالماضي. فشل القرار لأن المعارضة حاولت كسب ورقة سياسية بمعزل عن المصلحة الوطنية. سنتعامل مع الواقع ونجند المخبرين. وعندما تكون الظروف مناسبة، سندعم نقل الحي إلى أرض أخرى.

★★★

جاسر نبيل ذاك الرجل المتعجرف العنيف، خشن الطباع، حذر، داهية الفكر، متوسط الوسامة، عاش حياة بائسة في السنوات العشر الأولى من عمره ثم استقطبه مروجو المخدرات وأولوه اهتماما خاصا بسبب دهائه الفطري، فأصبح موزعا وهو في الحادية عشرة، إذ إن الأطفال لا يلفتون انتابه الشرطة في الغالب. وظل هكذا حتى بلغ السن القانوني وأصبح مدمنا للحشيش، استقطبته عصابة أخرى ذات سلطات أعلى في عالم العمل غير المشروع وكلفته بإدخال المخدرات من دولة مجاورة عبر الحدود البرية. نجح في ذلك مرات عديدة. وبما أنه احترف هذا العمل مبكرا، فقد أكسبه ذلك خبرة كبيرة ولا محدودة في مجال التهريب والجريمة حتى أصبح زعيما له ثقله في هذا المجال ومجالات عدة تدر عليه الأموال الطائلة. إلى هذه اللحظة وهو تحت إمرة أشخاص خارج البلد، لا أحد يعلم هل جاسر فعلا صار الرجل الأول للأيادي الخفية بالداخل والخارج، أم أن هناك محركين آخرين خلف

الستار؟ هل فعلا الثروة التي جمعها ومازال يجمعها تخص جاسراً فقط أم أنه مجرد موظف للمجهول أو للمجهولين بمقابل......

هناك أسرار كثيرة تظل خفية، مثلا جاسر ومن هم الذين يديرونه أو الذين من حوله؟ ومن هم الذين يشبهون جاسراً ولكن في مجالات أخرى غير عالم الجريمة السري؟

جاسر رائد في تجارة الأعضاء، فيده الخفية وراء طرق كل باب يمتلكه فقير في جميع الأحياء الشعبية، أعوانه كثر. هو أشبه بمنظمة إرهابية مهيكلة بحيث لا يعرف المرؤوسون شيئا عن رؤسائهم، ولا تعلم أي مجموعة شيئا عن غيرها من المجموعات. حتى أصبح لجاسر من يدير شؤونه عن قرب مقابل نسبة مئوية، ولكنه يبقى العقل المدبر والمخطط ومبتكر المشاريع الجديدة بعد موافقة يجريها في جلسة عمل خارج البلد. هو أول من ابتكر مشروع المشغل القصري الذي يجبر الأطفال المخطوفين على العمل فيه حوالي ثماني عشرة ساعة في اليوم، يقومون بأعمال يدوية مثل تطريز القماش الراقي يدويا، ويقوم بدوره بتصديره إلى جميع أنحاء العالم، فمثل هذا القماش باهظ الثمن لأن المصانع لا يمكنها إتقان مثل هذا العمل، وكذلك الكبار قليلو الخبرة وغير الموهوبين لا يمكنهم تطريز قماش فاخر بإتقان وحرفية. وإذا وجد من يستطيع القيام بهذا العمل، فهو يتقاضى راتبا مرتفعا جدا. ولكن الأطفال تحت الظروف القاسية والحرمان من النوم والتعذيب عند الخطأ، يكونون أكثر حرصا على العمل خوفا من العقاب. إنه إبداع وإلهام وموهبة قصرية. هذا التوظيف الإجباري وفر عليه مشقة البحث عن متخصصين في التطريز، ووفر عليه الكثير من الأموال. فالمنتج

لا يكلفه سوى ثمن القماش وأدوات التطريز. شركته أصبحت ذات صيت عالمي وزاد الإقبال على منتجاته حتى أنه أصبح عاجزا عن تغطية متطلبات السوق مما دعاه إلى زيادة عدد الأطفال المختطفين من الأحياء الشعبية. وغالبا ما يكونون من أطفال الشوارع الذين لا أهل لهم.

★★★

ستة أيام ووسيم عاطل عن العمل بسبب حملة البلدية ضد الباعة المتجولين في الطرقات، آخرها تعرضهم للضرب بالعصي ومصادرة بضاعتهم. اشتدت حاجته الماسة للمال، ظل يبحث عن عمل فلم يجد. بيع المناديل في جولات السيارات هي مهنته منذ أكثر من تسعة أعوام، بل تطورت إلى بيع كاسيتات للمطربين الشعبيين، ومياه معدنية. ينتظر الإشارة الحمراء، ينطلق بخفة عالية إلى نوافذ سائقي السيارات ويعرض بيع احتياجاتهم، تضيء الإشارة الصفراء يستعد للانسحاب إلى الرصيف ليأخذ بعض الاحتياجات وينطلق إلى الرصيف الآخر حيث تكون الإشارة حمراء.

تزوج ابنة حي الصفيح وسيطة، ولديه منها ثلاثة أطفال، الأول في ربيعه السادس، والثاني في ربيعه الرابع، و الثالث مازال ضيفا على الدنيا.

جلس وسيم إلى جانب زوجته على حصيرة قديمة عريضة نوعا ما، ظل يحدق في زوجته، تحاول إسكات رضيعها، يرمقها بنظرات الخجل والشعور بالذنب لأنه لم يستطيع توفير ثمن الحليب الذي زاد سعره بشكل جنوني. حينها، كان وسيم في

المستشفى مع زوجته، منعها الطبيب من إرضاع طفلها لفترة من الزمن بسبب سوء التغذية التي صاحبتها طيلة فترة الحمل حتى أن المرض تطور، وأصبحت تعاني من أنيميا. فهي بحاجة إلى نظام غذائي صحي كي تعود إلى حالتها الطبيعية مع تعاطيها بعض الفيتامينات والأدوية.

احتار زوجها، هو غير قادر على شراء الدواء ولا الخضار والفواكه لزوجته المريضة، ولا الحليب لابنه الرضيع. تارة يده على خده، وتارة يعضُّ أصابعه لحاجته الماسة للمال. لم يقتصر الأمر على ذلك، حتى أبو أحمد البقال قد شدد الخناق عليه بسبب دين لم يسدده منذ فترة. ولولا أن مالك البيت القصديري رعاه قليلا ومنحه فرصة لتسديد الإيجار المتأخر عليه، لجُن وسيم.

وقف وهم بالخروج، نادته زوجته، وسألته عن وجهته؟ أجابها بأنه ذاهب للبحث عن المال.

خرج وتوجه إلى بقالة أبو أحمد، وهناك ألقى السلام عليه، لم يرد عليه وتجاهله وهو يقدم طلبات زبون كان واقفا في المحل. ظل وسيم صامتا حتى فرغ البقال من عمله، فقال له أبو أحمد بلهجة تدل على الغضب:

- ألم تخجل من نفسك حتى الآن وتسدد ما عليك من دين؟!

رد وسيم بصوت يرتعد تأنيبا:

- والله أني لا أملك شيئا...

قاطعه البقال:

– ولم أتيت إلى هنا إذن؟!

– جئت لأطلب منك معروفا.

– أنا لست أهلا للمعروف، لو تساهلت مع سكان الحي لفشلت في لحظات، الجميع فقراء، وأنا في صراع دائم معهم، أحاول مساعدتهم بتوفير بضائع من الدرجة الثانية والثالثة، وأبيعها لهم بنصف الثمن رثاء لحالتهم. أليس هذا دليلا على نبلي؟! وأضحي بحياتي من أجلهم. لو ألقت الشرطة القبض عليّ لزُج بي في السجن، أُخاطر بحياتي من أجلكم وأنتم لا تستحقون التضحية (هنا قصد أبو أحمد البقال البضائع المنتهية الصلاحية التي يبيعها بثمن بخس، لولا فقدانه لأعصابه من شدة الغضب لما أفصح عن ذلك أو لمح بتجارته المحظورة، لأنه يعلم أن مثل هؤلاء من البشر ليس لهم القدرة على المعرفة والتفريق بين المنتجات الجيدة والفاسدة. فهم ليسوا أهلا للمعرفة، المهم يعيشون ويتبضعون بأسعار مقبولة لهم وأقل من أسعار السوق، هذا يحصل تحت تغاضي المفتش مقابل الحصول على المال).

ظل وسيم صامتا لهنيهة ذهبت نفسه فيها كل مذهب ثم رفع رأسه وقال متوسلا:

– أكمل معروفك معي وأعطني حليباً.

– نجوم السماء أقرب لك، عندما غضبت منك في المرة الماضية قلت لك أمام أهل الحي إن زوجتي طالق لو بعت لك أي شيء أو أقرضتك المال.

– ليس لدي حل آخر.

- أرجـوك يـا وسـيم لا تحرجـني (ثـم تسـاءل باسـتغراب)، أنـت فقـير فلـمَ تنجـب أكثـر مـن طفـل؟!

أطلق زفرة غيظ وقال:

- واللّه إنـي لم أكـن أنـوي الإنجـاب أكثـر مـن طفلـين ولكـن حصلـت الغلطـة واللّه يلعـن الشـيطان، وزوجـتي لم تحسـن التصـرف.

- كان اللّه في عونـك (قالهـا كمـن يطـرد شـخصا وهـو يشـير بيـده ليبعـده عـن المحـل).

أخـذ وسـيم يجيـل نظـره هنـا وهنـاك كالزاهـد المجنـون، وبعـد فترة طويلـة مـن المشـي، دخـل أحـد الأسـواق، ظـل يتجـول ويتمنـى أن يحصـل علـى بعـض الأشـياء، ينظـر إلى الخضـار والفواكـه ويتمنـى لـو كان لديـه بعـض منهـا ليقدمـه لزوجتـه. وعنـد طـرف السـوق، توقـف أمـام محـل وأبصـرت عينـاه الحليـب، تذكـر ابنـه، لم يسـتطع مقاومـة هواجـس جـوع ابنـه حديـث الـولادة، فهـو مُخـير بـين حيـاة ابنـه مقابـل علبـة حليـب أو الأسـوأ.

اقـترب مـن المحـل المكتـظ بالزبائـن والسـلع متزاحمـة ومتراكمـة مـن حولهـم، بـدأ جسـمه بالارتعاش خوفا وحبيبات العرق شـرعت بالسـقوط وهـو يمـد يـده لأخـذ علبـة الحليـب ويلتفـت يمينـه ويسـاره خوفـا مـن أن يـراه أحـد، تناولهـا وأخفاهـا تحـت ثوبـه، وهـم بالمغـادرة. مـن الخلـف كان ابـن مالـك المحـل واقفـا بجثتـه الضخمـة وبنيتـه العملاقـة يراقبـه عـن بعـد، تبعـه بهـدوء وأمسـك بـه مـن الخلـف وصـرخ:

- سارق.....سارق......سارق.....

فقد وسيم قدرته على الكلام، هذه أول مرة يسرق. انهال جميع الزبائن عليه ضربا، أخرجوه من المحل والجميع ينادي: «.....سارق......سارق.....»، يشتد الضرب عليه، يصرخ ويتألم حتى ارتمى على الأرض، يتلقى الركلات من جميع الجهات، يحاول صد ركلة فتتبعها عدة ركلات أخرى في كل وجهه. الفوضى عمت المكان، الجميع يضرب، كل من مرّ من أمامه يوجه له ضربة بيده أو ركله أو يبصق عليه ويطلق عليه الشتائم وكأنه سرق خزينة عمومية أو بنكا. الدم يتطاير من فمه مع كل سعلة يطلقها إلى الهواء، صرخ أحدهم:

- احملوا هذا الكلب إلى خارج السوق حيث دورية الشرطة وسلموه لهم حتى يصبح عبرة لمن يعتبر.

تعالت الأصوات «احملوه» ومنهم يقول «لا تحملوه... اسحلوه... يجب أن تقطع يده»، سحلوه إلى خارج السوق، أخرجوه من بين أكوام البشر الباحثين عن فرصة ينالون فيها شرف المشاركة في ضرب السارق أو البصق عليه، وأضعف الإيمان النظر إلى وجهه حسب الفضول في مثل هكذا مجتمع. رموه أمام دورية الشرطة وقالوا بأصوات متفاوتة: «سارق ...... سارق ..... سارق». من خلف المتزاحمين، يقف رجل في الأربعينيات من العمر، يبدو علية الرزانة، وهذا واضح من ملابسه الأنيقة وهيئته الملفتة للنظر، اقترب قليلاً متجاوزاً بعض المتفرجين ليلقي نظرة ليعرف سبب هذا التجمع والأصوات المتعالية، وقال بلهجة مهذبة لمن أحضروا المذنب:

- ما كان ينبغي عليكم ضربه... ألقيتم القبض عليه، سلموه للشرطة دون ضربه، إنه بشر ولكل شيء حرمته.

تدخل فضولي:

– أحرمة لسارق؟!

– ليتكم تثورون على اللصوص الذين استأثروا بأرواحكم.

رد آخر:

– هذا السارق امتداد للأكبر منه.

– هداكم الله إلى الصواب (قالها وهو يستدير بجسده نحو الخلف ليغادر المكان وهو يردد «لو سرق منكم الضعيف لأقمتم عليه الحد...» مجتمع متناقض، لو سقط مبلغ من المال لأحد المارة لتعاركوا جميعا كل يريد الحصول عليه ولن يتعاركوا لإرجاعه لصاحبه...)

رفع رجال الشرطة السارق من على الأرض، أدخلوه إلى دوريتهم ثم نقلوه إلى قسم الشرطة بدلا من المستشفى، وطيلة الطريق ورجال الشرطة يشتمونه بدون استخدام العنف ضده، أدخلوه مكتب الضابط:

– هذا سارق.

– ماذا سرق؟

– حليب!

– أرموه في الزنزانة حتى أنظر في أمره وأحوله إلى النيابة.

وصل خبر وسيم إلى الحي، حيث تناقله الجميع حتى بلغ مسامع زوجته وسيطة، تلك المرأة التي نال المرض منها، صرخت صرخات دوت في أرجاء المكان، رمت قطعة القماش التي أرادت أن تغيرها لرضيعيها، وركضت نحو الخارج، تبعتها جارتها التي أبلغتها بهذا المصاب، حاولت أن تمسك بها فلم تستطع، احتشد حولها الكثير من السكان ما بين مواس لها وما بين مؤكد أن الخبر ربما يكون غير مؤكد، إلا أنها رأت سواد الأيام القادمة نصب عينيها.

★★★

رشيد أبو حفيظ، أحد سكان حي الصفيح، منزله شديد التواضع، يسكنه مع زوجته (ولاء) وابنتيهما(الأولى في سن السادسة والثانية تجاوزت الثالثة) وأمه العجوز المقعدة.

رشيد البالغ من العمر ثمانية وثلاثين سنة يصغر أخاه (عادل) بأربع سنوات. أمه (زينب) تعيش معه في الوقت الحالي. منذ فترة طويلة، كانت تسكن مع عادل، إلا أنه ضاق بأمه ذرعا لأنها عاجزة عن المشي وبدأ يتذمر منها بناء على رغبة زوجته التي أرادت أن تأخذ راحتها مع زوجها، وأولادها وليس لديها أي استعداد لتمريض حماتها. عندما أصيبت السيدة زينب بالعجز الكلي عن الحركة، كانت زوجة عادل تظن أن ما تبقى من حياتها لن يتجاوز الأشهر، إلا أن الله أمدها بالعمر رغم عجزها. ظلت زوجة عادل طيلة أشهر تمرض حماتها في انتظار وفاتها، وتكون بذلك قد كسبت رضى من حولها، إلا أنها لم تتحمل تمريضها لسنوات. وذات يوم، كشفت لزوجها، متعللة بأوهى الأسباب: «ظهري يؤلمني بسبب الحمل الأخير، والألم يجعلني

عاجزة عن الخدمة والتدليك على أكمل وجه، ولا أرضى لنفسي أن أكون مقصرة حيالها. لذلك، أقترح نقلها إلى منزل أخيك رشيد، فزوجته في صحة جيدة، وما أن يزول ألم ظهري حتى أطلب منك إعادتها إلى بيتنا لأواصل الاعتناء بها، ولعل في اقتراحي خيرا لها، لأن التغيير قد يساعدها على استعادة جزء من عافيتها. ومع أن أخاك فقير فليس من العدل أن لا يلقى منك إحسانا مادام والدتك ستعيش معه ولو لفترة وجيزة».

فكر الزوج في الأمر مليا، ففي قلبه شيء من الزيارات المتكررة لرشيد وزوجته وبناته لأمه أكثر من مرة أسبوعيا. وعندما يشتد مرضها، لا يغادر رشيد الغرفة المخصصة لأمه في منزل أخيه. وعندما جاء رشيد لزيارة أمه في المرة الأخيرة، اصطنع عادل الحجج بشأن نقل السيدة زينب إلى منزل رشيد، هذا الأخير تلقى الأمر بفرحة عارمة. لم ينظر إلى الأمر من الزاوية الأخرى، بل تلقاه من باب العدل، أي أن تكون أمه إلى جانبه ولو لفترة قصيرة رغم فقر حاله وغنى أخيه النسبي الذي يمتلك منزلا جيدا في حي راق. فهو من أصحاب الطبقة الوسطى، لديه متجر لبيع الملابس الجاهزة. أما رشيد، فيعمل في سوق لبيع الخضار.

في الأسابيع الأولى، كان عادل يزور والدته كل جمعة، وبعد ذلك قلص الزيارات وجعلها مرة كل أسبوعين، وأمدها إلى شهر حتى أصبح شبه ظل عديم الفائدة. ولذلك أسباب خاصة لا يعرفها إلا هو وأحيانا لا يعرف القدر الكافي عن تصرفاته. عمله يشغله وكذلك أولاده المدللون وزوجته، وأحيانا يظهر تذمره من دخول حي الصفيح الذي يثير اشمئزازه.

رغم دخل رشيد المتواضع إلا أنه اقتطع جزءا من مكاسبه لفترة طويلة ليوفر ثمن كرسي متحرك لأمه لكي يفسحها في أرجاء الحي أو يأخذها إلى الطريق المؤدية إلى أعلى الجبل الذي يعلو الحي لتستنشق النسيم وتستمتع بالمنظر من الموقع المرتفع نسبيا.

★★★

في عمق عاصمة بلد مترامي الأطراف، ترى الكائنات من حولها كأنها ساكنة وغير ساكنة، كأنها موجودة وغير موجودة، مرئية وغير مرئية. فهذا الجمال الخلاب يغتسل في ضوء القمر وكأنها غانيات ثملات يهوين الرقص بارتخاء حول النجوم، يهوين الاستحمام بين الظلام، يعشقن السكون المولود من رحم الكلام. تُسمع ضحكات خافتة تتصاعد من خشخشة أوراق الأشجار كالهمسات، كالنغمات. يحسبها السامع بكاء، بكاء الطبيعة على الحياة البائسة. تتسلل تلك الضحكات إلى الأحياء، تطوق المنازل، وتعبر الطرق لتأخذ معها سعادة السعداء وتعاسة التعساء. هذه الأرض تمد يدها لتصافح المدينة. وكل صباح، تنتصب في إجلال وتعظيم لإبداع الخالق، جمالا أبدع الله خلقه وشوهه الإنسان المتحضر، خلقه الله ليريهم عجائب خلقه فعبث بها الإنسان البدائي في هذا العصر وحول النسيم إلى دخان. تلك الروعة كانت في الماضي مهد الجمال، ولكن إيادي أبنائها العابثين أفسدت كل جميل، إلا أن ملامح الجمال مازالت تقاوم مفسدي الطبيعة.

كانت واحات ربانية قبل عشرات السنين، والصراع مازال قائما، وربما إلى أبد الآبدين بين الطبيعة التي تسعى جاهدة للحفاظ على تألقها وكأنها امرأة جميلة أثمرتها شجرة مباركة

وبـين الإنسـان صاحـب الأسـلوب العبثـي.

أنـين هـذه الأرض يهـز عـرش السـماء، تسـتغيث، تناشـد: أمـن جيـل يحفـظ مـا تبقـى مـن جمالـي، ويصـون كرامـتي، ويـدرك مـا حـل ومـا سـيحل بـي؟ أمـن جيـل ينتشـلني مـن طريـق الضيـاع؟ أمـن معـين ينقـذ مـن يسـكن فـوق ربـوع جسـدي؟ اسـتغاثة لـن تُسـمع، اسـتغاثة لمـن؟ لشـبيه ظـل الشـيطان عـدو الوجـود.

في هـذه الأرض يسـكن التاريـخ في بيـت بنـاه الإنسـان مـن العبـث والكراهيـة. كل مسـاء وعلـى ضـوء الظـلام يجلـس التاريـخ علـى كرسـي الدمـوع وطاولـة الألم، يتنـاول ورقـة مـن هـواء وقلـم مـن خيـال، مـداده الزمـان، ليـدون كلمـات عابـرة للمسـافات تمتطـي بسـاط الثلـج لتسـبح في تيـار الهـواء عكـس اتجـاه الريـح، تتحـدى غضـب الشـمس في صيف أنفاسـه الصقيـع. يجلـس التاريـخ حائـرا، يـده علـى خـده، كلمـا دون كلمـة مـن يومياتنـا تنهـد، وكلمـا دون حدثـا تأفـف. وإذا انتهـى مـن التدويـن، ينظـر إلى نفسـه لـيرى شـخصا غريبـا مكانـه.

حـي عبدالله عيسـى المعـروف شـعبيا (بحـي الصفيـح) يحتـل نقطـة مـن جسـد هـذه الأرض لم ترفضـه الأرض، بـل رفضـه أسـلوب الإنسـان القارونـي. هـذا الحـي العشـوائي المبـني مـن الصفيـح مـن مجمـل أحيـاء متشـابهة تنتشـر علـى محيـط المدينـة، لكنـه الأكبر. يسـكنه أنـاس ربما يعتـبرون مواطنـين مـن الدرجـة الثانيـة أو الثالثـة في نظـر الآخريـن.

في الماضـي، كان الحـي بعيـدا جـدا عـن المدينـة، ولكـن الوضـع تغـير وزاد زحـف المدينـة، فتوسـعت حتـى أنهـا أوشـكت علـى احتضـان الأحيـاء البعيـدة لتصبـح جـزءا منهـا.

لا يحظى الحي باهتمام السلطات، لا يوجد منهم إلا بضعة متعلمين. السكان دائمو التذمر جراء الأوضاع المتردية، غاضبون جراء أحوالهم الاقتصادية المزرية، فهم بالكاد يستعطون سدّ رمق أولادهم، مما اضطر بعضهم إلى إرغام أولادهم على العمل باعة متجولين أمام إشارات المرور. حديثاً، أصدر قانون منع البيع أمام إشارات المرور وفي الجولات. فبدلا من إرسالهم إلى المدارس للتعلم، يتم إرسالهم إلى أرصفة الشوارع ليصبحوا أطفال شوارع. والبعض الآخر، يرسلونهم للتسول حتى أنهم لا يملكون خيارا سوى تشجيع أولادهم على كسب لقمة عيشهم بأي وسيلة سواء كانت مشروعة أو غير مشروعة.

إبراهيم من أبناء هذا الحي، هو ابن عبد الحميد الحمال في مباني سكنية تحت الإنشاء.

ذلك الشاب يحمل سمات شبيهة بوالده نوعا ما، متوسط القامة، نحيل الجسد، عريض الوجه، متوسط السمرة، يكسو لحيته الشعر الخفيف الذي ظهر عليه حديثا، واسع العينين، شاب قد يكون جذابا بشعره الخفيف المنساب بسلاسة.

بعد بضعة أسابيع، من المفترض أن يحتفل بعيد ميلاده، لكنه لا يعرف شيئا اسمه عيد ميلاد، أو عيد حب، أو ما شابه من الأعياد الارستقراطية. أيامه كلها عمل من الصباح حتى آخر النهار. يعمل في جمع العلب المعدنية والبلاستيكية ويبيعها في سوق مخصص لهذا الغرض. عمله المجهد يدر عليه بضعة ملاليم. إذ يجد وقتا للحب والمتعة مع ابنة جاره يعقوب أو «العم يعقوب» كما يسميه.

هـذا الحـب الناتـج عـن تقـارب الأسـرتين، وقمـة سـعادتهما امتـزاج الـدم تقديسـا للجـوار والمحبـة المزروعـة منـذ زمـن بعيـد. هـذا الحـب تغذيـه فطريـا الطفولـة والـبراءة وربمـا التعـود، وكذلـك لميـاء ابنـة يعقـوب، الـتي تبـدو علـى وجـهها علامـات البـؤس والشـقاء مـن صعوبـة الحيـاة، جلـد يديهـا متشـقق مـن غضـب آخـر أيـام الشـتاء، وكذلـك وجنتاهـا المحمرتـان. لكنهـا لا تكـترث لهـذا ولا تفكـر في المستقبل برغـم مـن ذكائهـا في التعامـلات، تربـت علـى حيـاة قاسـية. ولذلـك، ليسـت طموحـة وجـل مـا تحـب هـو يومهـا وليـأت الغـد بمـا فيـه. إن كان سـيئا فلـن يكـون أسـوأ مـن الأمـس واليـوم، وإن كان حسـنا، فلـن يكـون بالحسـن الـكافي لتحقيـق السـعادة.

ذات يـوم، أنهـى إبراهيـم العمـل عنـد الثانيـة ظهـرا، عـاد إلى منزلـه فوجـد والدتـه (شـفيقة) جالسـة علـى مرتبـة مـن الأحجـار المربعـة، عليهـا قطعـة سـجاد بـال يغطيهـا لتظهـر في شـكل مرتبـة عريضـة تسـمح لأكثـر مـن ثلاثـة أشـخاص بالجلـوس عليهـا، جلـس إلى جانبهـا بعـد أن أخـرج مـا جمعـه اليـوم مـن مـال، ناولهـا، ظلـت تخيـط قميـص زوجهـا وهـي تقـول لـه:

- اشتر بها كيلو سكرا، وكيلو قمحا، والباقي ......

مُقاطعا بأدب:

- أريد الباقي لي يا أمي.

- خذها يا بني.

- إذا لم احتجها حتما، سأعيدها عند المساء.

نظرت إليه في ارتياب، ووجهت له سؤالا وكأنه ما يزال طفلا، بل هو طفل في نظرها:

- عند المساء! إلى أين ستذهب؟!

أجابها بارتباك:

- عند المغرب، سأكون هنا.

- قلت، أين ستذهب؟! (قالتها بحدة)

- أتنزه.

- لا تطل الغياب، كن حذرا.

- أمرك أمي.

شعرت أنها قاسية على شاب لم يرتكب أخطاء تدعو إلى القلق، فقالت له مفسرة:

- أخاف عليك يا بني، هذه الأيام ليست كالماضي. من السهل التورط، ومن الصعب الإفلات من الورطة.

- أنا حذر جدا.

- أنت تعرف ماذا يحدث لشباب الحي وكذلك الأطفال.

- أعرف ذلك، كوني مطمئنة، لن أقع فيما وقع فيه الكثير من الشباب.

لمياء على موعد معه، منذ دقائق وهي في انتظاره على بعد من مدخل الحي. إنها فتاة مسكينة، نحيلة الجسد، متوسطة

الطـول، ملابسـها لم تعـرف المكـواة يومـا، تضـع وشـاحاً قديمـاً يغطـي نصـف رأسـها، جمالهـا متوسـط ربمـا لأنهـا لا تملـك ولم تسـتخدم يومـا احتياجـات النسـاء مـن ماكيـاج وكريمـات ومـا شـابه مـن مسـاحيق تزيـد مـن رونـق وتألـق الفتـاة حيـث تلـف الأنظـار، تبـدو جميلـة بعينيهـا الواسـعتين ورموشـها الطويلـة.

اقـترب منهـا، اعتـذر لهـا لتأخـره بضـع دقائـق، اسـتقلا حافلـة تتوجـه نحـو المنتـزه، الجـو بـدأ في التحسـن والاسـتقرار لهـذا اليـوم. هنـاك، ابتاعـا كـوز الـذرة المشـوية وجلسـا علـى المقعـد العمومـي، يـأكلان ويتبـادلان النظـرات والابتسـامات.

في ظـل اللحظـات السـحرية، دأب الصديقـان يـأكلان ويستنشـقان النسـيم الـذي يدثـر المـكان. وتحـت أشـعة الشـمس الـتي خرجـت مـن جعبـة السـحب العابـرة، خيـم الصمـت علـى إبراهيـم ولم يشـعر بشـيء مـن حولـه. في هـذه اللحظـة، هـو مجـرد جسـد هائـم. أمـا الـروح، فقـد غـادرت إلى مبتغاهـا للمتعـة وقضـاء وقـت غـير مألـوف لديهـا. كل لحظـة متعـة تختلـف عـن الأخـرى وكأنـه يعيـش هـذه اللحظـات للمـرة الأولى.

توقـف عـن الأكل وراح يراقبهـا وهـي تقضـم الـذرة وتلمها بشـفتيها، أدركـت ذلـك وسـحبت مـا تـأكل مـن أمـام فمهـا وبلعـت الـذرة ثـم ابتسـمت وهـي تتسـاءل:

- لماذا توقفت عن الأكل؟!

- أتأمل وجهكِ الجميل. (بداخله هاجس تقبيل شفتيها)

- قبـل قليـل كانـت تبـدو عليـك الكآبـة، أمـا الآن فأنـت شـاعري سـعيد. (قالتهـا متعجبـة).

- عندما أكون معك.

- قبل قليل كنت معي؟ (هكذا تساءلت).

أجابها بأنه كان يحمل هموم الدنيا، قالت له ناصحة: «كن متفائلا وعش يومك بما فيه». قال لها، من حقه إن يحلم ويتمنى. ردت عليه، من حقه أن يفكر في يومه ولو تجاوز ذلك سيتعب. قال مدافعا إنه يريد تحسين دخل أسرته ليستطيع بلوغ ما يطمح إليه.

- كل يوم تعكر سعادتي بهذا المنوال. (انفجرت غضبا)

- أي سعادة تتحدثين عنها؟!

- أليست سعادة وأنا معك؟!

- أما هذه، فنعم.

- أما أنا فكل سعادتي رؤيتك، ولا أستطيع أن أقضي يوما لا أراك فيه، تعودت عليك يارجل (قالتها مداعبة وهي تلكمه على كتفه بعد أن كورت يدها اليمنى).

- أنت الشيء الوحيد الذي خرجت به من هذه الدنيا، ولكني أشعر بغصة في حلقي أحيانا تمنعني من الكلام وتضعف ثباتي.

- عدت لهذا الهراء!

- ليس هراء، بل حقيقة وأثرها سيظل العمر كله.

- أنس هذا الأمر.

- كيف أنسى وأنا أجد نفسي شابا يعمل جامعا للنفايات؟! لو حالفني الحظ، لأصبحت طالبا في كلية الطب، أو الهندسة، أو...... (ينظر إلى السماء ويقول....) أو أستاذاً.

– لست أنت سبب ذلك.

– السبب أني تعس الحظ، ألم يكن من حقي الالتحاق بالمدرسة؟!

– ذلك لو كنت تعيش في وسط المدينة. أما حينا، وكما قال أبي، فلم ينظر إليه حتى ولو بطرف رمش العين، لم يفكروا يوما بإنشاء مدرسة في حينا، أو في أي حي مجاور.

– كان بإمكاني ...

قاطعته بغضب ونفور مما طرق مسامعها:

– يا اللّه عليك، انس هذا الموضوع، أفسدت عليّ لحظات السعادة.

★★★

أصبح مجيب القاف شيخا وإماما لمسجد (الخير). لم يستحسن اسمه اطلاقا، ووجد أن اسمه لا يتناسب مع مكانته الدينية الصاعدة. أطلق على نفسه (الشيخ أبو إيمان) وعرف بين الناس بهذه الكنية. وجهه مستطيل قليلا وبيضاوي، لحيته متوسطة الطول شديدة السواد واللمعان بفعل طلائها بزيت الحبة السوداء، متعمم بعمامة القضاة، دجلته ممتدة إلى ما فوق كعب قدميه، متعطر بعطر من قنينة زجاجية تعبأ في متجر خاص بالعطور الإسلامية ذات رائحة تبقى نمطا متعارفا عليه في أوساط المتدينين، السواك في زاوية فمه أو في جيبه الأمامي كأنه قلم.

اليوم هو الجمعة، اعتلى الشيخ الجديد المنبر وبدأ بالخطبة مقررا أن تكون خطبة هذه الجمعة نارية ليصل إلى هدف معين تحت خطوة محسوبة.

فليس هناك سوى طريقة واحدة للسيطرة على عقول الحاضرين. وهذه الطريقة ليست دينية بحتة، بل استغل الأوضاع الاقتصادية والفساد المنتشر والتذكير بنزاهة السلف. وقف أمام الحاضرين، بدأ بالصلاة والسلام على الرسول الكريم وبالدعاء للمسلمين وحفظهم من كل بلاء، خاض في مواضيع تتعلق بالفساد ثم قال بثبات:

«الفساد انتشر في جسد هذه الأمة، وأصبح جزءا لا يتجزأ من شخصيتها. لو نسأل أنفسنا من المسؤول، (قال ذلك بهدوء ليصمت ثانيتين، ثم يصرخ مهيجا المشاعر ومخاطبا العقول) المسؤول هو المسؤول. أيها المسؤولون، لا يوجد كرسي دوار في القبر، أيها المسؤولون لا يوجد حساب بنكي في القبر، اتقوا الله في هذه الأمة، «كلكم راع وكلكم مسؤول عن رعيته». هكذا قال حبيب الأمة عليه أفضل الصلاة والتسليم، (يخفض من صوته ويقول بهدوء وهو يفتح ذراعيه، وصدى مكبرات الصوت يرن في الأذان) ماذا سيقول لكم الطفل الذي مات جوعا أو مرضا أو خوفا يوم القيامة؟! حتما أنتم عاجزون عن الإجابة، تنهبون، وتعيثون في الأرض فسادا ونحن (يصرخ وهو يرفع سبابة يده اليمنى) صابرون... صابرون... صابرون (يخفض من صوته ويمد راحة يديه نحو الحاضرين) إلى متى يصبر عليكم هؤلاء الطيبون أحباب الله؟! إلى متى؟! أتدرون ماذا يحدث لمن مات وعليه مال لأخيه المسلم؟! تظل النفس معلقة بين السماء والأرض حتى يقضى ما عليه، أبلغوهم أن أنفسهم تظل معلقة إلى يوم الدين، أخطأوا بحق الملايين، (يلتفت إلى يمينه وإلى يساره ليزيد من قناعة الحضور بكلامه ويأخذ نفسا عميقا ليخرجه من الكلمات، وبثقة وحنكه الملقي، يتابع بطريقة

الناصح) من نهب مليماً واحدًا من خزينة الدولة، فهو بحاجة إلى عفو من الشعب كله لأن ذلك ملك للشعب. أيستطيع أحد أن يطلب الصفح والعفو من شعب يوم القيامة؟!».

وهنا تنهد الحضور وراح كل منهم ينظر إلى الآخر، والارتياح من الشيخ أبو إيمان يزيد لحظة تلو الأخرى، من الحضور من همس لمن يجلس بجانبه ويشير بإبهامه من شدة الإعجاب، ومنهم من تردد عن التصفيق لأن بيت الله ليس لمثل ذلك، وكم تمنى البعض لو أنهم في مكان آخر ليهتفوا بالشعارات وليحيوا ذلك الشيخ الذي تكلم بلسان حالهم. بعد انتهاء الخطبة والصلاة تجمعوا حوله للسلام عليه والدعاء له.

الشيخ (أبو إيمان) طلق زوجته مؤخرا لعدم القدرة على الإنجاب، وتزوج حديثا من فتاة قاصر يتيمة اسمها (صفاء) رباها رجل متدين اسمه (عنتر) لديه ثلاثة ذكور وابنتان. أكبر أولاده تجاوز سن المراهقة والتوأمان مقبلان، ابنته الوسطى بلغت الخامسة عشرة والصغرى في ربيعها السادس. لذا سكنه التوتر والتذمر من وجود صفاء بين أولاده، لم يفصح بذلك علنا واكتفى بالتذمر أمام زوجته وبعض أصدقائه المقربين. وما أن سمع الشيخ أبو إيمان ذلك من أحد أصدقاء عنتر حتى تقدم لخطبتها وهي مازالت في سن الثانية عشرة بعد تنسيق قام به ذلك الصديق.

كان هناك مبرر ليتزوجها في هذه السن المبكرة. دينيا، أجازوا أنها مهيأة للزواج، مستندين إلى أدلة من الشريعة فسروها حسب اعتقادهم. أما قانونيا، (الإسلام مصدر كل التشريعات).

تم العقد مع الشهود مثل السلف ونال إمام العقد مبلغا ماليا مقابل إنجازه. وزع اللوز والزبيب بين الإمام والشهود بركة لعقد القران، وهذا عرف متعارف عليه. عند انتهاء عقد قرانه من صفاء. المباركة كانت حارة من رفيقه الشيخ الذي أبرم العقد والشهود بتحصل أبو إيمان على جنة المتعة (قاصر)، حتى إن مبرم العقد قال في سره (توفق الشيخ أبو إيمان.. آه.. العقبى لي ويوفقني الله).

هذا الزواج فتح شهية الوسيط، الذي وجد في عنتر مثلا حيا بمدى اقتدائه بما جاء عبر القرون واعتقد جازما أن عنتر طبق الشريعة مرة، وما المانع من تكرار تطبيقها؟ فتقدم لخطبة بنت عنتر الوسطى ذات الخمسة عشرة ربيعا، تفاجأ الصديق الوسيط بزواج صفاء. بتغير وجه عنتر وارتباكه وأنه استشاط غضبا مع الرفض المطلق لفكرة زواج ابنته. وبعد أن جمع أفكاره، تحجج بأنها ترغب في إكمال دراستها.

الوسيط يعرف حق المعرفة أن الآباء الذين يوافقون على زواج القاصر هم متوسطو التدين الذين يرون ذلك اقتداء بمن سبقهم من الصالحين.

من المؤكد أن هناك معاناة لمن تعتبر طفلة، ومثل هؤلاء يعتبرونها امرأة ناضجة الأعضاء التناسلية، وسبب خلق المرأة أنها مصدر متعة للرجل الصالح.

ولكن مع صفاء اختلف الأمر قليلا عن مثيلاتها كونها يتيمة، تشكر المجتمع على امتلاكها حتى وإنها مازالت صغيرة على مثل هذه التجربة. هي ليست بالمتواضعة الذكاء، بل لابأس عليها، جيدة في دراستها وتعي ما يدور حولها. تنظر في وجه

زوجهـا بصمـت واستسـلام، تتذكـر لحظـات خطبتهـا بذهـول مركـب عندمـا أخبرهـا مـن رباهـا أن عريسـا تقـدم لخطبتهـا وحثهـا علـى الموافقـة، رفضـت بـادئ الأمـر وكانـت تقـول: «لا أريـد، اللّه يخليـك يـا أبـي لا أريـد...». لديهـا فكـرة أن أبويهـا في السـماء عنـد اللّه، هكـذا كانـوا يلقنونهـا، لكنهـا تيمنـا بإخوانهـا بالتربيـة تنـادي عنـتر (أبـي) وزوجتـه (أمـي). تتذكـر عندمـا أخبرهـا عنـتر ذكرهـا أنـه ليـس أباهـا لينسـحب مـن الغرفـة تـاركا المجـال لزوجتـه لإقناعهـا وتعريفهـا معنـى الـزواج والعلاقـة الحميمـة مـع اسـتفاضة في الشـرح حتـى أعلنـت قبولهـا بالـزواج علـى مضض. لا تفارقهـا مشـاهد عـدة عنـد تحضيرهـا يـوم العـرس، ألبسـوها فسـتان الفـرح الأبيـض كبيـاض الثلـج، عليـه حبـات الكريسـتال المـزورة كهـذا اليـوم المـزور، فسـتان كأنـه منـزوع من دميتهـا. تتذكـر لحظـات وضـع الماكيـاج علـى وجههـا وكيـف كانـت حينهـا بريقـا مـن الصفـاء الطفولـي ازداد بهاء مقدسـاً، تتذكـر لمعان عقد الذهـب الصغـير يتـدلى مـن رقبتهـا كأنـه حبـل المشـنقة، تتذكـر رقـص النسـاء الراشـدات حولهـا علـى وقـع أغانـي الـزواج الصاخبـة كأصحاب القلـوب البدائيـة العبثيـة المسـتبضعة، تتذكـر سـكرية الحلويـات المـرة الـتي وزعوهـا لضيـوف، نسـاء ورجـال وأطفـال. لا يمكـن أن تنسـى إنزالهـا مـن علـى الكُوشـة، وتقدمهـا الزفـة مـن ورائهـا قطيـع تصدح حناجرهـم بالأغانـي، وتهتـز الخواصـر فرحـا. تتذكـر أول قبلـة نالتهـا مـن زوجهـا ومـا تبـع ذلـك، ليتهـا تفـوق لتصحـو علـى كابـوس لعـين زارهـا وهـي نائمـة، كـم كانـت سـتفرح.

في غرفـة نـوم عريضـة، عـرض جريمـة الإنسـان العصـري، مـرآة التسـريحة تعكـس عبثيـة القلـوب ومـدى الجهـل المتعمـق المركـب وكأن

الإنسان ارتد عن نفس، بل هو كذلك، هكذا تحدثت الجمادات من حول الطفلة صفاء. لم تعد المسامير قادرة على إحداث تماسك في خشب الدواليب. الملابس النصف مرتبة أصابها الحدث بالبوليميا. لم يعد السرير في كامل قواه العقلية. برغم مساحته الكبيرة التي تسع لنوم بالغين اثنين بكل أريحية ورحابة، إلا أنه الآن يحمل بالغاً على وزن بغل وطفلة على وزن فراشة، وكأنهما ثقل الجبال على ظهره وهموم كسواد الليل في غياهب المعتقلات القصرية. لم تعد مفاصله الحسية تتحمل، إحساسه بالذنب يلعن النجار عندما صنعه سريراً، وكأنه يقول ليتني كنت طاولة طعام خشبية! الجدران ملطخة بدماء وملح دموع طفلة وعرق ذلك المسمى إنساناً. للجدار روح وإحساس، للسقف قلب ودم، للزوايا عيون ودموع، للباب صوت وآهات، للأرض صدى وخطوات، للكرسي شرايين وتعب، للمشط حروف وكلمات، للمصباح القرمزي حكايات وجع.

قنينة العطر أشبه بماء النار، من ترشه برحيقها؟ أهي وئام مشترك بين حبيبين غمرهما الوقت شوقا للقاء؟ أم أنها تمطر صدر طفلة لم تدرك أن للعطر سحره الخاص في ميادين العشق؟

يتوسد الشيخ أبو إيمان خده العريض بشعر لحيته طفلة تبحث عن لعبة، يمتد عليها بجسمه المكتمل وثقله فوق طفله تساوي أقل من ربع جسده، يمارس عربدته مع عصفورة تحاول جاهدة الحصول على ممر للهواء من بين أضلاعه، رائحة فمه مستنقع عميق، يرفسها وتجحظ عيناها ألما، شيء عنيف قاتل يستقر بداخلها، لا يهم نزيف دمها، يهمه شحذ وعبور حادثه بداخلها ذهبا وجيئاً، إنه ينال حسنات لقاء ذلك الفعل العنيف، هكذا

اعتقد، يزداد فحولة، يلعق شفتيها، تصيح علها تنجو من الغرق ومن فعل الخناجر. يفهم صياحها رغبة بما أقبل، ويُقبل بتراتيل الدعاء: «اللهم جنبنا الشيطان، وجنب الشيطان ما رزقتنا، اللهم ارزقنا الولد الصالح». يصب حقده الشرعي بخبث كثيف يفوق العادة غاسلا جسمها الطهور بعرقه، رائحة عرقه ينفر منها السرير وما حوله، يرتمي جانبا منهيا ما بدأ به بعدما استظهر عليها انتصارا مظفراً. لا آمال ولا أحلام لها قتلت، لأنها لم تخلق بعد، بل قتلت طفولتها كحصاد سقط قتيلا بفعل المنجل ليأكله لعين. تمسح بيدها على بطنها، ويد تدثر وجهها علها تغيب عن الكون خجلها، تستمر نزيفا دما ودموعا، تسابق مرعب بين الدم والدمع أيهما الأكثر؟ تشهق ألما... يفهم تعابيرها متعة. يجفف عرقه، ينحني قليلا ليستنشق شعرها برغبة فحولية، يتركها وحيدة كعصفور مصابة ويتجه ليغتسل بعد إظهار رجولته المطلقة في كرسي الزهرة.

بدا زوجها مستمتعا من الناحية الجنسية، إنه يعيش حياة زوجية مع طفلة، أما بالنسبة لها حدث مؤلم، المتعة معدومة، لا لون لها ولا طعم، مثلها مثل السراب خلف الكواكب. تغرق، تصارع أمواج الرمال، تتخبط، تتوجع، وتدمع. ماذا عساها أن تصنع سوى مواكبة القطيع في فعل اغتصابها الشرعي وبمباركة الناس كون طفلة قدمت لهذه الممارسة المتكررة طوال مراحل نموها. بدأ الحدث بتراتيل (هكذا فسروها حسب معتقدهم) تحت مسمى الزواج، واحتفال أقيم شاهدا على مشروع الاغتصاب المتكرر لسنوات وكأنهم من خلال الحفل يقولون للعالم ومن

فيـه: «اشـهدوا، فاليـوم احتفـال بمناسـبة الاغتصـاب الشـرعي».

ولأن الاغتصاب غير الشرعي جريمة يعاقب عليها القانون قد تصل أحيانا إلى الإعدام، ولكل راغب في ممارسة هذه الهواية وإشباع رغباته المريضة أن يمارس الاغتصاب بصفة شرعية يبارك له جريمته كل من حوله، خيرا له من التعرض للمساءلة القانونية وملاحقات المجتمع. ببساطة، موروث وشهود، والفرق بسيط بين الاغتصاب الشرعي والاغتصاب غير الشرعي. بل يسهل توفيره في لحظات، شاهدان ومأذون وألف ألف مبروك.

شدت صفاء ركبها إلى صدرها وهي ترتعش خوفا من ذاك المُخيف أن يعيد الكرة. فالألم الذي يعتريها كل مرة يقطع أحشاءها الصغيرة. تسللت من الفراش حين رأته قد غفا وهو كالجثة الهامدة فاتحا ذراعيه ورجليه على مصرعيها ملقيا رأسه على وسادة مبللة بدموعها، تمعنت وجهه لبرهة وهي مسمّرة في مكانها تراه فاتحا فاه، لم تقو رجلاها النحيلتان على حمل جسدها المنهك وقلبها المحطم، أسرعت نحو الحمام مغلقة الباب وراءها كمصارع. رمت بجسدها الدافئ والمضطرب لتستقبله الأرض الباردة علها تطفئ نار قلبها. فتحت صنبور الماء، شهقت لحظة ملامسة الماء جسدها الطهور، يبدأ من رأسها وينساب ليصل أخمص قدميها مغلياً جاذبا معه ما استطاع من أوجاع سواء كان شيء من ذاك الذي في قلبها أو ما هو عالق على جلدها. شدت شعرها وكادت تقتلعه وصفير احتكاك أسنانها يزعج ما حولها. قليلا من الشامبو كان كفيلا بالتحول إلى حليب ورغوة ناعمة الملمس، تتسارع شهقاتها مع أنفاسها المتقطعة كالمذبوح في مجزرة بشرية (حيوان...

حيوان... قذر... أكرهك... يارب أموت... يارب أموت) هذا ما استطاعت لسانها ترديده كأنه شريط كاست قديم علق بالمسجلة. بدأت تفرك وجهها بعنف محاولة اقتلاع جلدها المليء بما يزعجها وما لا تتحمله، (حقير... حقير... لماذا أنا يارب لماذا؟!.... الشهقات الباكية تتصادم بين الجدران وهي تردد هذه الكلمات التي لم تجد لها بديلا. جهد مضن لتنظيف جلدها حتى تضاعف التعب وتخدر جسدها ورجلاها ترتعدان، أصابع يديها تتمايل لا إراديا وكأنها مصابة بمرض الأعصاب. فهي كالمخدرة على طاولة الجراح. ارتخى جسدها، أفلتت يدها الصغيرة الليفة، والقت برأسها على الجدار وشعرها المبلل كتلة واحدة ارتمى على كتفها .

★★★

خرج الأستاذ فتحي من الفصل بعد انتهاء الحصة الأخيرة، خرج بعده طلبة الصف السابع بكل وقاحة متجاوزين أستاذهم، سقطت حقيبته على الأرض بفعل التزاحم، راح يبحث عنها تحت أقدام الطلبة الراكضين بفوضى، لم يبخل المتجاوزون بدوس الحقيبة بأقدامهم وهم يخرجون ركضا، صرخ فيهم، عبر عن غضبه بانتشالها بقوة من تحت أقدامهم وكأنهم هاربون أو خارجون من سجن طال مكوثهم فيه.

أزال الأستاذ الغبار عن الحقيبة بيده وهو يتمتم بما يقرب إلى الهمس: «متى سيتربى هؤلاء؟ طلاب آخر الزمان، قلة أدب، من حملني على أن أصبح أستاذا؟!».

أستوقفه الأستاذ مسعد ليقطع تمتمته، وقال له ممازحا:

- أفقدت صوابك يا هذا؟!

أجابه بنوع من الغضب مع أنه يتمتع بهدوء الأعصاب:

- لم تناديني يا هذا؟

- أتراني مخطئا في حقك؟!

- لا بأس (وكأنه وجد لشكواه مكانا) ما يذهب العقل هؤلاء الطلاب الذين لا يكنون لأستاذهم شيئا من الاحترام.

- لم تر من الجمل إلا أذنيه! أنا أعمل هنا منذ أربع عشرة سنة، وصدق من قال «لكل زمان رجاله».

- ماذا تقصد يا أستاذ مسعد؟!

بانفعال غير مقصود، أجاب وهو يهز يده اليمنى:

- أقصد الأخلاق. الأخلاق، يا أستاذ، تنقرض من جيل لآخر. وستجد هنا وفي كل المدارس المعنى الحقيقي للانحلال.

قال باستغراب وقد قطب حاجبيه:

- انحلال.....!!!

يهدأ قليلا ليفسر لزميله الأستاذ:

- في تاريخي لم أر ما رأيت اليوم!!! ضبطت طالبا يشاهد مع زملائه فيلما إباحيا في هاتفه النقال. ولست أدري كيف لرب أسرة يسمح لابنه في هذه السن باقتناء هاتف نقال؟! إذا كان لابد من الهاتف، لماذا لا يكون خاليا من التحسينات والألعاب والذاكرة؟!

قال الأستاذ فتحي بسخرية:

- حتما أنت تمزح!!!

أشار الأستاذ مسعد لزميله بيده ليستأنفا المشي وهو يقول:

- والكارثة أني قمت بفحص ذاكرة الهاتف بعد أن أخذته منه بالقوة ودخلت إلى ملف الفيديو، فوجدت ملفا به مقطع من فيلم أجنبي لمدة دقيقة يمارس فيه الشذوذ.

باندهاش وفزع مما سمع:

- شر البلية ما يذهب العقل. قصة لا تدخل رأس إنسان عاقل.

- مازلت ستسمع مالا يسرك من هذا الجيل، جيل مائع.

رفع الأستاذ فتحي يده بالدعاء:

- اللهم استرنا بسترك والطف بنا.

★★★

في فيلا تتوسط مزرعة شاسعة، يعيش رجل المال والسلطة الخفية جاسر نبيل. في مدخل المزرعة الواقعة في ضاحية المدنية، توجد حراسة على مدار الساعة بتقنية كاميرات المراقبة. لا يمكن لأحد الدخول دون ترخيص من مكتبه ودون تفتيش دقيق. وعلى مسافة دقائق بالسيارة، توجد الفيلا. وهنا، التشديد الدقيق على كل ما يدخل إلى المبنى أو يخرج منه.

جاسر رجل نشيط، يحاول أن يحافظ على لياقته برغم تدخينه الحشيش. كل يوم، يقضي نصف ساعة في الصباح يمارس فيها

رياضة الجري. ولا يقتصر الأمر على ذلك بل أنه يمارس رياضة ركوب الخيل والسباحة مرة كل أسبوع.

إنه رجل ضخم الجثة، يصبغ شعره الأبيض، ويحلق شاربه. في نهاية هذا اليوم البارد، جاسر يجوب الساحة الأمامية للمبنى ذهابا وجيئة بانتظار مساعده وذراعه الأيمن. بعد ساعة ونصف من التأخير وصل ودخل المزرعة، دقائق حتى وصل صادق أمام جاسر، ظل صامتا حتى قال له سيده بصوت الواثق الهادئ:

- انتهى الأمر يا صادق؟

- نعم سيدي.

- لماذا تأخرت؟ لم أعهدك كسولا أو متقاعسا؟!

- الفيل كان متثاقلاً في خطواته، ولم يدخل المطعم إلا متأخرا.

قال جاسر وهو ينظر يمنة ويسرة بهدوء وحذر شديدين:

- اخلع معطفك وضعه على الأرض واتبعني.

هذا روتين وقائي يتبعه جاسر خوفا من التنصت. فهو شديد الحذر والشك بعض من شخصيته. هو صاحب مقولة: «كن حادا في الشك، تصل إلى نصف الأمان وتحصل على الحقيقة». رد عليه صادق بالطاعة: «أمرك سيدي».

مشى جاسر خطوات عديدة تحت أشجار النخيل بهدوء وبخطوات متثاقلة وكأنه يستمتع بالنسيم في نزهة عابرة لكسر جليد الملل. حينئذ، توقف عن المشي وأشار برمشه لمساعده لمواصلة الحديث وعاود المشي. يمشي معاونه إلى جانبه، لا يرتدي سوى بنطلون وسترة

ولم يستطع إخفاء قسوة البرد الذي تسلل إلى عظامه وهو يقول:

– دخل «العصامي» إلى المطعم مع حراسته في وقت متأخر، ومثل هذه الشخصية الهامة إطلاق النار عليها قد تكلل بالفشل ولسنا على استعداد لتحمل الفشل. وكنا سنلجأ لاستخدام السلاح لو فشلنا بما أقدمنا عليه؛ فقد جندنا أحد العمال في المطعم حين وضعنا له السم في منديل الطعام.

– هل قضي عليه؟

– بعد أسبوع من الآن.

– ولماذا؟!

– النوعية تفتك بالكبد تدريجيا دون أن يشعر حتى اللحظات الأخيرة.

– كيف ذلك؟!

– هذا النوع من السموم المبتكرة لم يستخدم بعد إلا في المختبرات. حصلنا عليه من أحد رجالنا في الهند. يتسلل إلى الجسم عبر المسامات الجلدية ولا يمكن معرفة سبب الوفاة، حتى اسمه لم أستطع حفظه لأنه اسم علمي طويل ومعقد.

– قمت بعمل رائع.

– أنا تحت أمرك في أية لحظة.

– مازال لديك كمية من هذا النوع؟

– نعم.

– احتفظ به، تستطيع أن تذهب.

العصامي عقيد سري في قسم مكافحة الجريمة الالكترونية، لذا جاءت أوامر التخلص منه.

★★★

بالأمس، أخبر العميد فاروق زوجته بأنه سيزور ابنته في المدرسة ليشعرها بقربه واهتمامه بها وتبقى فرصة يطمئن على أدائها العلمي عن قرب. فهو لم يفعل ذلك منذ مدة. في هذا الصباح، ذهب إلى مكتبه وأنجز بعض أعماله ومن ثم توجه مع حراسته إلى المدرسة. العميد معتاد على التحرك المفاجئ دون مواعيد لا يعرفها إلا هو. حتى حراسه لم يسبق لهم وعرفوا مسبقا تحركاته. استقل سيارته المرسيدس السوداء اللون التابعة للمخابرات وسيارتان ترافقانه في جميع تحركاته لكونه شخصية أمنية مخضرمة ومهمة للغاية. السيارة التي يستقلها تمشي في الأمام تتبعها سيارتان. وعند إشارة المرور التي تضم أربعة طرق منها طريق يؤدي إلى المدرسة، حدث هجوم مباغت على سيارة العميد، انهمر الرصاص من أماكن عدة باتجاه سيارته، ترجل حراسه الشخصيون من السيارتين الخلفيتين وبدأوا بالرد الفوري على مصادر الأعيرة النارية، احتمى الحراس بالسيارات المتوقفة أمام الإشارة الحمراء وراحوا يتصيدون المهاجمين، فهم ذوو كفاءة عالية في حماية الشخصيات المهمة. أما العميد، فقد بدا هادئا وممسكا في يده مسدسه الشخصي بانتظار مناورة يقوم بها رجاله في مثل هذه الحالات، تلفت حارسه الجالس في الكرسي الأمامي وأشار لزميله الجالس إلى جانب العميد، فتح الأخير باب السيارة بسرعة خاطفة وكذلك فعل زميله. وما أن خرج الحارس الذي

بجانب العميد حتى كانت الحقيبة الواقية من الرصاص مفتوحة ليحتمي بها وبجسده يحمي العميد. أما الحارس الثاني، فقد قام بمهمة الصيد وتحريك مسدسه باتجاهات عدة وهو يطلق النار. خلال ثوان، انسحبوا بالعميد تحت تغطية الرصاص إلى السيارة الثالثة التي لم يتم محاصرتها وأدخلوه إلى الكرسي الخلفي بسرعة البرق وأخذوا مقاعدهم والسائق يهم بإجراء مناورة العودة إلى الخلف. عادت السيارة إلى الوراء بسرعة فائقة ودارت في النهاية المطاف نصف دورة لتأخذ طريقها إلى الأمام وتنسحب، وباقي الحرس بقوا لإكمال مهمة فتح ممر لانسحابهم للحاق بالعميد تحسبا لكمين آخر.

أمر العميد السائق بالتوجه إلى مبنى المخابرات وطلب الدعم عبر اللاسلكي لمساعدة الحرس في المعركة وتأمين الطريق المؤدي إلى مبنى المخابرات.

تم التأمين الفوري عبر رجالهم المنتشرين بالزي المدني وهم يمارسون حياتهم المدنية في الشوارع من سائقين وباعة ومارة.

لم يكترث العميد لمحاولة الاغتيال، وجل ما يدور في خلده، كيف تسربت المعلومة بأنه سيذهب في ذلك الوقت إلى ذلك المكان؟ لا أحد يعرف ذلك غير زوجته، عند وصوله إلى مكتبه هاتفها عبر الثابت وسألها إن كانت قد تحدثت لإحدى النساء أو المقربين أو غيرهم بأنه ذاهب إلى ذلك المكان، أجابته بالنفي. أعاد العميد سماعة الهاتف الثابت وخرج إلى مكتب العقيد عمر. كان العقيد قد علم بمحاولة الاغتيال وتابع الحدث ثانية بثانية وأشرف على تأمين طريق العودة إلى مبنى الجهاز وكذالك الحراسة السالمة. دخل العميد، همّ بالقيام من مكتبه، وضع العميد سبابته في منتصف فمه

كأمر بالصمت، ظل العقيد صامتا، تناول العميد ورقة وقلما وكتب أمره: «اترك هاتفك النقال في مكتبك واتبعني»، فعل ما أُمر وتبع العميد إلى فناء المبنى، وضع العميد راحة يده أمام فمه وقال للعقيد:

— هناك اختراق من نوع جديد وغير تقليدي إذا كان ما يدور في رئسي صحيحاً.

— الحمد لله على السلامة، المهم أنك بخير. وسنعرف من وراء ذلك. ومن وراء تسريب توجهاتك.

— قم بالتحقيق ميدانيا أمام الجميع. ومن الجهة الأخرى، يختلف التحقيق.

— ماذا تقصد سيدي؟!

— هناك اختراق عن طريق التكنولوجيا على ما أعتقد.

— أجهزة تنصت؟! أو شريحة تعقب عبر الأقمار الصناعية وضعت في سيارتك.

— الأمر أكبر من ذلك بكثير. سيارتي مرت من بوابة مبنى المخابرات والفحص إلكتروني عند المرور، التنصت عبر الهاتف النقال.

— لا أعتقد أنك تتحدث عن توجهاتك عبر هاتف نقال. (هكذا جزم العقيد).

— تنصت والهاتف مقفل. لا أحد يعرف بتحركاتي هذا اليوم غير زوجتي.

- ربما جهاز تنصت في منزلك سيدي.
- لا أحد يدخل غرفتي نومي غير زوجتي. ومع ذلك، بالأمس، فحصنا المنزل.
- سينفجر رأسي من هذا الغموض، لن أنام حتى تكتشف الثغرة، إنها ضربة قاسية لجهازنا.
- قم بعملية تحقيق سرية عبر شبكة الاتصالات النقالة وافحص هاتف زوجتي النقال بشكل دقيق عن طريق خبير اتصالات. التكنولوجيا حلت محل المخبرين السريين. سنجرب ذلك.
- كيف؟!
- نفذ العملية اليوم عند المساء، وفي القريب سنتحدث عن سر وبجانبي الهاتف النقال. إذا تسربت المعلومة وتحرك أعداؤنا ولاحظنا ذلك، سيكون الجاسوس هو برنامج يدخل إلى الهاتف عبر الشبكة للتجسس. اذهب واستعد لما أوكلته به.
- تحت أمرك سيدي.

العميد رجل أمن من الدرجة الأولى. فهو لا يحمل هاتفاً نقالاً لأنه يخشى معرفة تحركاته عبر تحديد المواقع. لذا، حديثه يتم عن طريق اللاسلكي التابع للجهاز تحت أسماء مستعارة كشفرات يتم تغيرها بين الحين والآخر.

في ساعة الاعتداء على العميد، قتل العديد من المهاجمين وانسحب الباقون. كان هناك مهاجم أصيب ولم يستطيع زملاؤه أخذه معهم، فقام أحدهم بإطلاق النار عليه لقتله لكي لا تتسرب

معلومات عنهم. التقى المهاجمون بمن أوكل لهم مهمة تصفية العميد بمنطقة بعيدة. عاتبهم قائدهم عتابا شديدا لإخفاقهم. وتوعدهم، كان الغضب يخيم على قائدهم ولا يدري ماذا يفعل فهو في انتظار أوامر. وبعد نصف ساعة، دخل رجل أحمر الوجه وأصلع الرأس يلقب بالغول يرافقه حراس أشداء وعاتب قائد المجموعة وأمره بمغادرة المكان مع رجاله فورا والتوجه إلى خارج المدينة وانتظار الأوامر.

★★★

قبل الغروب، كان ذلك الرجل الأحمر الوجه خارج المدينة في فندق متواضع يمتلكه أحد أفراد المجموعة. دخل عليه صادق إلى الغرفة وعبر له عن غضب شديد ينتاب القيادة وأن الأوامر الآن هي الاستعداد لنقل السلاح من الشرق إلى الجبل الشرقي ليتم تسليمه للمجموعة المتمردة التي أنشئت مؤخرا بدعم خارجي للمطالبة بالاستقلال.

«يا غول! أنت المسؤول عن نقل السلاح وأنت قائد هذه العملية. عند الساعة الثانية ليلا، تبدأ عملية النقل. وخلال ثلاث ساعات، تكون الأسلحة في الطريق الجبلي. وهناك، ستبدأ حراسة من الجماعة الجبلية للشاحنات وعلى بعد سبعة كيلومترات من أول صعود الجبل، تسلم الشاحنات لقائد الجماعة. العلامة أربع سيارات تويوتا رباعية الدفع ذات اللون الأسود، الأبيض، العسلي، الرمادي. تلك السيارات ستعودون بها.» (هذا ما قاله صادق للغول).

في الوقت المعلوم ليلا، كان العقيد عمر متواجدا في منزل شبه مهجور على الحدود الشرقية. رجال العقيد كانوا هناك منذ أيام يحُضرون للمهمة. أما العقيد، فقد سافر عبر رحلة الخطوط

الجويـة الداخليـة. راح الجميـعِ يسـتعدون للمهمـة اسـتعداداً تامـاً، الخطـة جاهـزة. اسـتعدوا جميعـاً، لبسـوا ألبسـتهم السـوداء والقفـازات والبِيـادات والـدروع المضـادة للرصـاص. أخـذوا أسـلحتهم الرشاشـة ومسدسـات كاتمـة الصـوت وأجهـزة الرؤيـة الليليـة. السـيارات رباعيـة الدفـع في الخـارج، عددهـم سـتة عشـر رجـلا. هـم المكلفـون بالاقتحـام. أمـا مـن يتكفـل بتغطيـة الخلفيـة، فهـم في مواقعهـم منـذ فـترة علـى هيئـة باعـة متجولـين وعمـال لمبنـى تحـت الإنشـاء. وعلـى بعـد مـن هـؤلاء، توجـد أربـع شـاحنات لنقـل الأسـلحة المسـتولى عليهـا. الشـاحنات متوقفـة علـى بقـاع متباعـدة عـن بعضهـا بألـوان ومـاركات مختلفـة حتـى لا تلفـت الأنظـار، تغطيهـا طرابيـل بلاسـتيكية مخصصـة لتغطيـة الفواكـه علـى الشـاحنات، وبداخلهـا مجموعـة مسـتعدة لنقـل الأسـلحة في مـدة زمنيـة قياسـية تم تحديدهـا مسـبقاً. يكسـو الكـون الظـلام. وعنـد سـاعة الصفـر، تحـرك العقيـد عمـر ورجالـه، اقتربـوا مـن الموقـع وعلـى بعـد ثلاثمائـة مـتر توقفـت السـيارات وبـدأوا التحـرك سـيرا علـى الأقـدام. بحـذر شـديد، تقدمـوا خطـوة تتبعهـا خطـوة، البعـض متخفـون بالأشـجار المتواجـدة في ذلـك المـكان والآخـرون يقتربـون باسـتلقائهم علـى بطونهـم والزحـف السـريع. علـى بعـد مائـة وثلاثـين مـترا أو أكثـر، تبـدأ الحراسـة الدقيقـة للعـدو. ثانيـة تتبعهـا ثانيـة، يسـقط قتلاهـم برصـاص لا صـوت لـه ومجهـول المصـدر. الرؤيـة الليليـة عامـل مسـاعد للعقيـد ورجالـه لمعرفـة بقـع تواجـد أفـراد العـدو وقنصـه، كل طلقـة رصـاص تنطلـق تسـقط قتيـلا ولا مجـال لمعـاودة الطلقـات نحـو نفـس الهـدف، التدريـب العالـي المسـتوى لهـؤلاء جعلهـم متفوقـين. فهـم يعتـبرون مـن أبـرع الرمـاة، يتقدمـون خطـوات سـريعة والهجـوم يتوسـع نطاقـه مـن أربـع اتجاهـات محيطـة بالموقـع.

وعلى بعد ستين مترا، تنبه أحد الأعداء وأطلق النار نحو هدف بدا له غير واضح وحدث ارتباك في صفوفهم بعد سماع رصاصات زميلهم ودوت الطلقات الكثيفة. ولكن هذا لم يساعدهم على معرفة المصادر، فتفوق فرقة العقيد كان واضحا. تقدم سريع وإلحاق القتلى في صفوف الأعداء، مسدساتهم الكاتمة للصوت تمتد وتتحرك مع حركة الأعين وكأنها عين ثالثة. التقدم مستمر، حوصر العدو فلا مفر. الأعيرة النارية تخرق أجسادهم من جهات عديدة، قائد العدو متحصن في مخزن الأسلحة مع مجموعة من رجاله. مرت دقيقتان منذ إطلاق الرصاصة الأولى والعقيد ورجاله على مقربة من المبنى، سيطروا على جميع النوافذ ماعدا نافذة يصدر منها هجوم. إشارة من يد العقيد للتفخيخ السريع للبابين الصغير والكبير، ثوان تم فيها تثبيت القنابل المحدودة وسقطت الأبواب ليتم اقتحام المبنى بعد رمي القنابل الدخانية، هجوم كاسح، لجأ قائد المجموعة إلى غرفة وأغلق على نفسه الباب وراح يستخدم هاتفه النقال ليتحدث إلى من يعمل لديه لينجده، قتل جميع من في المبنى، ثوان والقنبلة ملصقة على الباب المقفل، بعد انفجارها بثوان، رصاصة طرحت قائد المجموعة أرضا، هاتفه بيده، تناول العقيد الهاتف وأقفل الخط الذي مازال يبحث عن مخرج في الشبكة ليمرّ إلى المقصود، تصفح العقيد الرقم وناوله لأحد أعوانه وأمره بتحديد مكان تواجد صاحب الرقم. في هذه اللحظات، كانت الشاحنات قد توقفت أمام المبنى وبدأ الرجال بنقل السلاح. وقت معلوم تم خلاله نقل الأسلحة التي صادروها للتو إلى الشاحنات ليتم الانسحاب بشكل جماعي تحت جنح الظلام. وعند الخروج من المنطقة، انطفأت الإنارة العمومية في تلك المنطقة. وتلك عملية

مبرمجة ليختفي أثر المهاجمين. وصلوا إلى حدود الشرق على بعد أربع ساعات، دخلوا منطقة معزولة تماما حيث يوجد مقر سري تحت إشراف العقيد، فهو من استحدثه مؤخرا.

(الغول) وقف مرعوبا أمام الموقع بعد مشاهدته أول قتيل، اقترب بسيارته قليلا ليتأكد أن الموقع اقتحم، لم يجرؤ على التقدم أكثر خوفا من كمين ينصب له، غادر الموقع وهاتف شخصا خارج البلد وقال له بالغة أجنبية: «قيل لي أن زوجتي دخلت في حالة موت سريري والأمل من نجاتها مفقود، أنا خائف جدا عليها، طمئني على صحتها وإلا عدت في الحال لأراها». رد عليه: «لا تقلق سأزورها وأبلغك كيف تسير الأمور».

هذه شفرة تعني أن العملية فشلت والسلاح كشف أمره. وعليه، فليطمئنوا إذا كان الوضع جيداً للبقاء أو العودة من حيث أتى. الأمر الذي تلقاه يعني «لا تقلق وانتظر حتى أبلغك ما ستفعل».

الغول ليس من هذا البلد. إنه أجنبي يدخل البلد بشكل مستمر على أنه عالم بيئة يجري أبحاثاً حول الاحتباس الحراري. يتلقى أوامره من صادق مساعد جاسر. أما عند الخطر والعقبات الكبرى، فيتلقى أوامره من الخارج.

هذا الاتصال وصل مضمونه إلى العقيد لأنه أمر بمراقبة الرقم الأجنبي، الرقم المحلي الصادر مالكه الحالي مجهول بالنسبة لأعوان العقيد، لأن الرقم مسجل باسم شخص ميت، ومراقبة الرقم أظهرت لغة أجنبية وعليهم الانتظار حتى يعاود الاتصال بهذه الشريحة من مكان إقامته ليتم مداهمة المكان والنيل منه

إلا أنــه أرجــع الهاتــف وأتلــف الشــريحة بعــد الاتصــال بثــوان.

★★★

حكـم علـى وسـيم بالسـجن ثـلاث سـنوات نافـذة بتهمـة السـرقة، أرسـل إلى السـجن العـام ليقضـي محكوميتـه. وهنـاك بـدأ حيـاة جديـدة خلـف القضبـان ليعيـش مـع أجنـاس مختلفـة مـن بـني البشـر المتورطين في شـتى الجرائـم، اسـتلقى وسـيم علـى سـريره اسـتعدادا للنـوم، غـادر رفيـق حلقـة اللعـب وسـط الزنزانـة، اقـترب مـن سـرير وسـيم وسـحب الغطـاء مـن علـى وجهـه وقـال:

– دائمــا الضيــوف الجــدد ينامــون مبكريــن، مــاذا لــو انضممــت إلى حلقــة اللعــب «بالدومينــو» أليــس ذلــك أفضــل مــن النــوم المبكــر؟

– وهل تقبلونني واحداً منكم؟!

– هل طلبت منا ذلك ورفضنا؟

ابتسم وسيم وقال:

– سمعت أن صداقة السجن تدوم إلى الأبد.

– ألا تـدري مـا السـبب؟ المعانـاة الـتي يتسـاوى فيهـا الجميـع هنـا. انهـض وانضـم إلينـا لقـد قبلتـك صديقـا للجميـع.

– صديقا لك، أما الجميع، فكل واحد له رأي.

– أنا هنا الكبير، أنا القائد.

– حتى في السجن!!! (قالها بسخرية في سره).

انضم وسيم إلى حلقة اللعب، فسأله الرفيق الكبير أو الزعيم أو القائد في الزنزانة، وتلك ألقاب يصف نفسه بها: «ما تهمتك يا وسيم؟». أجاب: «الشروع في القتل»، رد عليه القائد إنه أجبن من أن يتجرأ على القتل. رد وسيم مستدركا أنه لم يقتل، بل حاول قتل عدو له. كذبه الرجل مستدلا بحدسه وقدرته على التمييز واكتشافه الكاذب. وبعد إلحاح خشن، اعترف وسيم بجريمته» تهمتي مخجلة، أنا متهم بـــ..... با.... باســ......بالسرقة».

ضحك الجميع من حوله، وقال زعيمهم إن هذه التهمة ليست مخجلة والسرقة وسام شجاعة يتباهى بها الجميع، وسأله: «هل سرق أم اختلس؟! تساءل وسيم عن الفرق بينهما. أجابه أن الفرق واضح، السرقة تطلق للمواطن والاختلاس على الموظف. قال وسيم إنه مواطن وسأل الرجل ماذا عنه؟ أجاب إنه موظف. سئل وسيم عن طبيعة جريمته. أجاب الرجل مفندا:

— كنت أمين صندوق في وزارة الخدمة المدنية واختلست ما يساوي مليون دولار، وتم إيداعي السجن، ثم حكم علي بالسجن لمدة خمس سنوات، (وبعدم اكتراث تابع قوله...) وها أنا قد قضيت عامين هنا، ولكني لست مختلسا لأني أخذت نصيبي ونصيب أهلي من ثروات البلد. الله وكيلك أني حسبت ميزانية واحتياطي الدولة وقسمته على عدد الشعب بالتساوي وكم نصيب كل فرد. وجمعت نصيبي زائد نصيب أهلي وأخذته دون زيادة أو نقص مليم واحد، لأني لا أكل المال الحرام.

ضرب وسيم جبهته وقال بألم:

«حكم عليّ بالسجن ثلاث سنوات لأني سرقت حليبا لابني، والذي اختلس مليون دولار حكم عليه بالسجن خمس سنوات، كم أنا أحمق!»

★★★

يحتضن الجبل حي الصفيح من الخلف والجانب الأيمن، أما من الجانب الأيسر فهو محاذٍ لمدينة الملوك السكنية التي هي قيد الإنشاء. هذه المنطقة كانت مجرد أرض عادية إلى زمن قريب. قبل عام، أُعلن عن البدء في بنائها. مع أن هناك الكثير من العاطلين عن العمل في حي الصفيح إلا أن الشركة المشرفة على بناء المدينة السكنية أحضرت عمالها من الصين.

حي الصفيح منطقة موبوءة لعدم وجود صرف صحي، يتوسط الحي مستنقع من مخلفات الإنسان، الروائح الكريهة تأجج نفور السكان، إلا أن التعود أو قلة الحيلة جعلتهم لا يشتكون من تردي الأوضاع. أصبح الحي مصدرا للبعوض والجرذان والصراصير ومرتعا للعناكب والحشرات الزاحفة، التي تعتبر هذا المكان موطنها الأصلي ومنازل السكان منازلها. الأمراض منتشرة. ولأن الجهل سيدهم، فهناك عطار يبيع لأهالي الحي مساحيق تعالج بعض الأمراض مثل نزلات البرد، وأحيانا يقوم بالكي والتدليك.

ذلك الجبل الذي هو مصدر لجلب الحطب، في ظهر هذا اليوم، الطبيعة على وشك أن تصبح نقمة على السكان، قصف الرعود يضيء سماء المدينة ومن ضمنها الحي. الأمطار تزداد شدة، والرياح تزيد من جنونها. حملت معها كل ما يسهل حمله لترميه

في مكان آخر حتى كادت أن تقتلع ما يعترضها من بيوت قصديرية أو أشجار. السيول انحدرت من الجبل وأخذت طريقها لتمتزج بكل ما في أرض الحي. الكتلة كبيرة، امتزجت مياه الأمطار بالقاذورات والأتربة، بدأ منسوب المياه يرتفع.

في هذه اللحظة، مياه الأمطار تخترق الفجوات في الصفائح القصديرية، التي تآكلت بفعل التصدأ، وضع السكان الأواني تحت كل فجوة لتسقط قطرات المياه عليها، اشتد البرد وتهاطلت قطع البرد بشكل مكثف، أصبح الدوي مزعجا ومرعبا للكبار والصغار. دقائق حتى أوقفت السماء قذف البرد. أما الرياح الشديدة، فما زالت في حالة هذيان، تأخذ كل شيء معها، نزعت معظم أبواب أحواش بيوت الحي المصنوعة من أربع قطع خشبية بالطول والعرض مكسوة بقطعة قصديرية مثبتة على عمودين من الحطب، عمود لمفاصل الباب، والآخر مثبت عليه المزلاج.

أما أسوار أحواش المنازل المصنوعة من الأحجار العشوائية وإطارات السيارات البالية، من المؤكد أنها سويت بالأرض. وكما جرت العادة، تقضي كل أسرة يومين أو ثلاثة أيام في إعادة بناء ما هدمته الرياح والأمطار الغزيرة.

اتخذت لمياء من زاوية غرفتها الافتراضية مكانا لتجلس فيه وهي تحتضن الثروة الوحيدة التي تمتلكها (المسجل الكاسيت، برغم انقراض مثل هذا الجهاز إلا أن فقراء كثراً يحبذون سماع المذياع عبر هذا الجهاز). احتضنتها خوفا عليها من المياه، بدأت للتو تتسرب من أسفل الجدران المبنية من الطوب الأحمر على التراب دون أعمدة تثبت جدران المنزل.

هذه الزاوية أو الغرفة الافتراضية للمياء تفصلها عن باقي المنزل ستارة ربطت من الحائط إلى الآخر بخيط رفيع لتقطع مساحة تسمح لها بالنوم والجلوس. جلُّ تركيزها على المنزل الذي لو طالت فترة هطول الأمطار حتما ستجرفه السيول. غطت أطراف قدميها الباردتين كالزجاج في صباح شتوي بطرف من ردائها. فرشها المتهالك يمتص الصقيع من التراب المرصوف بطريقة تشبه الأسمنت، الصقيع يتسلل إلى قاع قدميها ليدخل إلى عظامها، يواصل زحفه إلى باقي الجسم.

قبل أن توقف السماء مطرها بفترة وجيزة، انقطع التيار الكهربائي، وانتظر الأهالي الأسوأ، وزادوا من تضرعهم بالدعاء. هطول الأمطار لهذا العام، هو الأعنف في السنوات السبع الماضية. قبل ذلك، حدث لهم ما حدث اليوم، وكانت الأضرار حينها جسيمة.

بدأت السماء تخفف حدة سقوط أمطارها تدريجيا حتى توقفت، وضعت لمياء مسجلها الكاست على فراشها وهرعت لتطمئن على أهل منزل عبد الحميد ومن بينهم إبراهيم، خرجت من منزلها لتغوص قدماها في الطين المبلل، في فجوات على الأرض تغمرها المياه، رفعت طرف ردائها وواصلت مشيها ببطء، سحبت باب فناء المنزل الذي يتثبت على مفصل واحد، أما المفصلان الآخران فنالت منهما الريح. وجدت نفسها في الخارج مثلها مثل أغلب الأهالي الذين يتفقدون حجم الضرر الذي أحدثته الطبيعة.

تلفتت يمنة ويسرة وهي تقول: «الحمد لله، الأضرار متوسطة». واصلت مشيها بضع خطوات لتدلف إلى منزل عبد الحميد، وجدت (شفيقة) أم إبراهيم تجفف المياه المتسللة إلى الداخل.

نظرت إلى إبراهيم وهو يعيد الأثاث القديم المتآكل إلى مكان تجففه أمه، رحبا بها، رفعت لمياء رداءها بشكل طفيف حيث تستطيع الإنحاء ومدت يدها لمساعدة جارتها، سألتها شفيقة عن حجم الدمار وهل انهارت بعض المنازل، أجابتها بأن الله لطف ولم يسقط أي منزل، وطمأنتها على حال والدتها.

في اليوم التالي، شرع الأهالي في اتخاذ إجراءات احترازية لتفادي الأخطار المستقبلية بتغطية الأسطح بأغطية بلاستيكية ومن فوقها طبقة من الكرتون سيكون بمثابة عازل لصوت البرد المزعج.

صحيح أن هذا الحي العشوائي كان في الماضي خارج المدينة، أما اليوم فهو جزء منها بسبب التوسع العمراني. لذلك، هناك ميزة يتشابه فيها الحي مع المدينة، ألا وهي الكهرباء، من المؤكد أن المنازل لديها تلفزيونات قديمة، ومنهم من يمتلك تلفازا ملونا لمتابعة القناة المحلية لأنهم لا يمتلكون مستقبلات هوائية. مقهى الحي الصغير هو المكان الوحيد الذي لديه مستقبل هوائي. يجتمع فيه رواده لمشاهدة القنوات الإخبارية العالمية. وهذا نوع من التواصل مع العالم الخارجي. أوصل مالك المقهى خيطان لجيرانه لمتابعة ما يشاهده رواد المقهى. وحديثا، امتلك الأستاذ فتحي مستقبلا هوائيا وبذلك يكون أول من امتلك هذه التقنية في الحي. وهناك من يفكر بأن يحذو حذو الأستاذ في ذلك، والسبب توفر موديلات حديثة من المستقبلات جعل الكثيرين يستبدلون ما هو أحدث بالأقدم، يتخلصون من القديم ليباع على رفوف أسواق الخردة بأسعار مناسبة.

★★★

أُجهدت وسيطة زوجة وسيم بالعمل لسد رمق أطفالها بعد أن حكم على زوجها بالسجن. ليس لديها طريق تسلكه غير العمل خادمة. وهذا ما كان يرفضه زوجها. تذهب إلى العمل في أحد المنازل بأحد الأحياء الراقية عند الصباح وتعود آخر النهار. ولولا شفيقة أم إبراهيم، لكان حالها أسوأ مما هو عليه اليوم. شفيقة أبدت استعدادها للاهتمام بأولادها خاصة رضيعها. بدأت أعراض المرض الناتج عن المجهود الزائد تظهر على وسيطة، فلجأت للمرأة التي قدمت إليها قبل أسابيع تعرض عليها استئجار ابنها الرضيع بغرض التسول. رفضت في بداية الأمر، أما الآن صار الأمر حتميا، فهي مجبرة على تأجير ابنها بنصف إيجار الطفل المعاق. فالأطفال المعوقون أصبحوا ثروة ووسائل دخل للأسر المعدمة. ثمن إيجار رضيعها ربما يساعد على دفع ثمن الحليب وبعض الأشياء المتعلقة بالمطبخ. هذه وسيلة تدر على أصحابها دخلا لا بأس به.

أصبحت هذه الظاهرة منتشرة في الحي وغيره من الأحياء العشوائية، حتى أن إحدى نساء الحي راحت تدعو الله ليلا نهارا أن يرزقها طفلا معاقا حتى يساعدها هي وباقي أولادها على التغلب على وعورة الحياة الاقتصادية. نُصحت بضرب بطنها عدة مرات يوميا وهي حامل، قد يساعدها هذا على تشويه الجنين. وبذلك، تكون قد نالت ما تريد. عملت بالنصيحة في الحمل الأول وهي في الشهر الرابع، وبعد أسبوع من الركل المتوسط على البطن أسقط الجنين، ولكنها عاودت الكرة في الحمل الثاني بالضغط على جهات محدودة من البطن مع الركلات البسيطة عكس المرة السابقة، فبدأت تشعر بالنزيف

والألم، مما دعاها إلى التوقف عن مثل هذا العمل الشنيع.

في نهاية الحمل نصحتها سيدة صاحبة خبرة في هذا المجال ولها تجارب عديدة بأن تجعل الطفل يولد بشكل طبيعي مع حرمانه من التطعيم، وعدم عرضه على الشمس. وبهذه الطريقة سيصاب بهشاشة العظام مما يصعب عليه المشي وستنجح في تحقيق هدف في رأيها تساعد الآخرين على العيش. قالت المرأة ناصحة: يجب أن يضحي طفل من أجل الآخرين. متجاهلة عقاب الله على هذه الجريمة. لا يقتصر الأمر على هذا الحي الذي استغل من قبل ضعفاء النفوس للترويج لمثل هذه الجرائم وجرائم أخرى، بل حتى الأحياء المجاورة استغلت بعض الأطفال، ناهيك عن الاستغلال الجنسي الذي أصبح مصدر رزق طفل مخفيا ذلك على أهله. فهو يحصل على ما يحلم به من مشتريات ومأكولات من قبل المستغل.

★★★

هذا اليوم، عاد الشيخ أبو إيمان إلى منزله عند الغداء، مزاجه العام متقلب. في الليل، يعيش النشوة والمتعة. وعند النهار، يتعكر مزاجه بشكل تام من الوضع العام المنزلي. ينهال على زوجته صفاء بكم هائل من موجات الغضب لعدم حسن إدارتها أمور المنزل. الأكل مثلا، التنظيف، احتياجات البيت الذي يكتشف عند عودته بوجوب خروجه مجددا لشرائها. لبسها، كم خاض معها صراعاً بطلبه منها لبس ملابس تبرز أنوثتها. لكنها لم تستطع سوى لبس ما تراه متناسباً مع عمرها وتفكيرها في هذ السن.

صباحا، وفر الشيخ احتياجات المطبخ وجاء للطعام. سمعت

صفاء فتح باب المنزل، ارتعدت محاولة تجميع الخضار واللحم. لكن ذلك لم يغير من نتيجة أن لا طعام جاهز.

استشاط غضبا عند دخوله المطبخ وصفاء منذ الصباح منهمكة فقط في تقطيع البصل والطماطم واللحم. لم تستطع البدء الصحيح في الطبخ.

نهرها صوته، لعنها، نعتها بالفاشلة في إدارة شؤون المنزل. انهمرت دموع ورعب. لم يثنه ذلك عن إيقاف صوته المجلجل، صداه في أرجاء المنزل. دفعها جانبا وانطلق نحو باب المنزل قاصدا مطعما لتناول وجبة الغداء.

ذاب جسدها الصغير ولحمها الطري وعظمها اللين في زاوية المطبخ نحو الأرض، استقرت جالسة. يداها على وجهها، تتسلل من بين الأصابع جداول الدموع كأنها نافذة نال منه الزمن تتسلل منه العواصف والأمطار.

«آه، لم أنا يا رب؟ ماذا أفعل؟» هكذا تتمتم. بقيت على حالها جالسة لفترة طويلة، ما أقسى قلب الوجود، لم يحضنها، أو يربت على كتفها ويمسح دموعها الملحية ألما ووجعا. يطول ويطول مكوثها في زاوية المطبخ حتى جاءها سمع طرق الباب.

إنها سوسن أخت الشيخ المتزوجة من زمن طويل ولديها ثلاثة أولاد. جاءت بعد اتصال من الشيخ أبو إيمان طالبا منها أن تذهب إلى منزله وتعلم صفاء كيف تدير شؤون المنزل، ليست هذه هي المرة الأولى، بل قد حدث ذلك مرات عديدة.

نهضت صفاء من زاويتها وذهبت منكسرة لتفتح الباب. احتضنتها سوسن، قبلتين في الخد الأيمن وقبلتين في الشمال حسب العرف

الأنثوي. «أراك حزينة، لا داعي للحزن» هكذا بادرتها. أجابتها بصوتها الطفولي بأنها خائفة. طمأنتها سوسن أن لا شيء يجعلها خائفة.

دخلتا صالون الاستقبال وراحت سوسن تتحدث مطولا عن قلب الشيخ الطيب وكيف اختار صفاء من بين النساء وأنه يحبها ويفضلها على نساء كثر يحلمن بالزواج منه لأنه محبوب من الجميع وله حضوره أمام الناس وأنه شيخ علم جليل. وراحت تقدم النصائح لصفاء عن كل ما يهم إدارة الشؤون المنزلية وبعض الشرح عن كيفية الطبخ والنظافة العامة للمنزل. صفاء صامتة صمت سكان القبور. تسمع ما تفهمه وما لا تفهمه. قالت لها سوسن إن تأخرها بفهم الحياة العامة بشكل عام تجعل الرجل يفكر بزواج من ثانية وعلى السيدة الذكية ألا ترتكب حماقات تجعل زوجها يفكر بإحضار ضرة للبيت.

صفاء لا تبالي بذلك. هي تعيش في معتقل تعذيب عند النوم وتأنيب وتوبيخ في النهار. كل هذا لم يزد من فزعها لأنها تجاوزت أعلى مستوى الرعب. لكن هناك ما قالته سوسن للتو أن تحقق فهو نيل المطعون طعنة أخرى، قالت إن الشرع يجيز للزوج ضرب زوجته إذا لم تستمع للنصح عدة مرات حتى تستقيم. ثارت صفاء رعبا وراحت تبحث عن منفذ للهروب وليس أمامها سوى حضن سوسن لتستقر فيه وهي تصرخ: «لا... لا... لا...».

حاولت سوسن التهدئة من روعها وهي تقول: «لن يحدث ذلك إلا إذا لم تتعلمي وتتعمدي إهمال زوجك. متأكدة أنك ذكية وتفهمين وستتعلمين كل ما يخص الحياة الزوجة».

تهديدان وصلا إلى مسامع صفاء. الضرة والضرب إذا لم تستقم ولم تصر إنسانة مركبة كجارية وأمة ومغتصبة في جسد واحد ومدافعة عن عبوديتها. جسدها الصغير لا يتحمل قصف جسد الشيخ الجليل، ولا يتحمل أعباء منزلية هي في الأصل مهمة الكبار.

يكاد الوجود يصرخ: «اتهام اللّه أو الرسول بأخطاء البشر جريمة لا توازيها جرائم البشر جميعا. كذلك اتخاذ اللّه والرسول وسيلة لتمرير أخطاء الإنسان. إنه انحدار واضح من مستوى إنسان إلى مستوى حيوان، «لا» بل أزيد من ذلك، لأن الحيوان لا يمارس متعة الغوص في الصغار. متى يعي الإنسان في هذا المجتمع أنه عالة فكرية على التفكير وأن الشرع حامي للضعفاء وليس عليهم سوط تعذيب لتمرير الأساليب الشيطانية ضدهم؟» .

★★★

موعد مسبق بين إبراهيم ولمياء لاقتطاع وقت للتنزه في أرجاء الشوارع الفخمة للمدينة. منذ شهر وإبراهيم يدخر جزءا من مصروفه اليومي لشراء هدية لها. لم يخبرها بما ينوي لتحقيق وقع المفاجأة. جمع مبلغاً يكفي لشراء عقد من الكريستال المقلد يمتاز بمنظره الجميل ورخص ثمنه.

بالأمس، اشترى العقد. واليوم، أراد أن يهديها إياه. عند الساعة الواحدة ظهرا، التقيا عند موقف الحافلات المتوجهة إلى المدينة.

استقلا حافلة تمرّ عبر شارع (الشهداء) الراقي. الحافلة مكتظة بالركاب الجالسين على الكراسي والآخرين الواقفين متشبثين بقضيبين على طول الحافلة. إبراهيم منزعج، لا يريد أن تُلمس

لمياء من قبل الركاب المتزاحمين، يحاول الإحاطة بها، حيث ارتكنت على النافذة الجانبية القريبة من باب النزول، مد يديه ليثبتها على النافذة، وبقيت لمياء واقفة ما بين يديه مستندة بظهرها على النافذة. المسافة ما بين الجسدين لا تزيد عن الشبر. ونتيجة لحركة الحافلة وميلانها بفعل الفجوات على الطريق المعبدة، يوشك وجهاهما على التلاقي كلما مال الركاب لميلان الحافلة. وبعد رحلة شاقة تجاوزت الساعة، توقفت الحافلة في مدخل شارع (الشهداء)، نزل الركاب ومن ضمنهم إبراهيم ولمياء.

بابتسامات متبادلة، شرعا يمشيان ببطء وهما يتحاوران، الكتف مقارب للكتف، راحا يستمتعان بجمال الشارع الراقي وواجهات المحلات الفاخرة. قال لها إبراهيم معبرا عن سعادته:

- أنا سعيد لهذا اليوم.

ردت مستغربة:

- عند مدخل الحي قلت لي إنك كئيب، والآن سعيد، أمرك غريب!

- كنت مكتئبا عندما اقتربنا من الحافلة لأن ركوبها يهلك القلب. أما الآن، فأنا سعيد لأني على وشك تقديم مفاجأة لك.

باستغراب ولهفة جعلتها تسبقه بخطوة خاطفة لتقف أمامه وهي تسأله:

- ما هي المفاجأة؟!

قال معاندا:

- لن أبوح بها الآن.

زادت من لهفتها الأنثوية وإصرارها:

- بل الآن.

- وإذا رفضت ذلك؟!

- لن أبرح هذا المكان حتى تقول لي، ما هي المفاجأة؟!

أشار إلى محل الحلوى القريب منه الذي اعتاد الدخول إليه وهو يقول:

- سأريك المفاجأة بعد تناول قطعتي بسبوسة.

صوبت نظرها ليستقر في عينيه لعلها تكشف السر:

- وعر، لكني أحبك...

شدها من يدها ليستأنفا مشيهما ويدخلا محل الحلوى، لكنه توقف فجأة وقال:

- غيرت رأيي.

دس يده في جيبه ولمياء تقول له:

- تصرفاتك غريبة!

- أغمضي عينيك.

بدلع تصاحبه حركات ملؤها الأنوثة:

- لن أفعل!

- بل تفعلين!

- أنت عنيد وأنا قررت أن أكون عنيدة لمرة واحدة في حياتي.

استسلم لعنادها:

- كما تشائين.

أخرج يده من جيبه وهو يقبض على العقد، مدها نحوها، سعدت حتى أنها ارتبكت وأفصحت:

- كنت أحلم بها، أشكرك على هذه التحفة الرائعة. أنت رائع، حقا أنت... أنت رائع.

قرأ الفرح في وجهها. سعيد هو لفرحها، ينظر إليها وهي تقلب العقد بين راحتي يديها ثم تقلدته على رقبتها.

انتابه التركيز فجأة ليرى بعض المارة يحملقون بهما، انتبهت هي أيضاً، شعرت بالخجل وهي تبحث عن مكان لتتوارى عن أنظار الفضوليين. انطلقت صيحات «سفالة في الشارع..، قليلا أدب، لعن الله تربيتكما،... لسنا في فرنسا يا حيوانات، نحن في بلاد إسلامية...».

أمسك إبراهيم معصمها، لينسحبا، دلفا إلى محل الحلوى، اشترى قطعتين من (البسبوسة)، تناولاها، ثم عادا ليتمشيا في أرجاء الشارع الطويل.

وعند أحد المتاجر الخاصة ببيع الملابس النسائية، كان التمثال قد أُلبس فستانا جذابا حتى كاد أن ينطق من جمال الفستان الذي زين زجاج العرض، لفت الفستان انتباه لمياء. وقفت أمام الزجاج تتلكأ لبعض الوقت مصدرة زفرة حسرة كادت أن تفر من رئتيها فتات كبدها، أمسك إبراهيم بمعصمها وسحبها وهو يعدها بأن يشتريه

لهـا يومـا مـا. مشـطا الشـارع ذهبـا وجيئـة ثـم عـادا إلى الحـي عصـرا.

★★★

في شـارع مزدحـم يشـق الأسـتاذ مسـعد طريقـه مرتديـا بدلـة خضـراء اللــون ذات تصميــم قديــم وقميــص متعــدد الألــوان، ورابطــة عنــق عريضـة صفـراء اللـون، يهـز رأسـه تناغمـا مـع طـرب فـيروزي يشـدو بـه قلبـه وتـردده شـفتاه.

يتأبـط جريـدة مطويـة والعـدد الأخـير مـن مجلـة «العربـي». يسـمع تنـدر بعـض المارة على لبسـه القديـم، لا يكترث لذلك، يسـتقيم بكتفيه، يدخـل يـده لجيـب بنطلُونه، يتمايل بمشـيته، يصفر بلحـن أغنية فيروز ليسـمعهم، يواصـل مشـيه وينحـرف نحـو مقهـى قديـم (الـدب الصغير) معـروف لـدى الأوسـاط الثقافيـة لكـون المثقفـين والكتـاب أهـم رواده.

مبنــى المقهــى يتوســط حديقــة صغــيرة مزروعــة ببعــض بالأشــجار السـامقة، يعـبر الأسـتاذ مسـعد المدخـل ليقـف ليصـوب فجـأة ناظريـه نحـو الزاويـة. تم تنظيفهـا اليـوم، لم تنظـف منـذ زمـن. هـذه الزاويـة لهـا ذكـرى أليمـة إذ وقـع فيهـا حـدث لا ينسـى. قبـل أربـع سـنوات كان يسـكن هـذه الزاويـة مجنـون، يتخـذ مـن الأقمشـة الباليـة والكرتون وسـيلة لحياتـه، لم يتجـرأ أحـد علـى منعـه مـن اتخـاذ تلـك الزاويـة مسـكناً لـه. تلقـى إحسـاناً حـذراً مـن جميـع رواد المقهـى، لم يوقـف وجـود المجنـون الأنشـطة الثقافيـة اليوميـة، لكـن التمـادي في الانتقـاد السياسـي كان محجمـاً نوعـا مـا إلا مـن بعـض مـن يـرون في أنفسـهم الشـجاعة وعـدم الخـوف.

ذات ليلة، اختفى أحد رفقاء المقهى، بحثوا عنه ولم يجدوه. استمر البحث لأيام، شكوا أنه معتقل لأسباب سياسية. أصابع الاتهام وجهت للمجنون القابع في زاوية حديقة المقهى. ثقافة المواطنين أن المجانين هم بالأصل مخبرون. لذا، الجميع يتوجس من الحديث بالقرب من مجنون.

مرّ أسبوع ولم يعثر على رفيق المقهى المختفي، تواتر خبر مفاده أن المجنون مخبر وهو سبب اختفاء رفيقهم. انفعل بعض رواد المقهى وهاجموا زاوية المجنون واعتدوا عليه بالضرب. المفارقة العجيبة أن أبناء المجنون البالغين هاجموا المقهى في اليوم التالي بمساندة جماعة شبابية ليتحول المقهى إلى مسرح عنف والنتيجة إصابة رواد المقهى بكدمات ورضوض متفاوتة. الأستاذ مسعد كان له النصيب الأكبر من العنف. حينها، تدخلت الشرطة وانتهت القضية إلى صلح بين أبناء المجنون ومالك المقهى بالدرجة الأولى وانتهوا إلى تبادل الاعتذار ونقل والدهم المجنون إلى مصحة مختصة.

شريط ذكريات الموقف مرّ أمام عيني الأستاذ مسعد وكأنها بالأمس. دلف إلى المقهى وجلس على الطاولة، انهمك في قراءة مقالة منشورة بمجلة «العربي». لا يدري كم من الوقت مضى وهو يقرأ، يأتي رجل من خلفه يضع يده على كتفه وهو يناديه باسمه. استدار ليجد نفسه بعدها واقفا محتضنا بحرارة الدكتور وحيد فهمي.

الدكتور وحيد فهمي باحث في جامعة السربون بباريس. خاض صراعات عدة داخل البلد قبل أن يهاجر اضطراريا إلى فرنسا ويستقر ليواصل مسيرته في مجال تخصصه. هو في زيارة عمل

قصيرة للبلد لمدة ثلاث أيام ليلقي محاضرة خاصة ويلتقى أحبته...

جلس مسعد والدكتور وحيد ومازال جو الترحيب بينهما مسيطرا على حالهما. تبادلا أطراف الحديث عن مصيرهما.

– خمس سنوات منقطع عنا يا دكتور وحيد؟!

رد عليه بأن ظروف عمله ووضعه الخاص حال دون عودته إلى الوطن. سأله كم سيبقى. أجاب أنه سيغادر غدا عقب الانتهاء من إلقاء محاضرته مباشرة ودعاه للحضور والمشاركة. عبر الأستاذ عن شكوكه بقدرته على الحضور موضحا السبب:

– يا دكتور، أنا لا أميل إلى المحاضرات الجدلية.

– أتمنى حضورك.

أدخل الدكتور يده لمحفظته، أخرج كتلة أوراق، ناولها مسعد وقال له:

– هذه أوراق المحاضرة، كون الموضوع واسعاً ومتشعباً إلا أننا ناقشناه أنا ومن سيحضر غدا عبر الإنترنت، والمحاضرة هي شكلية وإعلان بداية المشروع.

– وما دخلي أنا بمشاريعك الجدلية؟! أفكارك لا تنطبق على عقلي.

– إنه منهج نطوره لحل أزمات المجتمع من التبعيات الفكرية التي حجمت العقل العربي، وسخرته قوى معينة لتحقيق مبتغاها في الواقع.

- وكيـف ذلـك يـا دكتـور؟ هـل ستسـتبدل العقـول العربيـة؟ إنـك تحـرث في المـاء!

- نعمل على تطوير مفهوم «العلميين».

★★★

في أحـد الفنـادق حيـث سـتلقى محاضـرة الدكتور وحيـد فهمي، أخذ الحضور أماكنهم وكذلك الأسـتاذ مسـعد. امتلأت المقاعد، التنسيق المسبق عبر الشـبكة العنكبوتية كان فعالاً في حشـد النوعية الفكرية من المثقفين.

شـرع الدكتـور وحيـد بشـرح تقسـيم أصنـاف المسـلم الـذي يعمـل علـى دراسـته. صـوب أشـعة آلـة العـرض بتجـاه الحائـط، وهـو يقـرأ ويشـرح المعـروض:

مـن خـلال التوجهـات والخطابـات الإعلاميـة والأنظمـة والتيـارات والأحـزاب والتنظيمـات والنخـب الثقافيـة نسـتخلص التالـي:

المسلم المتشدد نوعان، منفعل وغير منفعل:

١- مسلم متشدد منفعل (مُفعل):

أ - طائفي، ب- مذهبي، ج- طائفي ومذهبي.

٢- مسلم متشدد غير منفعل:

يحمل صفة أو صفات المنفعل ولكنها غير مُفعلة في العقل.

المسلم المعتدل نوعان، معتدل متجمد الفكر، معتدل علماني:

١- مسلم معتدل متجمد الفكر:

أ – مسلم مقبل على العلمانية إذا سنحت له الفرصة الفكرية.

ب – مسلم مقبل على الإلحاد إذا وجد الفكرة واقتنع بها.

٢– مسلم معتدل علماني (ذو فكر علماني مسبق):

أ – يبقى علماني، مؤمن بالدين الإسلامي إيماناً مطلقاً، لكنه يناضل مع فصل السلطة السياسية عن السلطة الدينية بغية التقدم والتطور والخلاص من الصراعات.

ب – علماني متشدد في طريق الإلحاد مع مرور الوقت.

يستدير ليقابل الجمهور ويخاطبهم: السادة السيدات الحضور، من هذا التقسيم، نجد أن المجتمع في طريقه للعدم. والصراع الطائفي الذي لا يتصل بنا إلا عبر كتابات تمتد لقرون، لا علاقة لنا بها ولم نكن حاضرين فيها ولم نقاتل مع أي طرف من أطراف الصراع الذي في الأصل كان صراعاً سياسياً بغرض الحكم وليس دينياً أو اختلافاً حول الرسالة الدينية السمحة. ولكن إحياء هذا الصراع وإقحام شعوب تصل للمليار مسلم للاقتتال على (كلام...) لا تفسير لها سوى محاولة المذهبيين لسيطرة الدينية على الشعوب، والتستر على فشل القيادات، على حد سواء السياسية والدينية، في توجيه الشعوب نحو المجتمع العلمي الرقمي، والارتقاء بها من القاع القبلي نحو الأفق لمنافسة شعوب العالم بالتعمق في الرفاهية الرقمية. هذا الفشل جعل الشعوب مستهلكة وستعجز مستقبلا عن توفير أدوات مناسبة لمواصلة استهلاكها. بل ستصبح معزولة كونيا كونها بؤرة تخلف وأمراض وخطر عالمي.

فشل القادة والمؤسسات الدينية في صناعة قيم علمية حديثة لدى الإنسان المسلم بأنواعه والارتقاء في تطلعاته نحو المستقبل. والنتيجة استحضار الماضي ومحاولة العودة إلى المجتمع الصحراوي البدائي تحت حكم يناسب قبيلة أو مجموعة قبائل متجاورة. بل فشلوا أيضا في استيعاب الواقع للتحكم فيما يزيد عن مليار مسلم. كان عليهم تطوير قوانين حديثة تليق بمستوى الكم العددي، والتنوع، الجغرافي، والثقافي، والتاريخي للشعوب الإسلامية. ولكنها لم تطور وباءت جميع المحاولات بالفشل بل أدت إلى صراعات مسلحة.

الكارثة إذكاء الفتن. بل بالأصح خلق مستوى صراع متخلف عقيم لا يتناسب مع الأحداث العلمية التي ارتقت بالإنسان الحديث. هذا ينبئنا بالفناء وكلٌّ يعتقد جازما أن الجنة مثواه دون غيره من المذاهب والطوائف لنفس الدين الواحد، ولم يعد للمستقبل وجود في المخيلات.

بسبب عقولنا التعصبية القبلية يجب أن لا نتهم الغرب بالتآمر علينا. فمن الطبيعي أن يحاول الغرب تحجيمنا دفاعا عن نفسه من أفكارنا والتي لا نرى حرجا في تفسيرها على مسمع العالم. إن قوة الإسلام بالفتوحات والسبي والغنائم والجزية. حتما دول العالم ستحتاط لأنها تعلم أن المسلمين إذا تمكنوا فسيقتلون كل من يخالفهم في هذا العالم ويسبون نساءهم. واذا تراجعت قوة المسلمين، فسيكتفون بقتل بعضهم البعض حتى يوشكوا على الفناء. ولو صحت نظرية المؤامرة الغربية على مجتمعاتنا لا لسبب إلا لأننا مسلمون، ولا نشكل خطراً فعلياً عليهم، وليس هذا من عمق تفكيرنا وتفسيراتنا لنصوص تدعو للعنف، لما تجشم العالم عناء إرسال اللقاحات

الطبيـة لنـا وغالبـا مجانـا كعمل إنسـاني بحـت، ولرأيتم ثلثي المسـلمين مصابـين بمـرض شـلل الأطفـال. وهـذا علـى سـبيل المثـال لا الحصـر.

نسـتنتج أن التفسـخ يعـدو بنـا نحـو العـدم، وليـس مـن مصلحـة مجتمعاتنـا الدينيـة الاضمحلال والانكماش في الزمـن الرقمي. فوجب بقاء الديـن متماسـكا لأن العـدم لا عـودة منـه مجـددا. بقاء الدين متماسـكا لن يكـون إلا بمنظـور علمـي في فن الإدارة والحكم، وتقاسـم الأدوار بمؤهلات علميـة. مـن هنـا، جـاءت نظريتنـا (العلميـة). بمـا أن فصـل الديـن عـن الدولـة يُحـارب علـى أنـه كفـر، واختلـف الجميـع، وعجـز المتلقـي عـن فهـم التعريـف الحقيقـي. فالعلميـة ظاهرهـا مفهـوم وباطنهـا معلوم.

يسـتدير الدكتـور وحيـد نحـو الطاولـة ويتقـدم منهـا، يتنـاول كأس المـاء، يرتشـف قليـلا ويعـود ليقابـل الجمهـور ويكمـل:

العلميـة: هـي فصـل الديـن عـن العلـم. العلميـون هـم: حاملـو الشـهادات العلميـة في جميـع المجـالات العلميـة والأدبيـة، الفاعلـون و غـير الفاعلـين في المجتمـع كـون العلـم مسـتوطناً في العقـل. بالتوجيـه، تسـتثار وتحفـز الكتلـة العلميـة في عقـول حامليهـا ليصـيروا أدوات فعالة في المجتمـع كلٌّ حسـب اختصاصـه. وعـدم السـماح للمتطفلـين علـى المهـن العلميـة والأدبيـة بالتطفـل والتلصـص لا باسـم الديـن ولا القبيلـة، وتحـت حمايـة القانـون العلمـي النافـذ المنبثـق مـن روح الدسـتور (العلـم مصـدر التشـريعات الأرضيـة وهـو الحكـم القاضـي للخلافـات الدنيوية). مثـلا، تكتـل الأطبـاء العلميـين، لا يسـمحون للمتطفلـين علـى مهنتهـم لا باسـم الديـن ولا الطـب الشـعبي ولا الشـعوذة، ويبقـى الحـل للفصـل في أي خـلاف هـو مـن اختصـاص المحكمـة العلميـة وترافـع النيابـة العلميـة وكل يـبرز الأدلـة.

مثال آخر، سمعت قبل أيام أن هناك من ادعى أن شخص ركبه جني تم إرساله عبر وسيلة التواصل الإلكترونية. يبقى الحل لهذه المسألة هو العلم. إما أن يثبت المدعي بالأدلة أن الجني أرسل إلكترونيا، أو يثبت العلم أن الذي أرْسل هو مجرد فيروس إلكتروني. هذا يكون من اختصاص المحكمة العلمية للفصل في القضية.

ضحك الحضور وصفقوا، وكذلك الدكتور. ثم واصل:

في الختام، يبقى هذا المشروع قيد التطوير وأنتم جميعا عامل مشارك عبر موقعنا الإلكتروني، لا تبخلوا بطرح أفكاركم لتطوير النظرية لأن المشروع يخص الأمة برمتها وانتشالها من القاع لترتقي.

حبي لكم جميعا، وحبي لأمي التي لها الفضل في أشياء كثيرة في حياتي (يشير بأصبعه نحو أمه في الصف الأول...) اليوم عيد ميلادها. أمي حبيبتي، لستِ ناقصة عقل ودين، أمي لستِ فتنة، أو مصدرا لإغواء الرجال، ولا تقبلين وتدبرين بصورة شيطان. أمي حبيبتي، أنتِ وردة عمري وأجمل ما في الكون، وكل عام وأنتِ بخير..

★★★

كل يوم سبت يجلس جاسر نبيل على مكتب شركته العملاقة دون عمل حتى الساعة الحادية عشرة. يجلس، لا يتفوه بكلمة واحدة ويكتفي بالإشارة حتى يخرج الفريق الأول الخاص بفحص المكتب ضد أدوات التنصت. وبعد التثبت، يبدأ بالارتياح ويتبدد القلق تدريجيا. وبعد خروج الفريق الأول بوقت قصير، يأمر بإدخال الفريق الثاني الذي لا يعرف أحدا في الفريق الأول، يقوم بالفحص مجددا، ويُسلم له نتيجة الفحص.

وبعدها يمكن لجاسر الحديث والبدء بالعمل. ضغط على زر المناداة للسكرتيرة وطلب منها استدعاء صادق للحضور فورا. وعاد ليتطلع إلى الأوراق والوثائق حتى جاءه صادق. طلب منه الجلوس وهو يدخن سيجارة، قال لصادق:

— إذهب إلى وسط المدينة وادخل محل انترنت، قم بفتح بريد اكترونـي وهمي وأرسل رسالة إلى العنوان التالي في «الهوتميل» من «واحد إلى تسعة»، مفاد الرسالة «غدا نزوركم»، وغادر فور الإرسال ولا تعد إلى ذلك المكان مجددا وإلى الأبد.

— تحت أمرك.

— تستطيع الانصراف.

— أمرك.

كانت هذه أوامر بموعد تسليم أعضاء بشرية. ضغط جاسر على زر جهاز المناداة مجددا في طلب السكرتيرة، دخلت عليه وفي يدها ملف بداخله أوراق بحاجة إلى توقيع رئيس مجلس الإدارة، ناولته الملف، أشار إليها برأسه للاقتراب نحوه من خلف الطاولة إلى جانب كرسيه الدوار، هذه الإشارة مألوفة وشيماء تعرف معناها جيدا، اقتربت، انحت لتفتح الملف وتشرح له خلاصة كل ورقة. كان شعرها الكثيف منسكبا على سطح الطاولة، تحملت هذه الوضعية لدقيقتين ثم انتصبت فجأة وهي تكح. دخان كثيف ينفثه جاسر من فمه. شعر أنها لن تستطيع مواصلة شرح أوراق الملف بسبب سيجارته، أغلق الملف وأمرها بالعودة أمام الطاولة وقال لها:

— هل دفعت ضرائب الشركة؟

— نعم.

— احتفظي بنسخة من الأصول في الأرشيف وابعثي الأصول إلى مكتبي في المنزل.

— حسنا.

— أطلبي لي محامي الشركة، قولي له أن يترك عمله ويحضر فورا.

— أمرك سيدي.

ذهبت لطلب المحامي. أما جاسر، فقد وقف واستدار نحو النافذة وظل يراقب المدينة وهو يدخن في صمت، مصحوبا بتفكير عميق من ورائه مكاسب لم يفصح عنها بعد. إنه رجل غامض أكسبته سنون المهنة خبرة لا مثيل لها، إضافة إلى دهائه الفطري. من مكتبه في الدور العاشر، ظل لفترة وجيزة يحدق ويرى جناحي العظمة تطير به فوق المدينة وهي من تحته، لا شيء يمنعه من تحقيق أحلامه، العظمة، القوة، السلطة، المال. وهناك أكثر. كل هذه العوامل اجتهد من أجلها طويلا ولم يصل إلى البعض منها بسهولة. ولكنه ما زال بحاجة إلى الجهد والوقت للوصول إلى القمة.

دخل المحامي، ظل جاسر كما هو واقفاً ووجهه نحو النافذة.

— ها أنا قدمت إليك على عجلة سيدي.

هذا ما قاله محام مخضرم ومحنك. لكن أمام جاسر ما هو سوى عامل أو كاتب أو قارئ يفسر له نصوص القانون ويطبق ما يملي عليه.

- اجلس.

جلـس بانتظـار مـا سـيقول سـيده. قـال جاسـر بهـدوء والدخـان يتعـالى مـن فمـه أكثـر فأكثـر:

- أريدك أن تعمل على تأسيس جمعية خيرية تابعة للشركة.

- أيـام وأنتهـي مـن هـذه المهمـة إلا إذا أردت التفـاوض مـع وزارة الشـؤون الاجتماعيـة، وزارة الماليـة وعـرض صفقـة بيننـا وبينهـم بموجـب هـذه الصفقـة تلغـى الضرائـب مقابـل جمعيـة خيريـة. هـذا مـا تفعلـه الكثـير مـن الشـركات.

- لا أريـد ذلـك، لنواصـل دفـع الضرائـب، مـن واجبنـا علـى الأقـل إعطـاء الفقـير ولـو كان شـيئاً يسـيراً.

- أمرك.

- تـول الأمـر بنفسـك، وعـين مقريـن جيديـن لتوزيـع ما سـتقدمه هذه الجمعيـة الخيريـة علـى سـكان الأحياء العشـوائية وأجرنـا عند اللّه.

- سأفعل ما تأمر.

- احـرص علـى توظيـف أنـاس جيديـن ذوي كفـاءة في هـذا المجـال ولا تسـمح لهـم بالحضـور إلى هنـا وقـم باسـتئجار مبنـى قريـب مـن هـذه الأحيـاء خـارج المدينـة علـى شـكل مكاتـب للموظفـين.

- في أقرب وقت ممكن سيكون كل شيء جاهزا.

- بعـد أسـبوع مـن الآن، أريـد أن تكـون ميزانيـة الجمعيـة في مكتـب المحاسـبة والدفـع المالـي المسـبق.

وقف المحامي وقال:

— حسنا. أنا جاهز لهذه المهمة.

★★★

في مكتب عازل الصوت ومحصن بأجهزة تشويش يجلس العميد فاروق إلى طاولته يمارس عمله. دخل عليه العقيد عمر وبيده ملف تحقيق. جلس بعد أن أمره العميد بذلك. قدم الملف لسيده وقال:

— سيدي، لم نثبت أي معلومة تفيد بأن هاتف زوجتك النقال اخترق عبر برامج الكترونية. وحسب خبير شاب في علم الاتصالات، هذا صعب لأن خدمة الانترنت غير مفعلة في الهاتف. ربما هناك توأم لشريحة زوجتك. وهذا يتم عبر فنيين يعملون بشركة الاتصالات لهم علاقة مع العدو. تبقى هذه النظرية افتراضية حتى نجد الدليل القاطع. وعدني الخبير بربط هاتف زوجتك بالحاسوب وسيعمل جاهدا على كشف الاختراق.

— من هو الخبير، وما اسمه؟

— اسمه يونس، إنه ابن أخت النقيب عفيف. حصل على المرتبة الأولى في الجامعة الهندية، وعرض عليه العمل في ذات الجامعة بعد نيله شهادة الدكتوراه بدرجة امتياز.

— في الهند!

— نعم. وتلقى عروضا عدة للعمل كخبير في الولايات المتحدة الأمريكية. لكنه رفض وعاد إلى الوطن وحاول الالتحاق بهيئة التدريس في الجامعة ورمى ملفه جانبا.

- لماذا ؟! (تساءل مندهشاً)

- سيدي .... لا... لا أدري كيف.... قبل أشهر، ربما أربعة أو أكثر، طلب مني النقيب عفيف استئذانك بأن تسمح له بالتوسط لدى الجامعة بعد أن رُفض تعيين ابن أخته، لكني رفضت طرح الموضوع عليك لأنك لا تقبل ذلك.

- ما دام خبيراً، لمَ رفضته الجامعة؟ ألا يقدم خدمة للأمة ويفيد الطلاب بعلمه حيث يستفيد الجميع منه؟!

- سيدي ... هناك.... سيدي.... (لا يدري كيف يوصل المعلومة للعميد..) هناك خوف منه.

- ولمَ الخوف منه؟!

- يخاف من هم أكبر منه سنا في سلك التعليم الجامعي. يخافون أن تضيع منهم المناصب العليا. يخشون المتفوقين، لأن المتفوق يثبت نفسه بسرعة ويصل إلى رئاسة القسم في زمن قياسي. وهذا يشكل خطراً على عميد القسم ومن حوله.

يتعجب العميد:

- هذا ما أخر بلدنا. أبناء البلد معاول هدم. أخشى مثل هذه التصرفات التي ستزيد من النقمة على الدولة، اسمع (يفكر ....) هل يمكننا الوثوق بهذا الخبير الشاب؟

- بالتأكيد. سبق لي وإن اعتمدت عليه.

- إذا، لا يمكن التوسط له بشكل مباشر في الجامعة... أريده أحد رجالنا... نستفيد منه... أحسن صناعته... اذهب إلى العقيد

أنـور موسـى في المعسـكر، قابلـه ... (يصمـت...) لا تذهـب أنـت، أوكل المهمـة إلى النقيـب عفيـف، ليبلـغ العقيـد أنـور أنـي أطلـب منـه التدخـل لـدى نائـب وزيـر التعليـم العالـي لتعيـين الخبـير بالجامعـة بقـرار وزاري بعـد أن يقـدم الخبـير تظلمـاً والـوزارة تسـتجيب. نائـب الوزيـر علـى علاقـة نسـب بالعقيـد أنـور.

— تحت أمرك.

— متى سيكون الخبير جاهزا لمهمة كشف الاختراق؟

— اليوم.

— جيـد، خـذه إلى منزلـي وضعـه في غرفـة الطعـام وراقبـه وهـو يقـوم بعملـه.

— تحت أمرك سيدي.

ذهـب العقيـد عمـر إلى الخبـير وانتقـل الاثنـان إلى منـزل العميـد. وهنـاك، بـدأ الخبـير بعملـه، ربـط الهاتـف بالحاسـوب. ومـن خـلال برامـج، ظـل يتابـع ويبحـث عـن أي اخـتراق. العمـل بصمـت لا تصـدر أي كلمـة مـن الخبـير والعقيـد. لا دليـل حتـى سـاعة قـدوم العميـد. اجتمـع بهمـا في مكتبـه المنزلـي ووضعـوا خطـة تقتضـي بحديـث العميـد مـع زوجتـه عـن حادثـة عمليـة الشـرق. حـدد لهـا طبيعـة الأسـئلة الـتي توجههـا لـه. انتقلـوا إلى صالـة الجلـوس وبـدأت زوجتـه تسـأله عـن أي خيـط يـدل الفاعـل، رد العميـد بأنـه لا يعـرف حتـى السـاعة مـن كان المسـتهدف ومنهـم وراء ذلـك الاعتـداء...

لاحظ الخبير خطأً يذهب ويرجع على شاشة الحاسوب بداخل البرنامج المعتمد عليه. أشار الخبير للعميد، وراح العميد يكمل حواره مع زوجته:

- أفكر بإعادة التحقيق من الصفر، حيث نرسل فريقاً علمياً متخصصاً لتفحص المبنى مجددا بشكل دقيق، ربما نستدل على خيط يدلنا على أحد الطرفين، سنلجأ إلى تحليل أعقاب السجائر ورفع بصمات إطارات السيارات وأشياء كثيرة. أنا متأكد من الاستفادة منها في المبنى. المشكلة أن الفريق الذي عاين المكان كانوا ممن ليسوا لهم خبرة كافية. إنهم حديثو التخرج من مدرسة الشرطة العلمية. ولا أدري كيف يرسل فريق غير متمكن لمعاينة مسرح جريمة كبرى كهذه؟!

- أتمنى أن لا يشغلك هذا عن عطلة الغد سبق لك ووعدتني بالبقاء معنا يوما كاملا، لكنك تتحجج بعملك؟

- سأذهب إلى مكتبي لتعيين أعضاء الفريق وأعود، أعدك بأن لا أتأخر.

- وكم سيدوم ذلك؟

- ساعتين، ولن أطيل المكوث هناك، أعدك بذلك.

بإشارة من العميد، دخلت الخادمة لتقول لهما أن الغداء جاهز. هي تقوم بدور الخادمة والحقيقة أنها ضابطة شرطة متمكنة. تعمل كحارسة داخل المنزل ودليلاً قيادياً ومتابعاً لأي طارئ في حال غياب العميد.

غـادروا صالـة الجلـوس وأقفلوا بابهـا، توجه العميـد والعقيد والخبير إلى المكتـب في الجهـة الأخـرى للمنـزل. وهنـاك، أكـد الخبـير لهمـا أن الهاتـف مخـترق وبـأن هنـاك توأمـاً مـن شـريحة زوجـة العميـد، ولكـن كيـف تم ذلـك؟ استدعى العميـد زوجتـه وسـألها إن كانـت قـد أعطـت هاتفهـا لأحـد، أكـدت بالنفـي، ثـم تذكـر العميـد وسـأل زوجتـه:

– عندمـا توقفـت شـريحة هاتفـك عـن العمـل، هـل فعـلا عبثـت بهـا؟

– نعم

– بما عبثت بالتحديد؟

– سبق وقلـت لـك، ملـف الحمايـة، كنـت أود إعـادة ضبـط المصنـع الهاتف.

– سيدتي هـل حلـت مشـكلة بهاتفـك حتـى ذهبـت إلى ذلـك الملـف؟ (سـألها الخبير)

– ثقـل الهاتـف ولم يعُـد كمـا كان، وأردت إعـادة اسـتعادة ضبـط المصنـع.

– فهمت ما حدث. (قال الخبير)

– ما حدث؟! (تساءل العميد)

– رسـالة وصلـت للهاتـف تحمـل رقـم شـركة الاتصـالات مثـل الرسـائل الـتي تصـل للمشـتركين تعلمهـم بـكل جديـد. الرسـالة عبـارة عـن فـيروس عطـل عمـل جـزء مـن قـدرات الهاتـف. دخلـت سـيدتي لملـف الحمايـة بغـرض إعـادة ضبـط المصنـع، حينهـا أوقفـوا عمـل الشـريحة وأوهموهـا أنهـا عبثـت بالشـريحة

ويجب عليها إعادتها إلى الشركة لكي يتسنى لهم منحها شريحة بديلة للقديمة.

- هذا ما حدث. أمرت بإعادتها إلى الشركة وتم استبدال الشريحة بأخرى بنفس الرقم. (قال العميد مؤكدا).

قال الخبير:

- وهناك، وتم إصدار شريحتين توأم بنفس الرقم، واحدة سلمت للمشترك والأخرى للمتنصت. تلك التي سلمت لكم تم زرع برنامج تجسسي سري بداخل الشريحة، ينزل نفسه تلقائيا من الشريحة إلى الهاتف، وتبدأ عملية التنصت فورا بتحكم بالهاتف عبر الشبكة. وهذا البرنامج التجسسي مخفي ولا يظهر له أثر في الهاتف.

سأل العميد الخبير:

- هل يمكن أن نحصل على نسخة من البرنامج التجسسي بكل تقنيا ته؟

- فقط احتاج بعض الوقت وسيكون بمتناولك ويمكنك استخدامه بنفس العملية التي طبقت على سيدتي. أيضا سيدي، أستطيع صنع برنامج مضاد.

هز العميد رأسه مستحسنا:

- أحسنت صنعا بني، أحسنت.

أمر السيد العميد العقيد عمر بتكليف من يراقب مسؤول الاتصالات، ووجه بالاستفادة من هذا الاختراق.

تناولوا وجبة الغداء. بعد ذلك مكث مع الخبير مركزاً على الحاسوب والهاتف، وقت ليس بطويل مضى حتى حدث ما أدهش الجميع. اتصال صدر من هاتف زوجته إلى رقم آخر. الاتصال قام به من يتحكم حاليا بهاتف زوجته عن بعد بواسطة توأم الشريحة، عبر الحاسوب ظهرت محادثة غريبة بين شخصين تهدف لتوريط العميد بأعمال إجرامية، حيث يثبت بالدليل القاطع أن المكالمة الصادرة من هاتف زوجة العميد. المكالمة صدرت من توأم الشريحة.

كأن أحدا من مساعدي العميد استخدم الهاتف لتنفيذ عملية خارج إطار العمل الرسمي. مضمون المحادثة أوامر بوضع سيارة مفخخة لقائد الجيش عند ذهابه إلى مقر عمله، حدد له المكان والزمان وانتهت المكالمة.

تعجب العميد وخرج من الغرفة مع الخبير. أكد له الخبير أن ما حدث دليل على ما استنتجه. موظف الاتصالات فعلا بدل الشريحة بأخرى لها توأم من خلالها يهاتفون أشخاصاً باسم هاتف زوجة العميد وبأن المكالمة مسجلة ومثبتة رسميا باسم العميد ولا يمكن اكتشاف ذلك فيما بعد. لولا هذه الخطوة الاستباقية.

أمر العميد (العقيد عمر) بالتحرك والذهاب فورا إلى منزل قائد الجيش ولقائه بشكل عاجل. كتب ورقة ووقع عليها وختمها بختمه الشخصي:

«إلى قائد الجيش، قابل العقيد عمر بصفة مستعجلة للأهمية البالغة والملحة. ولا مجال لتأخير لقائك معه مهما كانت مشاغلك».

سلم الورقة للعقيد وقال له: اشرح لقائد الجيش ما حدث. وما سيحدث وقل له بأن يتخلى هو وأهله من الهواتف النقالة على الأقل في الوقت الحالي حتى نُسيطر على الوضع، وكلف الملازم عفيف بالقيادة الميدانية للشارع الذي من المفترض تنفيذ العملية فيه.

بعد مراقبة شديدة للشارع المقصود تنفيذ عملية الاغتيال فيه، استطاع المكلفون بالمراقبة مهاجمة السائق عبر قناص قبل أن تصل السيارة إلى هدفها، اصطدمت بعرض الشارع وتوقفت.

هذه العملية النوعية أضيفت إلى رصيد الرجل المخضرم في مجال عمله.

الإجراءات التقنية، فقد تم تشكيل لجنة خبراء للحماية التقنية تحت إشراف الخبير لوضع برامج تكافح مثل هذا الاختراق وتعميم المعلومات على أهم موظفي الدولة لأخذ الحذر والحيطة.

في ما يخص شركة الاتصالات، فقد تم إلقاء القبض على الموظف المتورط في عملية التجسس. وبعد التحقيق، اتضح أن سبعة موظفين متورطون بالتخابر لصالح جهات أجنبية. هذه الخلية كانت على اتصال مباشر مع جهات خارجية ولم تتصل بجهات داخلية. وهذا ما جعل التحقيق يضعف من هذه الناحية.

★★★

رشيد أبو حفيظ رجل يحفظ أجزاء كثيرة من القرآن الكريم لأنه تلقى تعليمه في المسجد على يد شيخ أعمى عندما كان صغيرا. تعلم من أستاذه فن التجويد. له صوت جميل لا يختلف عن وجهه المستدير ولحيته الخفيفة. يقضي وقته ما بين المغرب والعشاء في تدريس القرآن الكريم لمجموعة من الأطفال في المسجد. يرفض تقاضي

أي أجر لقاء ذلك. يعتبر أخذ أموال لقاء تعليم لقرآن عملا غير لائق. دائما يقول: «أنا أقوم بهذا العمل إخلاصا لربي وديني».

منذ سبع سنوات وهو يعلم القرآن، لا علاقة له بأي حزب سياسي، ولا ينتمي إلى أي جماعة إسلامية، ينتمي إلى المجتمع. وهذا اليوم يوم الفصل. فبعد المضايقات المتكررة من قبل مجموعة من الإسلاميين منهم عتيق مؤذن المسجد وبعلم الشيخ أبو إيمان، لم يعد بمقدوره مواصلة رسالته الدينية في هذا المسجد. بلغ السيل الزبى حين لمح له عتيق والشباب من حوله أنه يمارس أشياء غير أخلاقية مع طلابه في المسجد. تهمة مختلقة للتخلص من رشيد. «اترك المسجد ومجموعة الطلاب الصغار لمن يفقه القرآن خيرا منه» هكذا يقولون لها دائما.

خاف رشيد على سمعته. وبعد تفكير، قرر ترك المسجد ليتولى شاب من تلك المجموعة تعليم الصغار القرآن الكريم. هكذا أصبح عتيق ومن حوله يتصرفون في المسجد بحرية مطلقة بعد انسحاب رشيد.

★★★

اشتدت حرارة الشمس عند الظهيرة، مما زاد من معاناة العمال تحت الأشعة الحارقة في عمارة تحت الإنشاء. (عبد الحميد) ورفيق دربه (يعقوب) يعملان في نقل الأسمنت من الشارع إلى داخل العمارة، لم يعكر مزاجهما سوى سقوط عامل قبل أسبوع عندما كان يمشي فوق سَقالة الخشب. توصل الطريق مرورا من فوق حفرة. ذلك الحادث أدى إلى شروخ في فقرات من عموده الفقري، وما زاد الطين بلة حالة العامل المادية خاصة بعد تخلي

صاحب المشروع عنه. فليس هناك ما يكفل حقوقهم عند الحوادث. بعد انتهاء فترة العمل عند الساعة الرابعة، اتفق الزميلان على الذهاب إلى منزل زميلهما المصاب. زيارة بعثت السعادة في قلبه. فقد الثقة بوقوفه ومساندة أفراد أسرته. هذا الوضع السيئ دفع عبد الحميد ويعقوب إلى القيام بمبادرة إنسانية والذهاب في اليوم التالي إلى صاحب المشروع في شركة (الجواهر للإنشاء والتعمير). طلبا مقابلة المدير. وبعد الانتظار لوقت طويل، سمح لهما بالدخول. وجدا صاحب المشروع وهو رئيس مجلس إدارة الشركة جالسا على كرسي دوار من خلف طاولة مكتبه العملاقة، عليها الأوراق وجهازان للهاتف الثابت. كان يبحث عن وثيقة، أشار إليهما بالوقوف بعيدا، أخذ سماعة الهاتف، طلب رقما مدونا على ورقة وانتظر ثواني حتى أجابه، فقال بصوت لا يسمعه ضيفاه اللذان وقفا في أقصى المكتب الكبير:

– مرحبا أستاذ.

– مرحبا.

– أنا رئيس مجموعة الجواهر.

– عرفت ذلك من الرقم الظاهر على شاشة هاتفي.

– هل وصلتك الرسالة؟

– نعم.

– آمل أن تكون بقدر معروفك.

– نوعا ما.

دار رئيس المجموعة بكرسيه لتصبح الطاولة من خلفه والنافذة من أمامه ووضع رجلا على رجل وهو يقول بصوت أقرب إلى الهمس:

- هل رست المناقصة باسم الشركة؟ (يقصد شركته)

- تقريبا.

- هذا يعني أن الهدية ليست كافية.

- تقريبا.

- (وهو يهز رأسه، ثم تابع قوله...) عند المساء ستحمل لك السكرتيرة الدفعة الثانية من الهدية.

- حسنا.

- سنحتفل بعد أن ترسو...

- اعتبرها أنجزت.

- أكيد.

- عندما أعود أنجز.

- لك تحياتي.

أعاد سماعة الهاتف إلى مكانها واستدار بالكرسي ليأخذ وضعه الصحيح وأشار إليهما ليقتربا ويجلسا إلى جانب طاولة المكتبة:

- مرحبا.

أجاب الاثنان بصوت واحد:

– مرحبا.

– هل من مشكلة؟

أجاب الاثنان بصوت واحد ولكن كلا منهما له كلامه الخاص به، ثم أشار عبد الحميد لصديقه بالبدء في الحديث، فقال يعقوب:

– سيدي...أتينا إليك... أتينا...(ظهر عليه الارتباك والتلعثم، مسح جبينه بطرف كمه وتابع قوله..) أتينا نطلب منك معروفا.

أشعل سيجارته ووضع القداحة على الطاولة بطريقة استفزازية وقال بطريقته المعهودة وهو يحرك رأسه نحو أقصى اليمين:

– معروف مني أنا! (وكأنه استغرب كلمة معروف).

– نعم سيدي، العامل الذي كان يشتغل في عمارتك وسقط في الأسبوع الماضي.....

قطع كلامه:

– لقد قمت بالواجب ودفعت حساب المستشفى.

– هذا لا يكفي. إنه يعاني من إعاقة وهو يعول أسرة وليس لديه ثمن الدواء. نحن نلتمس منك العطف والكرم ونطلب منك تعويضا...

هنا، انتفض ووقف من مكانه وكأن مسا أصابه وقال باستفزاز:

– تعويض! عن ماذا؟!

ارتعب يعقوب وعبد الحميد، فأجاب هذا الأخير:

– تعويض لأنه أصيب في عمارتك.

– وهل أنا ربه الذي خلقه لأعوضه؟! اطلبا ذلك من الله!

هذه الإجابة كانت كفيلة بأن يمسك يعقوب يد عبد الحميد ويخرجا فورا دون أن يتفوها بكلمة واحدة وكأنهما أصبحا جسدين دون رأسين. شعرا بحرارة تجتاح جسديهما في مكتب مكيف. من هذا الموقف عرفا أنه لا يمكن لهما مواصلة عملهما في هذه الشركة. توجها إلى العمارة وجمعا من باقي العمال التبرعات كل حسب قدرته وأخذا المال وذهبا به إلى زميلهما المصاب.

★★★

أصبح أبو إيمان، هكذا، شيخا وذاع صيته في المدينة بسبب خطبه النارية ضد الفساد. صار مسجده مكتظا بالمصلين يوم الجمعة وتمتلئ قاعته وباحته والشارع الأمامي. فالناس مولعون بمن ينتقد الفساد. هذا ما أدركه الشيخ واتخذه وسيلة إلى الشهرة واحتلال مكانة مرموقة في المجتمع. تلك خطوات مدروسة. ربما يراقب من قبل المخابرات بسبب استغلال المسجد لأغراض سياسية، ألا أنه بذكاء خارق كان يتلاعب بالكلمات التي يبثها من المنبر مستغلا بعضا من الجو الديمقراطي وحرية التعبير. ينتقد الفساد، يمدح الحكومة بطريقة غير مباشرة. وعند نهاية كل خطبة بعد الدعاء على اليهود والنصارى، يدعو الله أن يسدد خطى الحكومة...«يارب كن عونا لمن سهروا من أجل أمتنا، استشهدوا من أجل حياتنا. اللهم سدد خطى ولي أمرنا وتوله برحمتك، وارزقه البطانة الصالحة».

التلاعب بالمصطلحات جعل الرقابة عليه شبه مستمرة، مما جعله يكرر التجربة مرات عديدة حتى اطمأن ومضى قدما في تنفيذ ما يبتغيه. لم ينس أنه قبل عامين كان أحد سكان حي الصفيح. يقوم بزيارات دورية للحي وكذلك الأحياء الأخرى وكأنه وصي على الفقراء. مما جعله محبوب البؤساء.

بعد نشاطه في الطب النبوي، انتقل إلى حي متوسط المستوى. شهرته بالطب النبوي أكسبته مبالغ مالية معتبرة لأن الناس يثقون بالدين. كل ما يقال ويرتبط بالدين يلقى إقبالا مهما كانت النوايا وراء ذلك، متجاهلين أن الرسول عليه الصلاة والسلام بعث نبيا لا طبيبا. يُقدم الشيخ، مثله مثل غيره، أعشابا لمرضاه على أنها من الطب النبوي، وفي الحقيقة تلك الأعشاب لا تنمو في مكة ولا المدينة ولا في تلك المنطقة. وغالبا ما تكون النتائج عكسية وسلبية للغاية.

الشيخ أبو إيمان، كما يُطلق عليه، لم يعتل المنبر حباً في الدين بل هروبا من واقع يرفضه وعاشه. ولولا هذه الطريقة لبقي أحد سكان العشوائيات حتى هذه اللحظة. تكيف بطريقة غير مفهومة بنسبه له. مع الأيام يزداد قناعة بعمله. هو المستفيد الأول والأخير. أما الخاسرون في مثل هذه الحالات، فهم رجال الدين الذين كرسوا حياتهم لخدمة دينهم. لأن المصداقية تُفقد بعد سقوط الأقنعة المزيفة، الثقة برجال الدين النزهاء تتلاشى تدريجيا بسبب أمثال الشيخ أبو إيمان. هو كان يدرك ذلك إلا أن مصلحته الشخصية التي وضعها نصب عينه تبقى الهدف الرئيس في حياته. مع تعمقه بهذا المجال بشكل مستمر، صار يبني في شخصيته قناعات بشرعية ما أقدم عليه وما سيقدم، بل يزداد

شراسة في الدفاع عنها مع مرور الوقت بقناعة حقيقية. وكلما وسع مضمار قراءته، يجد نفسه ليس ذاك الاستغلالي، بل رجلا مدافعا عن معتقدات راسخة في بعض أعمدة تم بناؤها في الجسد الديني وبقيت على خلافات متتالية ومتداخلة بين العصور ومعاصريها.

بعمامة ولحية طويلة من تحتها ثوب أبيض، وقف الشيخ بانتظار سيارة أجرة لتقله إلى منزله. (ليست لديه سيارة، فهو يحب السير والنقل العمومي بسبب الترحيب المتواصل من قبل الناس. حينها يشعر بأنه رجل المعجزة). طيلة الوقت والسبحة في يده اليسرى، السواك في جيبه الأمامي للثوب. مرت من أمامه فتاة في مقتبل العمر، ترتدي ملابس تعتبر إغراء. سروالها الجينز يظهر تفاصيل أنوثتها. تفحصها الشيخ بنظره، صوب نظره من مسافة بين النظارة وعينه، تخلل لحيته وقال في سره:

«أمنية حياتي أن أعرف كيف دخلت بداخل الجينز الضيق؟! سروالها على وشك الانفجار من شدة ضغط جسمها الممتلئ، آه... ليتها جاريتي».

★★★

الأستاذ فتحي في الحي من القليلين الذين أكملوا تعليمهم. إنه محظوظ كونه أصبح أستاذا، والفضل يعود لأمه التي كرست حياتها من أجل وحيدها. بعد وفاة زوجها، امتهنت الخياطة، أتقنتها وأصبحت بارعة، دخلها المقبول نوعا ما جعلها مصرة على تعليم ابنها، ألحقته بمدرسة بعيدة جدا عن الحي. سنوات طويلة حتى دخل الجامعة، كانت تسهر الليل تخيط الملابس

النسائية التي تبيعها لتاجر في قلب المدينة. تصحو مبكرا لتطعم ابنها وتشد من أزره بالتشجيع والترجي بالاهتمام بدروسه. حقا، إنها أم عظيمة تستحق الاحترام. وهذا ما حدث، الكل في الحي ينظر إليها نظرة تقدير. فهي مثال للمرأة المكافحة المناضلة. ابنها يكن لها الإجلال والحب. يدرك معنى (كلثوم)، المرأة التي بدأ الزمان بالنيل منها برسم أثر من التجاعيد على وجهها ويديها.

بعد تخرج ابنها من الجامعة وامتهانه التدريس، منعها من العمل وأجبرها على الراحة. لكنها تعودت على مهنة الخياطة وأصبحت لا تستطيع الحياة بدونها. بعد أخذ ورد، وافق على عودتها لممارسة عملها بشكل عادي وغير مكثف.

خرج الأستاذ فتحي من منزله في طريقه إلى أحد المطاعم الذي قبله كنادل لديه للعمل في الفترة المسائية. عمل لزيادة دخله المالي ليتمكن من المضي قدما في تأسيس أسرة ومحاولة الانتقال إلى وسط المدينة أو إلى حي أفضل من حي الصفيح.

مرّ الأستاذ من أمام (أبو أحمد البقال)، استوقفته لافتة الإعلانات المكتوبة بخط اليد (يوجد لدينا أجبان دنماركية بأسعار لا مثيل لها)، (يوجد لدينا لحم معلب راق بأسعار مناسبة).

دخل المحل وطلب علبة جبن دنماركية. بعد الترحيب من قبل البقال، أعطاه واحدة، تفحصها الأستاذ فوجدها مخرومة من الأعلى لكي لا تستهلك احتجاجا على الرسوم الكاريكاتورية المسيئة لأشرف الخلق رسول الله برغم من دفع ثمنها لشركات الدنماركية، فقال لأبو أحمد محتجا:

– ليس من أخلاق الإنسان بيع مثل هذا.

– ومنذ متى كنت تعترض على ما أبيع وأنت أول المستهلكين!

– هذه المرة جريمة يا عم أبو أحمد.

قطب جبينه وهو يقول بغضب:

– هل نهبت أموال الشعب أو عرضت الأمن القومي للخطر؟!

– لا هذه ولا تلك.

– إذا، ماذا يا أستاذنا المحترم يا متعلم؟!

– أنا أحتج على بيع بضائع مخرومة تعرضت للبكتريا والسموم والهدف من الإتلاف عدم استهلاكها تضامنا مع رسول الله، فلا يصح تداولها، إنها تالفة وغير صالحة للاستهلاك.

– نعم؟!! من الأفضل أن تحتج على أوضاع أهل الحي، انظر (يشير بيده...) الزبالة، الفضلات، الصرف الصحي، الجرذان، تلك هي البكتيريا والسموم الحقيقية. أما أنا، فأقدم لهم خدمات لا أحد غيري يجرؤ على تقديمها. لولا خدماتي، لما أكل أبناء الحي ما هو غال وثمين وصنع للأغنياء فقط بسعر بخس. نصف الثمن (وهنا، بدأ أبو أحمد البقال بالعتاب) أنتم لا تستحقون المعروف، أنا ثروة للحي.

قاطعه الأستاذ:

– هل أصبح هذا العمل المشين معروفا؟!

– لا تشتري مني إن كنت معترضا، إذهب إلى خارج الحي واشتر من هناك، (بعد أن رحب به راح يعاتبه ويتذمر منه). لا أحد هنا غيرك يعترض، الجميع يقدر ما أقوم به من أجلهم، أنا أقوم بدور الحكومة ببيع السلع بنصف الثمن يا هذا. أنا هو الأمن الغذائي لهذا الحي الكئيب.

– هداك الله يا عم أبو أحمد.

تناول علبة الجبن من يد الأستاذ بعنف وغضب وهو يقول: لا أحد يفعل الخير في هذا الزمان غيري.

★★★

شق إبراهيم ولمياء طريقهما نحو الجبل صعودا ليتوغلا بين الأشجار متجهين إلى مساحة في القمة يمكن منها مشاهدة أغلب ربوع المدينة. موقع مدهش يمكن منه مراقبة حركة السيارات في الشوارع الأمامية للمدينة. أما الشوارع الخلفية، فهي محاطة بمبان تجارية عملاقة. ويتيح الموقع أيضا مشاهدة الأحياء السكنية الراقية الخاصة بالقارونيين (الأثرياء). تبدو وكأنها واحات على مجسم للفنون الجميلة. من الأعلى، يظهر التنظيم الجيد لهذه الأحياء المكسوة بالأشجار الشاهقة والنخيل على جوانب الطرق داخل وخارج الأحياء الفاخرة. وفي سمائها، تحلق الطيور مثل الحمام والعصافير. لا يتصاعد الدخان من تلك الأحياء، سماؤهم صافية صفاء الماء في إناء الذهب.

أما الأحياء الخاصة بالموسويين (الفقراء لله)، فتبدو وكأنها كومة من الخردة، متقاربة لا يظهر فيها إلا القليل من الأشجار

المتهالكة، تكاد لا ترى إلا بتركيز لأنها غير لافتة للنظر. حتى الشمس لا تعكس الضوء إلا من بعض الأسطح المجددة لأن الصفائح القصديرية تتلألأ بنوع من البريق. أما باقي البيوت، فلا يظهر منها إلا بقع من اللون الأسود الخاص بالإطارات الممزقة من فوق الصفائح القصديرية التي نال منها الصدى بفعل القدمِ، الزوابع الرملية تلوث سماء الأحياء الموسوية. ترى الغربان السَود تحلق فوق هذه الأحياء وأحيانا بعض الصقور.

بعد مشقة صعود الجبل، جلس الحبيبان متجاورين يستنشقان الهواء بوتيرة متسارعة من شدة التعب. تناول إبراهيم قنينة الماء ليسقي لمياء، شربت ثم شرب وهو يراقب المدينة، جمعا أنفاسهما. بعد وهلة من الزمن، قال إبراهيم للمياء:

- أريد أن يكون لي بيت في تلك (وهو يشير بيده) الأحياء الراقية. حينها، سأكون من المحظوظين.

- أقلت تريد؟!

- نعم.

- يا رفيق عمري، الإرادة ليست من حقنا، أما الحلم فهو لنا.

- الدنيا تعطي الإنسان على قدر طموحه.

- من أين جئت بهذا الكلام الذي لا أفهمه؟! لو تمنيت أن يكون لك منزل متواضع في حينا، لقلت لك إن هذا وارد في المستقبل بعد مشقة وعناء.

- أأنتِ متشائمة؟!

- لماذا تطلب المستحيل؟!

- جلُّ أحلامي أن أعيش مثل الآخرين. أتزوج وتكون لي حياة سعيدة.

- هذا بالنسبة لك.

- بالنسبة لي!!! أليست لكِ أحلام أنت الأخرى؟!

- طموحي محصور في يومي فقط. أطمح بفستان ومستلزمات الفتاة التي لا أستطيع الحصول عليها. وآخر هدف لي أنت تعرفه.

- وهل لي غيرك في هذه الدنيا؟! منذ نعومة أظافري وأنا أعرف لمياء، أين المفر؟ (قالها مازحا).

نظرت إليه بعتاب:

- أأنت مجبر على الظفر بي؟!

- لا تعتبي، أنا أمزح.

- مرة ثانية، لا تمزح وتسخر مني.

ضحك وقال:

- أردت أن أراك غاضبة. فأنت رائعة فى ملامح الغضب.

كشرت ووجهت له ركلة أنثوية بيدها على كتفه وهي تقول:

- أحمق! لكني أحبك.

تناول يدها وأخفاها بين راحتي يديه وقال:

- أنت سعادتي في دنيا ماكرة.

وضعت رأسها تحت ذراعه كالطفل يتهيأ ليحط على صدر أمه. مازال الكلام لإبراهيم:

– أحبك.

– وأنا كذلك.

تبادلا كلمات معبرة لفترة وجيزة حتى رفع إبراهيم رأس لمياء من جانب حضنه ليرى وجهها مبللا بالدموع بعد أن شعر أن شيئا أشبه بالماء يتسلل إلى جسده. نظر إليها نظرات الحائر متسائلا:

– لِمَ تبكين؟!

– لم أر شيئا في حياتي يسعد فتاة مثلي إلا أنت. نالت مني الدنيا التي أهدتني التراب بدلا من لعب الأطفال. طيلة عمري وأنا ألعب بالتراب. وكم تمنيت دمية ولم أحصل عليها حتى توقفت عن الحلم وعشت الحقيقة، الحقيقة مرة، فأنت تبدد أحزاني وبؤسي.

أثارت فيه المشاعر لتتحول الرومانسية إلى بكاء الحياة وتلألأت عيناه بريقا ليقول لها:

– وأنا عشت كما عشتِ أنت. أخجل منك وأنا أعمل جامعا للنفايات. ماذا كان بيدي أستطيع فعله ولم أفعل؟! كيف أستطيع إسعادك؟! يكفينا الحب المتبادل.

– أشعر معك بروح الحياة تسكن في جسدي، أتمنى أن أكتب لك رسائل وأعبر عن مشاعري، لكني لا أستطيع، (تنهدت وهي تواصل...) ليتني أستطيع أن أكتب لك كل شيء جميل.

مسح دموعها بأسفل راحة يده وهي تقول له:

— أريد العودة إلى الحي. رأسي أوشك على الانفجار من الألم.

— أخبرتك مرارا أن بعد البكاء يأتي الصداع، لا تبكي مرة أخرى.

★★★

بدأت يتوسع أفق الزمالة بين الأستاذ فتحي ومسعد لتتحول تدريجيا إلى صداقة. برغم اختلاف الأفكار والرأي بينهما، إلا أن كل شيء في مجراه. الصداقة والزمالة في طريق والاختلاف الفكري والثقافي في طريق. الأستاذ فتحي متوازن، له فكرة معينة في الحياة (الفهم من حقي، والكلام قد يضرني). يرى الأخطاء ويحاول تصحيحها بعقلانية. لا أثر للتعصب والانفعال في قلبه. بهدوء ينصح، برزانة يتصرف، لا يحب العنف، وكأنه شخصية مركبة على الورق، يقضي وقت فراغه في القراءة والمعرفة. موعد حدده مسبقا مع الأستاذ مسعد لذهاب إلى سوق الجمعة، مقصده الأسبوعي ذلك السوق الشعبي. يفترش الباعة الأرض مستغلين يوم الإجازة الأسبوعية للبيع بأسعار مناسبة دون دفع إيجار أو ضرائب وما شابه. كل شيء جديد وقديم متوفر في هذا السوق. حتى بسطات الكتب القديمة وأحيانا الجديدة التي قرأت وتخلص منها القراء تباع الكتب بأسعار بخسة، وبعضها قد توقف نشرها منذ سنين. ربما لعدم نجاحها تجاريا برغم قيمتها الفكرية، والأخرى قد قرأت قبل سنين وتخلص منها الجيل الجديد. بالرغم من كون الإقبال عليها معدوما، إلا أن بعض المثقفين الفقراء والهواة يأتون من وقت لآخر لشراء الكتب التي يصل سعر الواحد منها إلى أقل

مـن ربـع القيمـة الأصليـة. والغريـب وجـود مجـلات وجرائـد نشـرت إبـان الحـرب العراقيـة الإيرانيـة وحـرب الخليـج الأولى والثانيـة. هـذه هـي المتعـة الحقيقيـة للأسـتاذ فتحـي قـراءة الصحـف الـتي صـدرت قديمـاً، يقـارن بعـض الأحـداث والتصريحـات والأوضـاع. يعيـش الزمـن القديـم وكأن أمـوات ذاك الزمـن مازالـوا أحيـاء. هـذا الزعيـم يهـدد. ذلـك يقطـع العلاقـات. وذلـك يقصـف. واليـوم، الجميـع أشـبه بالظـل الثابـت الـذي يظهـر خلسـة ويختفـي خوفـا مـن الشـمس، «لا» بـل سـراب وهمـي، «لا» سـراب حقيقـي جـارف، «لا» بـل مـد زمـني حمـل معـه ضحايـاه مـن ملايـين البشـر، «لا» حقيقـة دفنـت ملايـين الجثـث بـكل بسـاطة وبـرودة أعصـاب وأعلنـوا الانتصـار المظفـر؟؟؟!.

قبـل أن يخـرج الأسـتاذ فتحـي إلى سـوق الجمعـة، جلـس يشـرب الشـاي مـع والدتـه. صـراخ متعـال جعلـه يضـع الفنجـان علـى الأرض ويخـرج فـورا وأمـه تنبئـه:

— هذا صوت «حصين». يبدو أنه يتعارك مع أخيه مجددا.

جـرت العـادة أن يتعـارك حصـين الأخ الأكـبر مـع أخيـه (سـيف) ولا مصلـح بينهمـا إلا الأسـتاذ فتحـي. لا يـكاد يمرّ أسـبوع دون معركـة ولكل مـرة سـبب. مـرة، تحيكهـا إحـدى الزوجتـين. ومـرة، علـى المنـزل المـورث عـن الأب. أمـا هـذه المـرة، فـكان السـبب فاتـورة الكهربـاء الـتي وصـل مبلغهـا بأكثـر مـن خمسـين بالمائـة مـن السـعر الماضـي. حيـث يدفـع كل واحـد فاتـورة شـهر، تزيـد قليـلا أو تنقـص قليـلا حتـى يتقـارب الرقـم بشـكل تقريـبي مـع مـرور الأشـهر. هـذه كانـت نتيجـة صلـح قـام بـه الأسـتاذ فتحـي بنـاء علـى طلبهمـا بـأن يكـون الدفـع كذلـك. لم تكـن نتيجـة الصلـح مقنعـة للأسـتاذ، إلا أن الجهـل

دعاهما إلى رفض المنطق والبحث عن البديل. أما اليوم، فالاتفاق لم يعد قائما لأن حصين دفع الشهر الماضي مبلغا أقل بكثير مما يجب على (سيف) هذا الشهر. هذا الأخير أبلغ حصين رفضه الدفع إلا إذا قام أخوه بدفع جزء من زيادة هذا الشهر. رفض حصين لأن هناك اتفاقا مسبقا يتم من خلاله الدفع شهرا بشهر. تجاذب الأخوان وكل واحد منهما أمسك الآخر لضربه. الزوجتان تصرخان وتتبادلان الشتائم، الأطفال الصغار يتفرجون بارتعاب وأصوات متعالية. أهالي الحي احتشدوا تدريجيا حولهما.

اشتد الصراخ وبدأت معركة، ظهر الأستاذ وهو يأمرها بصوت متوسط بالتوقف.

لم يتوقفا، صرخ وقال:

– قلت لكما توقفا.

أمسك بحصين، وأحد سكان الحي أمسك بسيف. فصلاهما بقوة. نظر إليهما الأستاذ معاتبا:

– ألم أقل لكما إذا اختلفتما، أبلغاني بالنزاع قبل أن تتعاركا؟!

صرخ حصين قائلا:

– هذا قليل أدب.

رد عليه سيف:

– أنت قليل الأدب وحيوان.

وهنا، بدأت الشتائم والسب في تزايد. هدأ الأستاذ الموقف وطلب من حصين أن يحدثه عن سبب الشجار، أخبره، تبدل الأخوان

الاتهامات. وبعد فترة وجيزة، من سماع الأخوين، أصدر الأستاذ حكمه بدفع الفارق النصف بالنصف، ومن الشهر القادم تدفع الفاتورة خمسين بالمائة لكل واحد منهما. وافق الأخوان. استهلك الأستاذ جميع أوراق الصلح معهما منذ سنين من الصراعات المتكررة. جرب معهما كل ما هو ممكن. والغريب أنهما يتفقان على صلح مجحف في حق أحدهما. هذا ما يجعل الأستاذ يضحك مستغربا وهو يغادر الحي للقاء مسعد والذهاب معا إلى سوق الجمعة الشعبي.

★★★

خرج جاسر من مكتبه متوجها نحو أحد الفنادق الراقية لتناول وجبة الغداء. طلب من صادق انتظاره أمام سيارته ريثما يذهب إلى مكتب محامي الشركة. ثم تابع سيره نحو مكتب المحامي عبر المصعد ليتوقف في الدور الثامن. دخل على المحامي فجأة. وجده منهمكا في عمله. وقف المحامي يحييه. سأل المحامي إذا كانت هناك مشكلة يواجهها. أخبره أن وزارة الصحة لم تسلم له تصريح إنشاء مصنع الأدوية بحجة أن الأرض غير مناسبة للصناعات الدوائية. لم يكترث لهذا وابتسم. عاد عبر المصعد وحراسه يتبعونه إلى مكتب السكرتيرة. طلب من حراسه الانتظار أمام المصعد الهوائي ريثما يعود. وقف أمام السكرتيرة سألها:

- رُفض منحنا ترخيص إنشاء مصنع الأدوية. جاء دورك الآن.

دس يده في جيبه، وأخرج دفتر الشيكات وحرر شيكا بمبلغ مالي وناولها إياه وهو يقول:

- وجهتك المسؤول المعرقل؟ اطلبي لقاءه باسم الشركة وانظري

كيف تتعاملين معه بطريقة أو بأخرى. هذا مبلغ مالي لك لشراء ملابس أنيقة وعطور. إن طلب المال لا تترددي وإن طلب هدية لها علاقة بك فلا تترددي. اذهبي معه إلى أي مكان يطلبه منك. ولقاء مجهودك سيكون على مكتبك. المهم لا تعودي دون الموافقة.

– سيدي، صادق على علم. سبق وأن تعاملت معه عندما أبرمنا صفقة تزويد المستشفيات العامة بالأدوية والمعدات الطبية. لم يرغب في وجودي حينها وعرفت من سكرتيرته مدى رغباته. نجحت في مهمتي، غدا ستكون الموافقة بين يديك سيدي (قالتها بغنج يصاحبه تكشيرة امتعاض...).

– لم هذا الامتعاض؟ (قالها مستغربا، وتابع سؤالاً أُثير للتو في رأسه...) ماذا تقصدين «بمدى رغباته»؟

– ابن الكلب، لم يتقبل وجودي بمكتبه ولم يستحسن صوتي عبر الهاتف. تابعت عملي باحثة عن نقطة ضعفه لأستغلها في إنجاز المهمة التي أوكلتها لي. وأنشأت علاقة عمل مع سكرتيرته، تعاونت معي بإفصاحها عن مدى رغباته المتمثلة بليلة حمراء يقضيها مع طفل أسمر.

– طفل؟؟! (رفع حاجبيه اندهاشا)

– وأسمر، ذو مواصفات. لا يقبل ذا البشرة البيضاء. أضناني البحث، حتى وجدت الضالة في حي الصفيح بمساعدة صادق.

– المهم أنك أنجزتِ المهمة. لا تتشائمي، تلك رغبته سيحصل عليها بأي وسيلة، أنت بارعة، لك مكانة عالية عندي... تستحقين مكافئة كبيرة...

«لعنة الله عليه ابن ال....، الشذوذ يثير قرفي. يتركون أجمل النساء ويبحثون عن الشذوذ، وقحون. يدخلون أنفسهم في مكان القاذورات...». هكذا قال في سره وهو يغادر مكان عمل السكرتيرة. جاسر يستمتع ويجد رغبة في أي شيء فيه انحلال ما عدا الشذوذ. كم يكره ذلك. يشعر بالغثيان من هذا الأمر ولا يمكن أن يتساهل مع أي فرد من أتباعه إذا ما سمع عنه شيئاً من هذا القبيل. ذات مرة، علم أن أحدا من أتباعه تلفظ بكلمات تحوم حول الشذوذ فعاقبه وطرده.

وصل جاسر إلى فناء الشركة. صادق في انتظاره. طلب منه أن يصعد إلى سيارته الشخصية وطلب من السائق، بعد أن صعد هو، أن يأخذه إلى مكان هادئ في الهواء الطلق قبل الذهاب إلى الفندق. فعل ما أمر. وفي صمت تعود عليه جاسر، أوصله السائق إلى منطقة مفتوحة وشبه نائية. طلب من صادق الترجل وكذلك فعل. أشار إليه بأن يتبعه بعد أن أمر حراسه بالبقاء بعيدا عنه مسافة حيث لا يمكنهم سماع ما يقوله. هو لا يثق بأقرب الرجال إليه إلا ما ندر. وكاحتياط أمني، يبقيهم بعيدين عنه عند التحدث بالعمل. توقف وقال لصادق:

– الأداء في الميناء لا يعجبني.

– سنقوم بالتعديلات التي تراها مناسبة يا سيدي.

– أداء العمل في الحدود أفضل بكثير مع أن أهمية الميناء كبيرة جدا.

– اطلب ما تريد. أنا تحت أمرك.

- اعمل على زيادة العمال النشطين في الميناء من رجالنا حتى يصبح تحت سيطرتنا. واعمل على تقسيم العمال إلى فرق، كل فرقة ليس لها علاقة بالأخرى، على أن يكونوا غير معروفين لدى بعضهم البعض. قرأت اليوم في الصحيفة إعلان طلب موظفين للعمل في الميناء بعد توسعيه وهذه فرصة ذهبية للسيطرة على مكان حساس مثل هذا.

- سأفعل ما تأمر. وسأتعامل مع موظف التعيين.

- بطريقة غير مباشرة. احرص على ألا تلفت الأنظار إلى أن لدينا أفواجا من العمال.

- لنا علاقة مع موظف يعمل هناك وأعتقد أن له علاقة بالتوظيف والترشيحات.

- تواصل معه وكن حذرا. هذه المهمة أهم من أية صفقة.

- عُلم وسينفذ فورا سيدي.

- وصلني خبر أن وزارة التربية أرسلت إلى وزارة التخطيط مخططات بناء مدارس في مناطق الأحياء العشوائيات. اعمل ما يلزم لتعطيل ذلك. وإن تعذر عليك، استبدل مناطق البناء حتى لو تبرعنا نحن بأراض بعيدة.

- حسناً.

- عد إلى إحدى سيارات الحراسة واذهب إلى عملك وأبلغني عن كل التطورات شفهيا.

عـاد جاسـر إلى سـيارته وذهـب إلى الفنـدق لتنـاول الغـداء بانتظـار نتائـج بعـض المهمـات الـتي أسـندها لموظفيـه.

يـوم جميـل، سمـاء صافيـة، وشمـس بـاردة، وهـواء نقـي، هـدوء في المدينـة، الازدحـام المـروري وضوضـاء السـيارات ليـس كالعـادة، المـارة تناقـص عددهـم بشـكل واضـح. اليـوم عطلـة العيـد الوطـني تليـه العطلة الأسـبوعية. لـذا أبنـاء المـدن الأخـرى عـادوا لمدنهـم لقضـاء الإجـازة، والكثـير مـن سـكان المدينـة إمـا في منازلهـم أو في زيـارات بعيـدة.

★★★

عشـاق مقهـى «الـدب الصغـير» يمارسـون الحيـاة ويتـداوون أدبـاً عتيقـاً تحـت سـقف المقهـى؛ فهـو نافـذة تطـل علـى العصـور بـكل تجلياتـه الروحانيـة والفنيـة. افتتحـت السـاعة الأدبيـة، كلٌّ يلقـي مـا لديـه. اليـوم، جـاء دور لـؤي، قـال لجمهـوره الصغـير إنـه كان ينـوي قـراءة الورقـة الثانيـة بعنـوان «زهـور للراحـل أمـل دنقـل» ولكنـه أجلها للغـد لأنـه قـرأ اليـوم في أحـد المواقـع الإلكترونيـة قصـة معـبرة وأراد أن يقصهـا عليهـم لمـا لهـا مـن أثـر جميـل في النفـوس:

«اشـترط أسـتاذ مـادة علـم الاجتمـاع في جامعـة ماليزيـة علـى طلابـه إسـعاد إنسـان واحـد طـوال الأربعـة أشـهر، مـدة الفصـل الدراسـي، للحصـول علـى الدرجـة الكاملـة في مادتـه. وفـرض أسـتاذ علـم الاجتمـاع الماليـزي علـى طلبتـه الثلاثـين أن يكـون هـذا الإنسـان خـارج محيـط أسـرته وأن يقـدم عرضـا مرئيـا عمّـا قـام بـه في نهايـة الفصـل أمـام زملائـه. لم يكتـف الأسـتاذ بهـذه المبـادرة بـل اتفـق مـع شـركة ماليزيـة خاصـة لرعايتهـا عـبر

تكريـم أفضـل عشـر مبـادرات بمـا يعـادل ألـف دولار أميركـي.

في نهايـة الفصـل الدراسـي، نجـح الطـلاب الثلاثـون بالحصـول علـى الدرجـة الكاملـة، لكـن اختـار زملاؤهـم بالتصويـت أفضـل عشـر مبـادرات بعـد أن قـدم الجميـع عروضهـم علـى مسـرح الجامعـة، وحضرهـا آبـاء وأمهـات الطلبـة الموجـودون في كوالالمبور.حينها، نشـرت هـذه المبـادرات الإنسـانية أجـواء مفعمة بالمفاجـآت والسعادة في ماليزيا. فالجميـع كان يحـاول أن يقـدم عمـلا إنسـانيا مختلفـا يرسـم فيـه السعادة علـى حيـاة غيره.لقد قـام طالـب ماليـزي وهـو أحـد الفائزيـن العشـرة، بوضـع هديـة صغـيرة يوميـا أمـام بـاب شـقة زميلـه في سـكن الجامعـة وهـو هنـدي، ابتعثـه والـده لدراسـة الطـب في ماليزيا.اختـار الطالـب هـذا الطالـب الهنـدي تحديـدا لأنـه شـعر بأنـه لا يمتلـك أصدقـاء أو ابتسـامة طـوال مجاورتـه لـه لنحـو عـام. كان الطالـب الهنـدي لا يتحـدث مـع أحـد ولا أحـد يتحـدث معـه، يبـدو حزينـا وبائسـا ممـا جعـل زميلـه الطالـب الماليـزي يـرى أنه الشـخص المناسـب للعمـل علـى إسـعاده.أول هديـة كانـت رسـالة صغـيرة وضعهـا تحـت بـاب سـكنه كتبهـا علـى جهـاز الكمبيوتـر في الجامعـة دون توقيـع: «كنـت أتطلـع صغـيرا إلى أن أصبـح طبيبـا مثلـك، لكـني ضعيـف في مـواد العلـوم، إن الله أعطـاك ذكاء ستسـهم عـبره بإسـعاد البشـرية».

في اليـوم التالـي، اشـترى الطالـب الماليـزي قبعـة تقليديـة ماليزيـة ووضعها خلف الباب ومعها رسالة: «أتمنى أن تنال قبولك هذه القبعة».

في المسـاء شـاهد الطالـب الماليـزي زميلـه الهنـدي يعتمـر القبعـة ويرتـدي ابتسـامة لم يتصفحهـا في وجهــه مــن قبـل. ليـس ذلـك فحسـب، بـل شـاهد في حسـابه في الفيـس بـوك صـورة للرسـالة الأولى

التي كتبها له، وأخرى للقبعة. وقرأ تعليق والد الطالب الهندي على صورة رسالته، قال فيه: «حتى زملاؤك في الجامعة يرونك طبيبا حاذقا، لا تخذلهم واستمر».دفع هذا التعليق الطالب الماليزي إلى الاستمرار وتقديم الهدايا الصغيرة إلى زميله يوميا دون أن يكشف عن هويته.كانت سعادة الطالب الهندي لا توصف، وصفحته في وسائل التواصل تزدحم بالأصدقاء والأسئلة: «ماذا ستحصل اليوم؟ لا تتأخر... نريد أن نعرف ما هي الهدية الجديدة».

تغيرت حياة الطالب الهندي تماما، تحول من انطوائي وحزين إلى مبتسم واجتماعي.بعد شهرين من الهدايا والرسائل أصبح الطالب الهندي حديث الجامعة التي طلبت منه أن يروي تجربته مع هذه الهدايا في لقاء اجتماعي مع الطلبة. تحدث الطالب الهندي أمام زملائه وكانت المفاجأة عندما أخبر الحضور بأن الرسالة الأولى، التي تلقاها جعلته يعدل عن قراره في الانصراف عن دراسة الطب ويتجاوز الصعوبات والتحديات الأكاديمية والثقافية التي كان يتعرض لها.

سيصبح الطالب الهندي طبيبا يوما ما وسينقذ حياة الآخرين. اجتاز الطالب الماليزي مادة علم الاجتماع وتفوق. تركت المبادرة أثراً كبيراً في نفوس من سمع بها لإسعاد الآخرين».

طوى لؤي الورقة وتوجه ليأخذ مكانه، كل الحضور راح يمتدح المبادرة ويعبر عن مدى إعجابه وسط فوضى الأصوات المتجولة حول المكان بين المقاعد والطاولات قبل عبورها لمسامع بعضهم البعض. وقف الأستاذ مسعد محاولا اختراق جدران الضجيج: «مهلا، اسمعوني...»، يدور ويداه ممدودتان في الهواء ليشير لهم بالتوقف عن الكلام ليقول ما عنده. «لو سمحتم، من فضلكم

اسمعونـي...» الأصـوات مازالـت متزاحمـة وتعـج في المـكان. ينحـني مسـعد ويضـرب براحـة يـده علـى وجـه الطاولـة وكأنـه في الفصـل أمـام طلابـه عندمـا يأمرهـم بالسـكوت. توقـف الجميـع عـن الـكلام واسـتداروا نحـو الطاولـة الضحيـة وحملقـوا جميعـا في وجهـه، انطلـق مسـعد بالـكلام: لا تفهمـوا مـن هـذه القصـة الرائعـة أنهـا عمل إنسـاني ونقطـة. لا، وألـف لا، أنهـا تجربـة في علـم الاجتمـاع ودراسـة الظواهـر التأثيريـة علـى المجتمـع. لا تأخـذوا الأمـر مـن بـاب العاطفـة، بـل تمعنـوا النظـر بعمـق مـن وراء الحـدث. ذلـك الأسـتاذ في علـم الاجتمـاع هـو عـالم وأراد أن يعمـل بحـث اجتماعـي لتحسـين أخـلاق المجتمـع بطريقـة علميـة حديثـة نفسـية. نجـح بالوصـول لنتيجـة أن لهـذا الفعـل أثـراً ربمـا يتصـل لجيـل قـادم حيـث إن طبيـب المسـتقبل سـيتحول مـن غـارق بـين الجثـث التشـريحية ومناظـر الدمـاء إلى غـارق بالمشـاعر المفعمـة بالحيـاة والمشـرقة في قلـوب الغـير، خاصـة المرضـى. بذلـك، نجـح بنظريـة التحكـم الإيجابي. ونحـن سـنتناقل القصة للعـبرة الدينية عـن التراحـم لكسـب الحسـنات فقـط، ولا نفكـر بالسـيطرة الإيجابيـة بشـخص، ومـن خلالـه وبمـداه وأثـره الطويـل. إنـه علـم الاجتمـاع يـا أصدقائـي، ذلـك العلـم المجهـول في بلدنـا، المنبـوذ، الـذي لـو وجـد وشـجع ودعـم، لأنتـج الأمـر دراسـات عـن الظواهـر الاجتماعيـة الموروثـة والدخيلـة علـى مجتمعنـا، لوجـدت حلـول لأغلـب السـلبيات في بلادنـا ونهـض المجتمـع. جميعكـم (يصـرخ فيهـم بانفعـال...) ألم يتـم تحريـم علـم الاجتمـاع والفلسـفة يومـا مـا؟! ومازلنـا ننظـر لهـا شـزرا حتـى اليـوم. أليسـت مـن العلـوم السـفلى في مجتمعنـا؟ (يسـتدير مسـعد ويخطـو خطـوات نحـو خشـبة مسـرح المقهـى ومـازال يتسـاءل...) مـن لـه صديـق متخصـص بعلـم الاجتمـاع؟! مـن يعـرف

منكم مختصاً أو باحثاً؟! من يحفظ اسم عالم في هذا المجال في بلادنا قديما وحاليا؟! من منكم سمع ببحث عن ظاهرة اجتماعية في بلادنا؟! (يخفض صوته...) لا أحد يا أصدقائي يجسر على الالتحاق في كلية العلوم الاجتماعية والإنسانية، ببساطة لأنه سيموت جوعا بعد التخرج، ولا يجد وظيفة، والمحظوظ من يقبل ملف توظيفه في صندوق النظافة. (يكفكف يديه بحسرة) أليس من العيب المركب أن تبقى العلوم الإنسانية في أدنى سلم تصنيف الجامعات؟! بينما في الغرب، مدخل المكاتب ترص كتب الفلسفة لأنها أم العلوم. يا للعجب، كم نحن حمقى، ولا أمل لنا أن نرتقي إلى مستوى نصف حيوان!!

★★★

بعد مغادرة زوجها المنزل، تبقى صفاء وحيدة تتجول في كل زوايا البيت، تستمتع بساعات حرية كعصفور منح عتقاً زائفاً لبرهة من الزمن ليعود إلى قفصه كرها. كلما تمرّ من أمام غرفة النوم، يهاجمها شعور الخوف وتتسارع دقات قلبها كأنها تترقب خروج الغول الذي طالما خوفت به في طفولتها الأولى. وقفت لوهلة، فتحت الباب ودخلت بحذر شديد، تمشي ويدها ممتدة نحو السرير، تتحرك أصابعها على حافتيه وهي تلامس الغطاء الناعم. اغرورقت مقلتاها وغلبتها دموعها. فأول صورة لها كانت عكس توقعها، فهمت أن الزواج أمومة ولطافة. هكذا فهموها في بادئ الأمر (ستكونين أماً، والزوج ستر للمرأة..)

على هذا السرير، كان اغتصاب طفولتها وأنوثتها التي قطفت قبل نضوجها. تذكرت أياماً خلت وهي تلعب مع قريناتها وأقرانها

مـن الأولاد، تركـض وهـم كذلـك، ضحكاتهـم تمـلأ الدنيـا صـدى يـتردد ويولـد منـه بهجـة طفوليـة بريئـة. يختبئـون، مغمضـة العينيـين تعد إلى العشـرة، تفتـح عينيها، تشـرع في البحـث، لعبة التخفي هويـة الطفولة.

كانـت لهـا دميـة، غريـزة الأمومـة تتدفـق بداخلهـا كشـعور طبيعـي يتولـد مـن الـذات الأنثـوي لتحتضـن دميتهـا كأنهـا ابنتهـا وكأنهـا تسـمع بكاءهـا، تحركهـا بـين ذراعيهـا وتضعهـا علـى سـريرها بلطـف. لكنهـا لم تتخيـل أن يعاجلهـا القـدر لتـزف حقيقـة وتقـف في غرفـة نوم يشـاركها رجـل بشـارب نومهـا وحياتهـا. لم تتخيـل بهـذه السـرعة وبغمضــة عــين أن تكــون ســيدة بيــت ولم يتبــادر إلى ذهنهــا أنهــا ســتكون مسـؤولة عـن الشـؤون المنزليـة والمطبـخ، تتسـارع بهـا عجلـة الأيـام برغـم توقـف سـاعة زمنهـا عـن هـذه اللحظـة قتيلـة تبحـث عـن الـدواء بارتبـاك لعلهـا تُقتـل مجـددا.

اقتربـت مـن المـرآة وهـي تتأمـل وجههـا وجسـمها. مسـحت علـى أطـراف شـعرها وخديهـا. تحسسـت جسـمها وإذا بتلك اللحظـات الأولى لهـا مـع زوجهـا تعـود بهـا إلى الـوراء. ثقـل أضعـاف جسـدها يرتمـي فوقهـا، تدفعـه بيديهـا محاولـة إبعـاد وجهــه و جسـمه عنهـا وهـو يشـدها بعنـف أنهـا الشـهوة الـتي لا يحكمهـا لا قلـب ولا عقـل[...] تذكـرت لحظـة اختراقهـا وتمزيقهـا. تتذكـر نزيفهـا وتهشـيم عظامهـا.

لوهلـة، أحسـت بروحهـا تُقبـض مـن ذوي فوضـى، تمـرر أصابعهـا علــى جلــد صدرهــا وتــراه مليئــاً بالنتــوءات. انهــارت أمــام المــرآة ووقعـت علـى الأرض باكيـة منهـارة وهـي تقـول : لمـاذا تركتـني يـا أمـي؟! لمـاذا تركتـني يـا أبـي؟! لمَ رحلتمـا وتركتمانـي وحـدي. ليتكمـا أخذتمونـي معكـم، لا أحتمـل..

في المطبخ، تحاول تقمص دور ربة المنزل، ألم نفسي يربكها: كيف تبدأ ومن أين؟ تراه عريضا، وكثير الأدوات، تشعر أنها مليكة هذا المطبخ لكنها عاجزة عن إدارة ملكها، يبقى العامل النفسي طاغياً نحو الانحدار رغم الإحساس بالقوة القهرية نحو البلوغ والنضوج.

★★★

اليوم هو الأربعاء، فيه تفتح أبواب الزيارات للمساجين. وسيم ينتظر بفارغ الصبر زيارة زوجته. التقى زوجته، طمأنته عن أحوالها وأحوال أولادهما، مؤكدة له أنها تعمل خادمة لدى أسرة محترمة وأن لا مشكلة لديها. أبدى امتعاضه. لطالما كان معترضا على هكذا مهنة.

أخفت عنه تأجير ابنها بغرض التسول. هذا السر وراء سبب تحسن حالها وحال أولادها. بعد انتهاء الزيارة، غادرت عائدة إلى منزلها وفي طريقها صادفت (أسيا) ابنة جارتها، سلمت عليها وتبادلتا أطراف الحديث. أخبرتها أسيا أنها ذاهبة إلى وسط المدينة لتسليم بعض القماش إلى محل تتعامل والدتها معه في الخياطة المنزلية. عرضت وسيطة زوجة وسيم عليها فكرة الذهاب معها. رحبت ابنة جارتها التي تجاوزت العشرين من عمرها. بهذه الفكرة لعلها تسليها وتؤنسها في طريقها. انطلقتا وهما تتحدثان عن السر الذي أفشته أسيا لجارتها. لقد تقدم شاب من خارج الحي بطلب يدها. سألتها وسيطة إذا كانت تعرف ذلك الشاب. أجابتها بأنها لم تلتق به بعد ولكنها عرفت الكثير عنه عن طريق خالتها كون الشاب جارها.

— متى سيتقدم رسميا لطلب يدك؟

– ربما هذا الأسبوع أو الذي يليه.

– أنت موافقة عليه أم مازال لديك اعتراض؟

– أيجـدر بفتـاة في هـذا الزمـان أن تبـدي معارضتهـا لـزواج مـن شـخصا مـا؟!

– لماذا؟!

– من الجيد أن يكون رجل في حياتي يرعاني.

– أتظنين هذا سببا مقنعا للموافقة دون النظر في وجه العريس؟!

– كل فتـاة تحلـم. بـأن يحضـر إليهـا فـارس أحلامهـا ويخطفهـا ليخلصهـا. وليـس للفتـاة إلا زوج يحميهـا مـن أي لفيـح.

– كان الله في عونك، ووفقك الله، كل ما أتمناه لك التوفيق.

طـال الحديـث بينهمـا حتـى وصلتـا إلى محـل بيـع الملابـس المخيطة في المنـازل. سـلمت لتاجـر مـا أنجزتـه والدتهـا وقفلـت عائـدة مـع جارتهـا إلى حـي الصفيـح. بعـد تجـاوز وقـت طويـل مـن المشـي وعلـى بعـد شـارعين مـن حـي الصفيـح خلـف مدينـة السـكنية قيـد الإنشـاء، دخلتـا إلى الشـارع الأول الـذي هـو امتـداد للشـارع الثانـي. كانـت السـماء تهيـئ نفسـها لاسـتقبال الفـترة الأخـيرة مـن النهـار. وفجـأة ودون سـابق إنـذار، إنقـض عليهمـا سـتة مجهولـين وبلمـح البصـر، كممـوا أفواههمـا بأيديهـم وجروهمـا إلى مبنـى مهجـور. وتحـت التهديـد بالسـلاح الأبيـض وبمـاء النـار أجبروهما على السـكوت وقامـوا بتكبيلهما وكمموهمـا بربـاط علـى الفـم. أمـر أحـد المعتديـن رفاقـه بأخذهمـا إلى أقصـى المبنـى حيـث يتعـذر وصـول الأنـين أو الأصـوات المفترضـة إلى

المـارة مـع يقينهـم أن المـارة في ذلـك الوقـت لا يتواجدون بسـبب إشـاعة أطلقـت في النـاس وتناقلهـا الصغـير والكبـير أن ذلـك المبنـى مسـكون بالجـن. ليسـت هـذه المـرة الأولى الـتي يقـوم بهـا هـؤلاء بمثـل هـذا العمـل الشـنيع، بـل تعـودوا علـى مثـل هـذا. تمكنـوا مـن اغتصابهمـا وتصويرهمـا وتهديدهمـا بأنهـم سـيقومون بنشـر الصـور إذا بلغتـا عنهـم.

أطلقـوا سـراحهما وليتهـم قتلوهمـا. هـذا مـا كانـت تتمتـم بـه زوجـة وسـيم المُضرجـة بالدمـاء، كانـت الأكثـر مقاومـة وتعرضـت للتعذيـب. أمـا أسـيا، فصعقـت وفقـدت السـيطرة علـى نفسـها وسـلمت جسـدها بسـهولة دون مقاومـة، إلا في بـادئ الأمـر، لم تعـد تعـرف مـاذا حـدث لهـا، وأيـن هـي. أخذتهـا جارتهـا مـن يدهـا واسـتوقفت سـيارة أجـرة وطلبـت مـن السـائق إيصالهمـا إلى المستشـفى. هنـاك، دخلتـا قسـم الطـوارئ وقـام أحـد الأطبـاء بعلاجهمـا. ليلملـم جراح وسـيطة، تتوسـل لـه أن يسـترها بعـد أن عـرض عليهـا المسـاعدة وإخبـار الشـرطة. هنـا، فزعـت وسـيطة وهمـت بالهـروب مـن المستشـفى. لم تتحـرك أسـيا وتطـاوع جارتهـا بـل بقيـت جالسـة ونظراتهـا شـاردة، انفجـرت دفعـة واحـدة بالبـكاء والصـراخ كمـن فقـدت عقلهـا. يبـدو أن وعيهـا الباطـني أدرك الحقيقـة فقـط حـين سمعـت كلمـات الدكتـور وهـو يعـرض عليهـن المسـاعدة. أصبحـت مـن جديـد في مواجهـة عنيفـة مـع أشـخاص في عيونهـم الرغبـة الحيوانيـة الجامحـة، اختلطـت عليهـا المشـاعر ودخلـت في نوبـة بـكاء تصاحبهـا كلمـات متقطعـة وأخـرى مبهمـة. ااااه اااه يااااربـي، يااااربـي..... في لحظـة مـا، بداخلهـا شـعور بالخجـل والعـار والإهانـة والقلـق ولـوم جسـدها الـذي تسـبب بهـذا. تتفجـر غضبـا وبـكاء وهـي تنظـر إلى مـن حولهـا بشـك وتوجـس، التفتـت

بعينيها لتقع على وسيطة مصدر الأمان الوحيد بالنسبة لها ثم ترتمي في أحضانها، حاولت وسيطة تهدئتها وكذا الطبيب. طلب من الممرضات مساعدته لإمساكها ووضعها على السرير، ثبتوها وهي تبكي، حقنها الطبيب إبرة مهدئة. فكلما جمعت كلمة نسيت ما سبقها. فقدرة جمع الكلمات لتصبح جملا صارت مستحيلة، همت وسيطة بالخروج أخذت جارتها معها. لحقها الطبيب وقال لها أنه يعرف ضابط شرطة ولن يذكر اسمهما شريطة أن تحدد له مسرح الجريمة. أخبرته وسيطة بالمكان وأطلقت رجليهما بخطوات متسارعة لتخرجا من المستشفى وهي تكره كل شيء. الأضواء العمومية الناس والعمائر المشيدة، الشوارع المعبدة والسيارات وأضواءها وإشاراتها التي تجعل من الليل نجوماً صغيرة تتناثر على ما استطاعت من زوايا الأماكن. في مدخل الحي، شعورها بالقرف من الأتربة التي تعلق على حذائها وعلى أكوام الأحجار والقصدير، ضاق صدرها بكل ما يحيط بها سواء كان جماداً أو ممن يمشي على أربع أو على اثنتين، ترى كل شيء مسؤولاً عما حدث لها وعن تعاستها الخارجية وما تحمله في داخلها من وسخ تفكر كيف تتطهر منه، نظرت إلى السماء بنظرة خاطفة (ليت لي الموت دون هتك شرفي؟! ليته كان خليلي قبل هذا، أليس من حظ المسكينة أن تموت دون هتكها؟! بوسي لا يكفي حتى ألقى ما هو ألعن مليون مرة...)

بأسرع وقت ممكن. عادتا إلى الحي، أوصلت أسيا إلى باب منزلها وهي تحذرها بأن لا تتفوه بكلمة واحدة وأوصتها باختلاق الأعذار إن سألتها أمها عن سبب تأخرها. دلفت أسيا إلى منزلها

لترمق والدتها بنظرات غريبة وكأنها لا تعرفها. سألتها والدتها عن سبب شحوبها، فلم ترد عليها. أخذتها إلى مخدعها وجلست إلى جانبها محاولة الحديث إليها. لكن دون جدوى. غير أن أسيا جلست في زاوية سريرها تمشط الغرفة بنظراتها. تركتها الأم وخرجت محتارة ومتسألة عن أسباب تغير مزاج ابنتها. لم تعد أسيا تعلم لماذا هي جالسة على السرير وما الذي أتى بها إلى هنا. أين يكون هذا المكان. خيل لها بأنها تراه لأول مرة. ومن المرأة التي كانت معها في الخارج تحدثها؟ ومن التي جلست إلى جانبها قبل لحظات؟ انتابها شعور بالخوف، ممَ؟ لا تعلم، ألم وأنين، ممَ؟ لا تعلم، ما ذا حدث لها اليوم؟ لا تعلم، أين كانت؟ لا تعلم، شعرت بأنها تغرق وراحت تحاول النجاة بيدها. تعب جسدها من السباحة وتصبب العرق من جبينها. وبعد مجهود مضن للنجاة، غلبها النعاس وهي جالسة.

★★★

يوم سعيد جدا بالنسبة للشيخ أبو إيمان. اليوم وقع عقدا مع قناة تلفزيونية لنقل خطبة الجمعة مباشرة. عاد مبكرا لمنزله وأجنحة السعادة تتراقص في قلبه. فتح باب المنزل وخلع معطفه، تقدم خطوات ليبتسم في وجه زوجته صفاء. ظلت صامتة، تقدم منها، انحنى وطبع قبلة على شفتيها وقال لها: «اليوم وقعت عقدا لنقل مباشر لخطب الجمعة، ستشاهدينني كل جمعة، وجهك فيه الخير عليّ». حاولت أن تصطنع ابتسامة ومازالت خائفة، نجحت في تزييف نصف ابتسامة. انتصب الشيخ وشق طريقه إلى مكتبه، انتظرت هذه اللحظة لتمسح فمها من بقايا

لعاب زوجها كأنها أرادت اقتلاع شفتيها بُكم قميصها، تكشيرة لا إرادية نحتتها شفتاها وعضلات وجهها.

جلس الشيخ على طاولة مكتبه، فتح حاسوبه المحمول وأعطى أمرا للويندوز للعمل. في ثوانٍ دخل إلى جوجل وراح يبحث عن مواد ملفتة لخطبة الجمعة. قضى من الوقت أكثر من نصف ساعة، زاد اندفاعا وهو يقول في نفسه: «أحسنت أيها العم جوجل، أحسنت صنعاً» تصفح نشرة الأحوال الجوية جيدا، عاد للبحث في موقع آخر للتأكد من أحوال الطقس. ابتسم وضحك وهو يقول: «جيد، يوم السبت ستمطر السماء بغزارة. امممم، رائع».

وقف الشيخ أبو إيمان على المنبر بكل حضور شخصيته وطلاقة لسانه. كاميرات البث المباشر تعمل. تناول المواضيع التي أرسلتها وزارة الأوقاف والشؤون الدينية، وزاد عليها مواضيع وسطية، واختتم بالدعاء المعتاد. وزاد عليه دعاء الغيث وأطال في ذلك وتأثر هو كما تأثر المصلون جميعا وهم يتضرعون لله بسقيهم الغيث حتى شارف الشيخ على البكاء تضرعا.

★★★

كبيرة أحلام إبراهيم. لم تعد الدنيا تتسع لأفق الأحلام والتطلع للمستقبل. في هذه السن بالذات تغلبه الرغبات الداخلية، فهو في أوج جموحه، بدأ يدرك رحيل قطار التعليم عنه وأفاق فجأة على الجهل والأمية حتى أن عقله لا يفكر بالشكل الصحيح. جل همه بناء مستقبل زاهر ويتزوج، كيف؟ لا يدري. الرقي إلى أعلى السلم، كيف؟ أيضا لا يدري. لم يكد يمرّ لقاء مع حبيبته لمياء حتى

يشركها بالتفكير. ولكنها تتنعم في البؤس. فهي لا تعرف لنفسها طموحاً، بل المكوث مع من تحب. ربما لعلمها أن هذا الزمن ليس ملكاً لأمثال هؤلاء. الزمن ملك لأناس معينين يتحكمون بقواميس البشر وطريقة عيشهم. هذا ما سبب شرخا بسيطا في علاقتها مع إبراهيم وأرهقها إشراكا بما يدور في خلده. هي فتاة تريد أن تعيش اللحظة بما فيها، وهو شاب طموح يسعى إلى الوصول إلى أهداف يجهلها. توترت العلاقة بينهما هذا الأسبوع. أظهرت لمياء تذمرها من تصرفات إبراهيم البادية للجميع. تغير أسلوب حياته من البساطة إلى البحث عن المستوى مختلف.

بدا عليه الاضطراب التدريجي. ينتقل مابين اللحظة والأخرى بين المستقبل وبين الخوف من موروث الطفولة التي طالما تم ترديده على مسامعه وإلى الآن يُردد، الآلام الموت وعذاب القبر والشجاع الأقرع والنار. كلها شكلت لدى إبراهيم هواجس ازدادت مع الأيام الأخيرة بفعل علم اللسانيات والتي تكاثفت مؤخرا وزاد نشاطها عبر وسائل مختلفة.

ذات يوم قبل صلاة الظهر، كان إبراهيم في طريقه إلى عمله. التقى صدفة الشيخ أبو إيمان الذي لمع نجمه في سماء الدعوة وكان سابقاً من سكان حي الصفيح. استوقفه الشيخ وطلب منه مرافقته إلى المسجد. إبراهيم من ضمن القائمة المأمول منهم. هذه قائمة تسجل فيها أسماء أشخاص معينين ذوي مواصفات معينة يسهل استقطابهم. الاسم يضاف إلى القائمة بعد بحث معمق عن حياة الهدف يكلف بها أناس لا عمل لديهم سوى الاستقطاب. مرت مراحل لإبراهيم دون علمه وأتت أكلها. الشيخ مازال ينصح إبراهيم:

– ستضيء حياتك بنواميس الخير إذا لجأت إلى الله سبحانه وتعالى.

وهنا، أفصح إبراهيم عن تذمره من حياته:

– ضاقت بي وعورة الحياة ذرعا.

– لا تيأس من رحمة الله. متى آخر مرة زرت فيها بيت الله؟

أجاب إبراهيم بشيء من الخجل:

– منذ أكثر من أربعة أو ربما خمسة أشهر.

هنا، سنحت فرصة للشيخ لينطلق بحماس:

– وكيف تريد أن ينور الله طريقك ويهديك لسراط المستقيم وأنت لا تزور من خلقك في بيته؟! أنا على ثقة أنك ستقدم خدمات جليلة للإسلام لو أطعت ربك. إني أتوسم فيك شأنا عظيما.

– أأنت جاد يا شيخ؟

– تعال معي إلى المسجد وعدني أن تلتزم بصلاتك ولن تشقى إن شاء الله. إن الله مع المتقين. اتق الله ليكون معك. أنت شاب طيب ولن يتخلى الله عنك. سيغفر الله لك. ولو استمررت بالابتعاد عن المسجد، فهذه كارثة عليك. هل نسيت عقاب تارك الصلاة وأول شيء يحاسب عليه المرء في القبر هي الصلاة. خلق الله الشجاع الأقرع ليعاقب تارك الصلاة في القبر إلى يوم الدين.

– أنت تبعث الأمل في قلبي.

– لست أنا، بل الإيمان الذي ينتظرك.

أخـذه الشـيخ معـه إلى المسـجد وهـو يتلـو علـى مسـامعه محاضـرة طويلـة حتـى بلغـاهُ. طلـب منـه الذهـاب للوضـوء. وبعـد الصـلاة، توافـد المصلـون علـى الشـيخ للسـلام عليـه والتمـاس البركـة مـن يـده الطاهـرة.

كان إبراهيـم واقفـاً إلى جانبـه، ومـا أن خـرج الجميـع حتـى جلـس الشـيخ في المحـراب وأجلسـه قربـه، فقـال لـه مسـتقطبا:

- أنار وجهك بعد الصلاة، الإيمان غسل قلبك.

- الحمد لله يا شيخنا.

- قل لي يا إبراهيم، كيف عملك؟

- سـيء، سـيء جـدا (وهنـا راح يشـكو للشـيخ عملـه وكأنـه وجـد مـن يسـمع لـه...) ضـاق صـدري مـن وضعـي، كرهـت حياتـي، أيامـي كلهـا جحيـم.

ربت على كتفيه وهو يقول:

- لا تقـل مثـل هـذا. الله معـك، أنـت شـاب مؤمـن بالقضـاء والقـدر خـيره وشـره. لا تيـأس مـن رحمـة الله. أنـت ابـن حـلال، ألم أقـل لـك ذلـك، «ومـن يتـق الله يجعـل لـه مخرجـا ويرزقـه مـن حيـث لا يحتسـب». لأنـك لجـأت إلى الله فقـد قـدر لـك رزقـك وربمـا أكـون أنـا السـبب.

سأله إبراهيم باستغراب:

- كيف ذلك؟!

- سـأطلب مـن أحـد الإخـوة المباركـين تعليمـك مهنـة بيـع الكتـب

والمقتنيات الإسلامية من الأشرطة والعطور والأسوكة تبيعها أمام المسجد. المكسب جيد. هذه تجارة مربحة في الدنيا والآخرة تنفع المسلمين وتبيع بالحلال وتحافظ على الصلوات.

بلهفة وفرح، أمسك بيد الشيخ المباركة وهو يقول:

- سلمت يداك يا شيخنا. إن شاء الله أكون عند حُسن ظنك.

وقف الشيخ طالبا منه الانتظار حتى يعود. خرج من المسجد وبخطوات متثاقلة يملأها الكبرياء والعظمة بثوبه الأبيض الفضفاض وعمامته، دلف إلى غرفة حراسة المسجد وأمسك بيد حارس ومؤذن المسجد عتيق..، جره خلفه إلى فناء المسجد وقال له بصوت هادئ خوفا من أن يسمعه أحد:

- إبراهيم داخل المسجد عامله برقة وإحسان ونفذ له مطلبه وأشعره أنه شخص مهم. وفر له بسطة من الكتب والعطور الإسلامية، وساعده على البيع والكسب السريع.

- أمرك يا شيخ.

دخلا إلى المسجد حيث كان إبراهيم في الانتظار. وقف ومد يده بالسلام على عتيق، وقال عتيق وهو يسلم عليه:

- ما شاء الله، وجهك عامر بالإيمان، أنار المسجد.

- هذا لطف منك يا أخ...

- عتيق... اسمي عتيق.

- وأنا اسمي إبراهيم.

تدخل الشيخ قائلا لإبراهيم:

- الأخ عتيق مؤذن المسجد وحارسه أيضا، (استدار بوجه نحو عتيق وهو يقول...) إبراهيم من خيرة شباب حي الصفيح. إنه متميز ومهذب وأريدك تعليمه بيع الكتب والعطور والأشرطة الإسلامية أمام المسجد. أريد أن يكون له الفضل في هداية القراء والمستمعين لأمور الدين وينال مكسبا جيدا من ذلك. وفر له كل المتطلبات بالأجل. كلما يبيع، يسدد ما عليه حتى ينال الخير.

- تحت أمرك يا شيخ، إبراهيم في القلب.

فرح إبراهيم وسُر لهذا المعروف. خرج برفقة عتيق إلى مكتبة إسلامية في قلب المدينة ليضمنه عند التاجر. وفر له جميع مستلزمات تجارته. بدأ إبراهيم عملاً جديداً خفف عنه مشقة العمل المضني وراح يستشعر الرزق بعد مرور الأسبوع الأول.

★★★

عند فترة الغداء، جلس عبد الحميد وزوجته وابنه إبراهيم على الأرض حول المائدة. الوجبة بسيطة من الحساء مع الخبز وسلطة الطماطم والبصل.

شرعوا بتناول وجبتهم، وفجأة وصل إلى مسامعهم صراخ امرأة أمام الطريق المؤدي إلى عمق الحي. تركوا أكلهم وخرجوا جميعا. خرج كل من سمع الصراخ والنحيب، ليجدوا (سلمى) بلباسها المنزلي تنثر شعرها وتشده وهي تصرخ وتبكي على قارعة الطريق، وكذلك أولادها أمام باب المنزل. اقترب عبد الحميد منها ومن يعقوب الذي كان يحاول الاستفسار منها عن سبب نحيبها.

وقف الجميع من حولها، يسألونها عن سبب كل ما تفعله بنفسها. سقطت على ركبتيها وراحت تجوب بنظرها نحو الجميع وتقول:

— سالم.... آه يا سالم .... (تصرخ).... سالم....

الجميع يسألونها: ماذا حدث لسالم؟!

— سالم.... سالم، تركني مع أربعة أطفال.... سالم انتحر.... (تميل بجسدها يمنة ويسرة وهي تتنهد بحشرجة تقطع داخلها وتصرخ..) آه يا سالم..

الصدمة كبيرة على الرجال والنساء. هل وصلت الحالة إلى هذه المرحلة؟ ينتحر!!! سابقة خطيرة، أول مرة يحدث ذلك في الحي.

تدخلت النساء ليحملنها إلى منزل يعقوب وهرع الرجال إلى المنزل وجمعوا الأطفال فوجدوا (سالما) ملقى على الأرض ورأسه نحو اليمين. يخرج من فمه سائل أبيض مع فقاعات الهواء. غطوا الجثة ببطانية ليتم اتخاذ الإجراءات في مثل هذه الحالة.

أمر عبد الحميد ابنه باصطحاب الأطفال إلى منزله. عمت الفوضى الحي. الجميع في حالة صدمة. لا أحد يعرف سبب الانتحار إلا زوجته التي فقدت الوعي للتو. أخذت لمياء قدرا من الماء وصبت قليلا منه على رأسها ووجهها. نحبت بصوت مشحوب ودموع لا مستقر لها:

— لماذا يا سالم؟! تتركني مع أربعة أطفال، لماذا؟! (تئن ثم تتابع...) كيف سأعيش؟ وكيف سيعيش أولادك؟! كترنا عليك يا سالم؟!

وبعد فترة طويلة من محاولة تهدئة الأم المترملة على أربعة أطفال، أفصحت لمن حولها أن زوجها لم يستطع توفير احتياجات

البيت. وبالأمس، لم يكن طبيعياً حين وصل الهم في قلبه ذروته، فظل عاجزا عن شراء أدوية مهدئة لآلام ابنته الوسطى المصابة بمرض تكسر الصفائح الدموية.

هذا اليوم الأسوأ منذ زمن طويل على الحي. لم ينم أحد، لم يأكل أحد، وتحول المكان إلى مجلس عزاء. جمعت التبرعات، كلٌّ حسب قدرته لمساعدة هذه الأسرة. كان ما جمع قليلا جدا لا يفي بالطلب. لذا، لجأ إبراهيم إلى الشيخ أبو إيمان طلبا المساعدة من أهل الخير في منبر المسجد.

★★★

القليل من التجار المواظبين على أداء الزكاة يثقون في رشيد. ففي نهاية شهر رمضان، يستعينون به ويسلمونه الزكاة ليوزعها على أشد الأسر فقرا في حي الصفيح وما شابه. يوزعها ويرفض أن يأخذ لنفسه حتى ولو قدم له رغم فقره. لديه قناعة أن هناك أسراً تعاني وليس لديها من يعولها. فهو يؤمن بأن الاستجداء مع القدرة الجسدية على العمل يتنافى تماماً مع القيم. فيه عزة نفس لا تضاهى. يتباهى بها أمام كبر أخيه الناظر إليه بعين البائس المسكين.

لولا وجود أمهما زينب حاليا في منزل رشيد، لما جاءه عادل وقدم له القليل من المال وكأنه عابر سبيل. كل تصرفاته يقابلها رشيد بعفوية تامة. لم يظهر حقدا تجاه أخيه سواء في الباطن أو الظاهر. يقف رشيد أمام والدته مترافعا عنه لعلها ترضى عنه. يحثها على الدعاء له مختلقا الأعذار والأسباب لغيابه المطول، حيث لا يزورها في الوقت الراهن إلا كل شهر ونصف. رشيد قدم

لـه النصائـح مـرات عديـدة حـول واجبـات الابـن تجـاه الأم، إلا أن عـادلا فهـم ذلـك حسـب ميولـه واعتقـد هـو وزوجتـه أن أخـاه قـد مـل وجـود أمـه وأنـه متذمـر مـن ذلـك وكأنـه يلمـح لعـادل أن يعيدهـا إلى منزلـه. وهـذا مـا لم يكـن في حسـبان رشـيد.

رشـيد يعيـش حيـاة مختلفـة تمامـا عـن الآخريـن. فقـد اتخـذ طريقـا جعلـه أكثـر سـعادة وهـو مسـاعدة الآخريـن حسـب قدرتـه وأحيانـا يجهـد نفسـه فـوق طاقتـه لمـد يـد العـون. يعتـبر إنقـاذ الآخريـن مـن المواقـف الصعبـة والوعـرة عمـلاً إنسـانياً وواجبًـا دينيًـا يتحتـم عليـه الظهـور في الوقـت المناسـب ليكـون سـندا لمـن لا سـند لـه.

وكـم يكـون سـعيدا إذا عـاد مـن مـكان يتوجـب عليـه أخلاقيـا أن يكـون متواجـدا فيـه. وليـس أحـب إلى قلبـه مـن الذهـاب إلى وحـدة الـدم في المستشـفى الحكومـي للتـبرع أو إرسـال ابنتـه محملـة بقِدْرَ فيـه بعـض مـن طعـام العائلـة إلى جـار سمـع أنـه لا وجبـة لديـه هـذا اليـوم. قـال يومـا لزوجتـه الـتي علمهـا أخلاقـه: «كميـة الخبـز الـتي نأكلهـا لـن تزيـد إذا مـا كنـا أغنيـاء أو فقـراء. ومادمنـا في صحـة جيـدة، فهـذه نعمـة في حـد ذاتهـا وهبهـا الله لنـا».

إذا التقـى مـع أخيـه، يظهـر للأعيـان الفـرق الواضـح بينهمـا. عادل الشـاكي الباكـي مـن صعوبـة الحيـاة والعمـل رغـم تيسـر حالتـه الماديـة. ورشـيد العابد الحامد السـعيد بما أتاه الله. ذلك مكشـر محبط. يومه كله نكـد وغضـب. والآخر مبتسـم، متفائل. يومه كله سـعادة ورغد وبشاشـة.

★★★

كالعـادة، جلـس الأسـتاذ مسـعد يتصفـح الجريـدة في غرفـة اسـتراحة المدرسـين. كل يـوم يشـتري الصحـف ويقرأهـا ويعـترض علـى كل شـيء سـوى صحـف الحـزب الحاكـم أو المعارضـة. لم يُعجـب يومـا بـأي منهمـا. وقـع نظـره علـى عنـوان مقالـة (رئيـس وزراء اليابـان يسـتقيل مـن منصبـه بسـبب تدنـي شـعبيته في آخـر اسـتطلاع للـرأي).

صرخ:

— أيـن نحـن مـن هـؤلاء؟! للتقـدم ثمـن، هـذه هـي الديمقراطيـة، هـذه هـي الشـعوب الحيـة!!!

فكلمـا وجـد أسـتاذا، أجـبره علـى قـراءة المقـال. وإذا رفـض أحـد القـراءة، يوجـه لـه الأسـتاذ الانتقـاد ويشـن عليـه حملـة إعلاميـة في المدرسـة، متهمـا إيـاه بكونـه معيـق التقـدم والازدهـار. هنـا، الجميـع يخافـون لسـعات لسـانه ويفعلـون مكرهـين ما يطلـب منهم. هذا الأسـتاذ غريـب الأطـوار، عجـز الجميـع عـن إيجـاد صفـة مناسـبة تنطبـق عليـه وعلـى مزاجـه المتقلـب وعلـى لسـانه المعـارض لكافـة أشـكال الحيـاة. ليسـت هـذه أول مـرة. فـكل يـوم، يمـرّ بالجريـدة الـتي تنشـر خـبرا غريبـا علـى هيئـة التدريـس ويصبـح الخـبر عنـوان موضوعه ليومـه ذاك.

استوقف الأسـتاذ فتحـي. قـرأ المقـال. ضحـك وعـبر عـن اسـتغرابه. وهنـا، بعـث الأمـل في قلـب مسـعد، ومـا زاد سـروره وصفـه مـن قبـل فتحـي بأنـه رمـز وطـني وبأنـه مواطـن صـالح وغيـور. ومكافـأة لـه، دعـاه لتنـاول الشـاي علـى حسـابه. لبـى الدعـوة.

جلس كل منهما مقابل الآخر، طلب مسعد الشاي، ثم قال:

- رئيس وزراء يستقيل بسبب تدني شعبيته في استطلاع لرأي لا يزيد عدد المستطلعين فيه عن ثلاثة ألف شخص. ونحن العرب......

- أنا أنأى بنفسي على أن أخوض في المواضيع السياسية.

غضب الأستاذ مسعد وقال معاتبا:

- بعد أن دعوتك لترتشف معي الشاي وعلى حسابي الخاص إكراما لحسك الوطني، تقول هذا الكلام؟!

- لا أقصد أني لا أريد الحديث في هذا الموضوع. فجل ما أقصده أن الخوض في مثل هذه المواضيع يسبب لي الزكام.

ضحك الأستاذ مسعد وقد سمع للتو ما كان يريد. وبعد عدة رشفات من الشاي، تذكر الأستاذ مسعد ما كان يريد أن يحدث زميله بالأمس:

- ما رأيك بالانضمام إلى جمعية الأساتذة البؤساء؟

- جمعية الأساتذة البؤساء؟! (مستغربا) وما دورها؟

- نتبادل فيها الملابس البالية.

- وكيف ذلك؟!

- تحضر أجمل ما لديك من الملابس ليلبسها زملاؤك، ويعطونك ما لديهم لنظهر بمظاهر جديدة وأنيقة كل يوم. مثلا، اليوم ارتديت قميص زميلي ذا اللون الأصفر وهو ارتدى قميصي، فظهر هو أمام الطلاب باللباس جديدا وكذلك أنا.

- وما المقصود؟! ومن يقبل أن يرتدي ملابسك التي تشبه ملابس

مجنـون أوروبـي في القـرن الرابع عشـر؟

– لهـم الشـرف أن يعـودوا إلى عبـق التاريـخ مثلـي. بصراحـة، أكتفـي معهـم بتبـادل القمصـان. المقصـود يـا زميلـي العزيـز وأخـي في البـؤس. أن يلبـس الأسـتاذ طـوال الأسـبوع أشـكالا مختلفـة للظهـور أمـام الطـلاب بمظهـر لائـق. بمـا أنـي أمتلـك أربـع قطـع سـيصبح شـكلي ممـلا. أمـا وبعد تأسـيس هـذه الجمعيـة المتواضعة، فـكل يوم يلبـس الأسـتاذ ملابـس تبـدو جديدة علـى الطلاب. فليـس مقبولاً أن تظهـر أمـام الطالـب ببـؤس وضعف. بتاريخـي إن الأسـتاذ يهان من بعـض الطـلاب، مـن هيئتـه ينُظـر لـه بعـين النقـص، أصبحنـا كمـا يقـال (قطعـة أسـتاذ). وكأننـا قطعـة قماش يمسـح بها بقايـا الناس.

– فهمت.

– نحـن معشـر المدرسـين لا نقـدر علـى شـراء الملابـس، راتبنـا الشـهري لا يكفـي، عامـل النظافـة يتقاضـى راتبـا مقاربـاً لراتـبي. والفـرق بيـني وبينـه أنـي لا أملـك دخـلاً آخـر. أمـا هـو، فيحصـل علـى الأكل وبعـض المـال مـن المحسـنين.

تنهد الأستاذ فتحي وقال:

– قدرنـا أن نعيـش هكـذا نحـن صنـاع مجـد رجـال المسـتقبل. غـدا، سـأحضر أجمـل مـا عنـدي مـن ملابـس.

مد الأستاذ مسعد يده ليصافح زميله بحرارة وهو يقول ساخرا:

– مرحبـا بـك في جمعيـة البؤسـاء. مربـي أجيـال وبائـس (وكأنـه يعـرف نفسـه لزميلـه).

- وأنا بدوري أطلق عليها اسم «جمعية الطبقة المسحوقة».

- نحن أصحاب رسالة يا صديقي. فلولانا ما تقدمت الشعوب.

نظر الأستاذ فتحي إلى ساعته وجد أن الوقت المتبقي ثلاث دقائق حتى تنتهي فترة راحة الطلبة، ومن ثم عليه التواجد بداخل الفصل. وقف واستأذن زميله ليذهب إلى عمله. استوقفه الأستاذ مسعد ليدعوه إلى الغداء في منزله غدا ليعرفه على جد جد والدته، تعجب فتحي قائلا:

- جد جد أمك!

- نعم، مومياء هربت من المتحف (قالها مازحا ليستدرك قوله ويتابع...) أطال الله عمره. إنه معمر. رزقه الله العمر وحرمه الثروة. أعتقد أنه من كبار المعمرين في هذا البلد.

- سيكون لي الشرف بالتعرف إليه.

- إنه رجل حكمة وتاريخ.

★★★

قبل الغداء، توجه الأستاذ فتحي إلى منزل صديقه ملبيا الدعوة وكله شغف ولهفة للقاء «الحاج صديق». أطلق عليه (اسم حاج) لكبر سنه مع أنه لم يزر مكة إلا مرة واحدة بغرض العمرة قبل أكثر من ستين سنة.

طرق فتحي الباب. فتح له زميله ورحب به، أدخله صالة

الاستقبال المتواضعة. لم يكترث لمحتويات الغرفة لأن زميله أستاذ. وهذا يعني أنه (على قدر الحال). عرّفه مسعد بجده الذي يسمع بواسطة سماعة الأذن. رحب به الحاج صديق، تصافحا وقال مسعد لزميله قاصدا المزاح وهو يشير بيده نحو جده:

- هذا هو جد جد أمي. مازال شابا. لقد عرضت عليه أن أزوجه لكنه رفض. فقاطعه الحاج صديق بتوجيه ضربة بعصاه نحو ساق مسعد. تدارك نفسه وسحب قدمه في الوقت المناسب لتقع العصا على الأرض، هو يعرف طباع جده المنبعثة من روح المرح وكأنه مازال طفلا. والحديث للحاج مقاطعا محدثه:

- أنا رفضت يا كذاب. طلبت منك أن تزوجني أكثر من مرة. ألا ترى (يرفع يديه كمن يرفع الأثقال ليثبت أنه مازال في صحة جيدة) أتمتع بصحة جيدة.

ضحك فتحي وجلس إلى جانب الحاج صديق، والأستاذ مسعد يمدح جده:

- جدي تاريخ وتراث. إنه متحف متنقل.

قال فتحي:

- لي عظيم الشرف أن أتعرف عليه.

قطعت زوجة مسعد الحديث بطرقها على الباب. ذهب إليها زوجها. طلبت منه الذهاب لشراء مشروب غازي. خرج من المنزل إلى مقصده ليترك زميله والحاج يتبادلان أطراف الحديث وكأنهما قد سبق لهما والتقيا، يتحدثان ويضحكان.

«ما هذا المرح لدى الشيخ الطاعن في السن؟! أعتقد أن المرح سبب له طول العمر والصحة الجيدة». هذا ما قاله فتحي لنفسه. والحاج صديق يضحك ضحك الأطفال، يتحدث بسلاسة، وحبكة في سرده التاريخ مستحضرا الماضي ليضعه نصب عيني فتحي. شيخ يتمتع بصحة لابأس بها وبذاكرة مذهلة. عيناه تدمعان بشكل مستمر. لم يمنعه ذلك من أن يصدر نورا إلى قلوب الحاضرين وأن يبعث الأمل إلى الحياة من وجهه الطفولي العذب المكسي بلحية بيضاء ناصعة وكأنها واحة من الثلج. إنه مؤرخ شفوي. صدق مسعد عندما قال إنه نافذة على التاريخ.

أعجب الأستاذ فتحي بهذه الشخصية المعاصرة لأجيال. وبعد الحديث لدقائق عن شكل المدينة قبل عشرات السنين، راح الأستاذ يسأل والحاج يجيب. أراد أن يعرف أكثر عن الماضي:

- ما هو الأفضل في رأيك يا حاج، الحاضر أم الماضي؟

ها هو يعود عقودا إلى الوراء ويهز رأسه بأسف ثم يقول متمنيا:

- ليت الماضي يعود. (تنهدات الحاج).

- أكان أفضل من يومنا هذا؟

- حكمة الله أن الماضي دائما أجمل. عندما كنت صغيرا، قيل لي إن الماضي أجمل في تلك الأيام الخوالي. وها أنا أقول ما قيل لي عن تجربة.

- لكننا في عصر التكنولوجيا والتقدم العلمي يا حاج.

– قل عصر التخلف والانحطاط.

– التخلف...

– الانحطاط يابني أكثر من التخلف. قبل تسعين سنة، كنت أتخيل الفتاة ولا أعرف إلا أمي وعماتي وخالاتي. ومضت سنوات حتى رأيت وجه أول فتاة وهي زوجتي رحمها الله. أما اليوم، فالنساء يملأن الأرض. تراهن في الشارع وكأنهن في غرفة نوم مع أزواجهن. أصبحت النساء أكثر مما تتوقع. عندما قرر والدي رحمه الله أن يزوجني، ظل هو ووالدتي رحمها الله يبحثان لي عن زوجة لمدة عامين. كانت النساء نادرات. مثلهن مثل الدولار في يد الفقير هذه الأيام.

– هذا بسبب التقدم العلمي للطب، لقد انخفض معدل الوفيات.

– من قال لك ذلك؟!

– هذا واضح يا حاج.

– أنت مخطئ! الوفيات اليوم أكثر من الماضي. عرفنا أمراضا لم تكن موجودة وعرفنا فقرا لم يكن مألوفا لدينا. في الماضي، كان الشعب فقيرا لكنه يأكل مما يزرع والرحمة كانت في قلوب البشر. الجار يعطف على جاره، والأخ يطعم أخاه. أما اليوم، فالجار يأكل لحم جاره والأخ يتمنى زوال أخيه من على وجه الأرض. أي زمن هذا؟! انتهك فيه العرض ولا من مغيث. نحن يا بني في زمن كل شيء فيه مقلوب.

رد عليه الأستاذ فتحي بشيء من الأمل:

— مازالت فرص الأمل قائمة في ظل العلم. والخير في هذه الأمة إلى آخر الزمان.

ضحك الحاج بسخرية وهو يقول:

— تجاوزت السنة الثالثة بعد المائة (يهز رأسه ساخرا) وأنا أنتظر الخير متمسكا بخيط الأمل، ولم يأت. عاصرت حكومات لا عدد لها، فلم أر شيئا يُسعد القلب. خذ نصيحة من معاصر له رجل في الدنيا والأخرى في القبر، لا تأمل خيرا.

— من حقي أن آمل خيرا.

— لن تجده لأن الناس تغيروا وأصبحوا وحوشا. وسأثبت لك ذلك.

— كيف؟!

— كانت المودة والرحمة سائدتين بين الناس. بعكس أناس اليوم. كل واحد يحاول ابتلاع الآخر مهما كان حجمه. الناس قبل عشرات السنين كانوا يخافون الله ويحبون التقرب منه. تصور هناك أرض في وسط البلد، قبل أكثر من ثمانين سنة أوقفها ملاكها لطيور الحرم المكي. أنت ابن اليوم لا تعرف ما معنى (وقف). كان الخيرون يوقفون الأراضي لله سبحانه وتعالى. منهم من يوقفها للنفقة على طلاب العلم. ومنهم من يوقفها لإنشاء مساجد. والوقف يتم بالتنازل عن ملكية الأرض لهيئة العدل حيث لا يحق لأحد أن يتصرف بها إلى أبد الآبدين فقط تؤجر أو تُزرع لصالح من أوقفت من أجله. ولا يجوز تملكها. فقط يُبنى عليها مقر لطلبة العلم أو مسجد أو دار

أيتـام. وطيبـة النـاس وصلـت إلى وقـف أراضـي لتُـزرع وتُحصـد حبوبهـا لإطعـام طيـور مكـة. يرسـلونها عـبر قافلـة إلى مكـة في نهايـة موسم الحصاد. انظـر إلى أيـن وصلـت طيبـة قلـب الإنسـان القديـم؟! إلى حـد التفكـير بطيـور مكـة. والآن، أيـن هـي تلـك الأراضـي وهـي كثـر لا عـدد لهـا؟! بـني عليهـا. هـذا حـرام! إنـه نهـب لأمـوال الله لأنهـا وزعـت كهبـات وبيـع الكثـير منهـا.

— لا أخفـي عليـك يـا حـاج. لم أسمـع بقصـة وقـف لطيـور مكـة إلا اليـوم منـك.

— ها أنت قد سمعت، رجال الماضي كانوا متمسكين.....

فجـأة، قطـع حديثهمـا الأسـتاذ مسـعد بدخولـه مـن بـاب المنـزل حامـلا المشـروب الغـازي وهـو يقـول:

— أطلـت عليكـم، اعذرونـي. المحـل المجـاور لمنزلـي أمـره غريـب. تصـوروا أنـه يوصـل الثلاجـة بالكهربـاء في أيـام الـبرد ودائمـا نتذمر مـن بـرودة المشـروبات والعصائـر ولا توصـل بالكهربـاء أيـام الحـر ونتذمـر مـن سـخونتها. هـذا مـا دعانـي لأقطـع مسـافة لأشـتري مشـروبا بـاردا مـن محـل آخـر...

الأسـتاذ مسعد يتحـدث وزميلـه ينظـر إليـه بـازدراء وكأنـه لسـان حالـه يقـول: لقـد أتيـت في وقـت غـير مناسـب، لـو تأخـرت قليـلا حتـى أسمـع التاريـخ مـن هـذا الحـاج.

ومضـى الأسـتاذ مسـعد ينتقـد جـاره البقـال. ولـولا إشـارة مـن زوجتـه لتعلمـه أن الغـذاء جاهـز، لظـل سـاعة يلـوك الحديـث نفسـه.

جلسوا إلى المائدة وشرعوا يأكلون. وكلما تحدث مسعد، أشار إليه زميله بالسكوت حتى يتسنى له سماع جده وحكاياته الشيقة. وبعد انتهائهما من وجبة الغداء، جاء وقت التحلية. قدم مسعد لهما الشاي والكعك. أخذ الأستاذ فتحي كعكة وقضمها ليجدها طيبة المذاق. هز رأسه مستحسنا ولم يستطع إخفاء إعجابه بالنكهة الممتازة ليقول:

- طعم مذهل!

رد عليه الأستاذ مسعد:

- اشتريته من البقالة.
- إنه شبيه بالكعك المنزلي.
- إنه صنع صيني.
- ماذا !!! أمر لا يصدق!!!
- تصور أن سعره أقل تكلفة من ذاك الذي يصنع في المنزل، (بسخرية وكأنه يتعمد الفكاهة يرفع صوته ليسمع من في المنزل) الحلواني الصيني أمهر من زوجتي.

وصلت هذه الكلمات إلى مسامع زوجته، قالت متذمرة في سرها: «مجنون، هل يوجد عاقل يسخر من زوجته أمام الضيوف؟!»

وفي نفس اللحظة، كان فتحي قد رد قائلا:

- أصبحنا عالة على الصين (باستغراب واستهجان يتابع) حتى الكعك، ماذا تبقى؟! حتى الحلويات التقليدية!! علينا أن نخجل من أنفسنا.

بعد صمت دام لثوان لم يتكلم بها الحاج ، كسر هذا الجليد بضحكة استهزائية وهو يقول:

- ألم أقل لك إن المستقبل مظلم؟!

رد عليه الأستاذ فتحي:

- أقولها بملء الفم. أنت على حق يا حاج.

قال الحاج متنبئا بالمستقبل:

- أخشى ما أخشاه أن تحتلنا الصين. حينها، لا مقاومة ولا هم يحزنون. لو جندت الصين المحكومين بالإعدام في سجونها، لاحتلوا العالم العربي من شرقه إلى غربه.

قال الأستاذ مسعد مازحا:

- أخشى يا جدي أن تطور الصين تكنولوجيا تحويل المجاري إلى نفط. حينها، لا نفط عربي يستخرج ولا مجاري العرب لها أماكن تجميع، وسنموت من الجوع..

(ضحكوا جميعاً وزاد الأستاذ مسعد من تهكمه...) ويلاه... تخيلوا الصين والهند مجاري شعوبها يتم تحويله إلى نفط. حتما، سيكفي احتياجات العالم والبرميل سيكون سعره بخمسة دولارات.

قال الأستاذ فتحي بجدية:

- خطر الصين أعظم خطر. العالم كله يعيش على كتف الصين. لا شيء يخطر على البال ولا تصنعه أو تخترعه.

قال الأستاذ مسعد موضحا ما طرحه زميله.

- يـا صديقـي! الصناعـة الصينيـة بـلا ملـة ولا ديـن. أي منتـج صيني خطـره لا يقـل عـن خطـر الأسـلحة الجرثوميـة. اشـتريت لابـني هيثـم حـذاء مصنوعـاً في الصـين. ارتـداه لعـدة أيـام، انتفخـت قدمـاه وأصيـب بحـروق. قـال الطبيـب إن سـبب الحـروق الأحذيـة الصينيـة لأنهـا مصنوعـة مـن مخلفـات الصناعـات البلاسـتيكية ممزوجـة بالصبغـات والمـواد الكيميائيـة ليتـم تحويلهـا إلى جلـد صناعـي. تتسـرب منهـا سمـوم تتسـلل عـبر مسـامات الجلـد إلى جسـد الإنسـان. وصـف لـي دواء اشـتريته بثمـن سـتة أحذيـة.

قال الأستاذ فتحي موضحا:

- أليـس المجـرم هـو التاجـر المسـتورد وموظفـو الجـودة والمقاييـس؟ لمـاذا يقبـل المسـتورد علـى اسـتيراد البضائـع المغشوشـة؟ أتعجـب، لا يأكلـون لحـم الـكلاب والقطـط عنـد ذهابهـم للصين ولا يأكلـون الدجـاج غـير المذبوحـة علـى الطريقـة الإسـلامية. يبحثـون عـن الطعـام الحـلال، ويسـتودون مـا هـو مغشـوش وحـرام.

نصح الحاج صديق:

- اشتروا الصناعات المحلية.

عقب الأستاذ فتحي:

- إنهـا تـكاد تكـون معدومـة يـا حـاج. كذلـك المنتجـات الغربيـة الأخـرى. لا توجـد في الأسـواق إلا الصناعـات الصينيـة الـتي تدخل إلى البلـد دون رقابـة تذكـر.

قال الأستاذ مسعد:

– الصناعة الصينية بلا ملة، والتاجر المستورد بلا دين ولا ضمير.

قال الأستاذ فتحي:

– هناك تقصير حكومي في هذا الجانب، مع أن الدول المتقدمة واقعة في نفس المشكلة إلا أنها تفرض رقابة شديدة على المنتجات الصينية. والقانون لا يرحم المستوردين، إنه القضاء العادل.

قالها الحاج صديق:

– ادعوا الله أن يلطف بعباده نحن في آخر الزمان. الله يعينكم على بلاء هذا الزمان. أما أنا فعلى وشك الرحيل.

رد عليه الأستاذ مسعد وزميله بصوت واحد:

– أطال الله عمرك...

★★★

«صفاء، لقد تأخرنا، سيفوتنا موعد الغداء». هكذا نادى الشيخ أبو إيمان زوجته.

عزمت سوسن أخاها الشيخ وزوجته على الغداء لهذا اليوم. صفاء ثقيلة في تجهيز نفسها، يحاول زوجها استعجالها، يتدخل ليساعدها في ربط النقاب ويتفحص لبسها الشرعي بحيث لا تظهر للأعين سوى عينيها. حتى يداها فقد لبست قفازات سوداء. خرج وهي تتبعه، خطواته أكبر من خطواتها. يمشي، تتبعه لعلها تسير بجانبه، يأمرها أن تبقى خلفه. فعادة، الرجل الشرقي وخاصة المتدين يكره إمساك يد زوجته في الشارع، يتقدم لقطع الشارع وهي خلفه، عبر جزءا من ممر الراجلة، ارتبكت صفاء

وخافت من السيارة القادمة وتراجعت للخلف. أمسك بها أحد المارة بيدها كي لا تصدمها السيارة. التفت الشيخ للخلف، شاهد الموقف، عاد بغضب، فقال له الرجل «أمسك بيد ابنتك عند عبور ممر الراجلة فحوادث السيارات كثيرة». نظر في وجهه نظرة الغاضب وأمسك بيد صفاء بعنف وجرها نحوه. قضى وقت غضبه بلعنها وتعنيفها لغويا حتى وصل لبيت أخته سوسن. حاولت سوسن تهدئته إلا أن ذلك لم يغير من مزاجه المتعكر لوصف صفاء بابنته، كم تمنى أن لا تسمع زوجته هذا.

واجهت صفاء الحدث ببكاء متواصل دون أخذ و رد معه. سألته سوسن: ما ذنب صفاء بما حصل؟ أجابها أنها تتلكأ عند المشي. فقالت له إنها مازالت طفلة وكيف لها أن تتصرف تصرفات الكبار؟ وعليه أن يطول باله معها. هنا جن جنون الشيخ وانتابته نوبات الغضب وأخذ زوجته دون تناول وجبة الغداء وقفل عائدا إلى المنزل. ولم يغير اعتذار وتبريرات سوسن من الوضع أنها لا تقصد ازعاج أخيها الشيخ.

★★★

حان وقت اجتماع قرره رئيس مجلس إدارة الشركة (السيد جاسر نبيل). توافد كبار موظفي الشركة إلى القاعة. بدأ الاجتماع في الوقت المحدد له سلفا. اجتماع لا يسمح فيه لأي موظف إبداء رأيه أو الاعتراض. في قاعة الاجتماعات الدكتاتورية ترأس حرية الحوار، طاولة طويلة يجلس على الجانبين كبار الموظفين. أما الرئيس، فيجلس ما بين الجانبين، يتحدث ولا أحد يجيب سوى: (تحت أمرك سيدي، فكرة مذهلة، سيتم التنفيذ فورا.)

تحت سحب من الدخان المطلق من فم جاسر، قال بصوت أجش موجها رأسه باتجاه المحامي:

- كل شيء على ما يرام؟

- نعم.

حرك رأسه للجهة أخرى مخاطبا مدير مكتب التطوير والتحديث:

- أرى أن الوقت مناسب للظهور الإعلامي. هذا العصر يختلف عن العصر الذي عشته. إنه زمن الإعلام. قم بتشكيل لجنة من مكتبك والعلاقات العامة والشؤون القانونية والمكتب التنفيذي لدراسة وإنشاء أربع قنوات فضائية غنائية مع التعاقد مع شركات الاتصالات. هذا زمن الرسائل القصيرة. ويتم إبلاغي بموعد انطلاق البث. هذا فيما يخص التلفزيون. أما الأمر الأهم، فهو البدء فورا بتأسيس جريدة يومية باللغة العربية والأخرى باللغة الإنجليزية. وحبذا لو يعمل معنا أبرز الصحفيين، أريد نجاح الوسائل الإعلامية التي نسعى لإطلاقها. ظهور متميز مع إتقان في هذا المجال. أهذا واضح؟

منهم من قال:

- أمرك سيدي.

ومنهم من قال:

- سيتم التنفيذ فورا.

أمر جاسر للجميع:

– لا أريد عقبة تواجهكم. انتهى الاجتماع.

وقف الجميع وهموا بالخروج، فأمر جاسر وهو ينظر نحو المحامي:

– ظل جالسا.

عاد ليجلس، انتظر خروج الموظفين وقال للمحامي:

– تأخر في إعلان تأسيس الجمعية الخيرية ريثما يتم إصدار الصحيفتين.

– أمرك سيدي.

– بعد الإصدار الثامن أو العاشر، يتم افتتاح الجمعية مع حملة إعلامية متميزة وركز على الشركة الأم. يجب أن يكون لها نصيب في الإشهار.

– كما تأمر.

– سجل لي كل الثغرات القانونية، سواء في الجهاز المالي أو في الاستثمار. النصوص تكون في شكل جمل مبسطة وواضحة.

– غدا أكون فرغت من هذه المهمة.

– هل ستقوم بهذا العمل وحدك؟!

– لا، بل مع فريق من المساعدين ليتم التقييم في نهاية المطاف.

– جيد، تستطيع أن تنصرف.

***

تواتر إلى مسامع أهالي حي الصفيح خبر عقد قران (نرمين) ابنة حامد العامل في مصنع الحديد. نرمين فتاة لها نسبية

الجمـال. عاشـت قصـة حـب مـع ابـن خالهـا عامـل دهـان يكبرهـا بسـبع سـنوات، حيـث تجـاوز السـابعة والعشـرين.

اليـوم بعـد صـلاة العصـر موعـد عقـد القـران. أبلـغ الجميـع بهـذا. لم ينـس أحـدا مـن الأهالـي. كل منـزل قـدم مـا يسـتطيـع مـن مأكـولات ومشـروبات. بـدأت النسـاء بالتوافـد إلى منـزل نرمـين للمسـاعدة في التحضـير لهـذا الحفـل. رقصـت النسـاء علـى وقـع موسـيقى الأفـراح. حضـر العريـس وعقـد قرانـه. أصبـح حـي الصفيـح منتجعـا للفـرح في هـذا اليـوم الـذي قـل ونـدر في حياتهـم. الجميـع في نشـوة غامـرة عـدا أسـيا. الفتـاة الـتي اغتصبـت هـي و وسـيطة زوجـة وسـيم. لم يمرّ الشـهر علـى هـذا الحـادث الأليـم. أسـيا ظلـت حبيسـة غرفتهـا. كل لحظـة تمـرّ، يُخيـل لهـا أنهـا أول مـرة تـرى هـذا المـكان. فقـدت القـدرة علـى التعـرف علـى كافـة أفـراد أسـرتها. بسـبب حالتهـا الصحيـة السـيئة، غـير رأيـه العريـس. كان مـن المفترض التقـدم لطلـب يدهـا. بعـد سماعه عـن هذيانهـا، تنحـى جانبـا وعـزف عـن التفكـير بهـا. هذا جعـل قلب وسـيطة يطمئـن بـأن أمرهـا لـن ينكشـف، وإلا نُبـذت مـن المجتمـع.

كونهـا امـرأة متزوجـة، تمكنـت مثـل غيرهـا مـن كتمـان الأمـر. ولـن يكتشـف أمرهـا حتـى أنهـا واظبـت علـى تنـاول حبـوب منـع الحمـل تحسـبا. معتقـدة أن ذلـك سـيمنع أي حمـل في بـادئ الأمـر. الآن، لديهـا علامـات الحمـل المبدئيـة. وضعـت الخطـة المناسـبة لتخلـص مـن ذلـك العـبء. كان مصـدر قلقهـا أسـيا، الفتـاة العزبـاء. وانكشـاف أمرهـا أمـر وارد في أي لحظـة. ومـا دامـت تعانـي مـن صـراع مـع شـخصيتها، وعنـد اغتصابهـا كانـت في أيـام الحمـل فيـه مسـتبعد. لـن يعـرف أحـد تفاصيـل الموضـوع. هكـذا تفكـر وسـيطة. ذهابهـا إلى

المستشفى جعل الطبيب المعالج يبلغ صديقا له يعمل في سلك الشرطة. بدوره وعده بنصب كمين للمجرمين.

بعد مراقبة المكان أياما متتالية، وقعوا في المصيدة. داهمت الشرطة وكرهم بعد اختطاف فتاة بدقيقة ليلقى عليهم القبض وهم متلبسون. حجزت الشرطة مجموعة من الأشرطة المصورة لوقائع الاغتصاب دون إظهار وجه المغتصبين على عكس المغتصبات. الفتاة الناجية من الحادثة توسلت لضابط أن يسترها خوفا من تدمير حياتها الزوجية وإلحاق العار بأسرتها، رافضة رفع دعوى ضد المعتدين عليها. حاول الضابط إقناعها بالعدول عن قرارها وبأنه سيقف إلى جانبها. عللت سبب الرفض بالخوف من انكشاف الأمر. ولو كانت مجريات القضية ستتم دون استدعاء علني لإقامة دعوى قضائية ضدهم أو تحريرها بلاغ نهائي بذلك، لما رفضت رفعها.

وقف المجرمون أمام الضابط المحقق في مكتبه وهم مكبلو الأيدي وسأل زعيمهم بصوت عال:

– كم فتاة اغتصبتم؟

– لا أعرف.

صرخ في وجهه، ووجه له صفعة كادت تذهب رأسه:

– اعترف يا كلب.

– ربما سبعة عشر، أو ثمانية عشر أو عشرين، أو أكثر...

– كثرت جرائمكم؟! من المحرض؟ من خطط لهذه الجرائم؟

– فكرة عابد...

- أنت الزعيم والفكرة فكرة عابد. مفارقة عجيبة!!

صمت الضابط للحظة، ثم سألهم:

- ألم تفكروا يوما بأنكم ستقعون في قبضة العدالة؟

أجاب أحدهم وهو مطأطئ رأسه:

- كان ذلك مستبعدا.

- لماذا؟!

- لمعرفتنا أن أي مغتصبة لن تجرؤ على تقديم بلاغ خوفا من الفضيحة وما يترتب عليها.

رن هاتف الضابط. إنه صديقه الطبيب. أراد أن يعلم، هل ألقي القبض على المجرمين أم لا. أخبره الضابط أن الجميع تحت وطأة القانون.

سُر الطبيب لهذا الخبر وأخذ أول سيارة أجرة متوجها إلى مبنى المباحث الجنائية ليقابل الضابط. دار الحوار بينهما عن المرأتين. عبر الطبيب عن حزنه لعدم معرفة عنوانهما وتمنى لو يستطيع الوصول إليهما. ليبلغهما أن المجرمين تحت سيف العدالة. بعد أن علم الطبيب برفض المرأة التي نجت من جريمة الاغتصاب التقدم ببلاغ ضد المعتدين، شعر بالأسف وعبر عن خوفه من أن يؤثر ذلك على سير مجريات القضية بضياع الدليل الذي يدين هؤلاء المجرمين. طمأنه الضابط وأخبره بأنه استطاع انتزاع الاعترافات وأن الأدلة ضدهم كافية. تقاسيم أجسادهم في أشرطة الفيديو المصورة عامل إدانة إضافي. هنا، انبسطت أسارير الطبيب، بعد أن قال له الضابط:

«هـذا عملـي وأنـا أعـرف كيـف أحبُـك مجريـات القضيـة ولـن أتخلـى عنهـا حتـى تصـل إلى القضـاء. وسأجعل منهـا قضيـة رأي عام. لقـد اتصلـت بصحفـــي وأعطيتـه بعـض المعلـومات لنشـرك المنظمـات الحقوقيـة المدنيـة والمواطنـين بهـذه القضيـة حتـى يسـتحيل عليهـم التلاعـب بضغـط مـن الشـارع خاصـة وأحـد المجرمـين أختـه سـكرتيرة لشـخصية اجتماعيـة. وهـي فائقـة الجمـال ومشـكوك في سمعتهـا. لهـا علاقـات واسـعة، تحـول الخـردل إلى عسـل».

★★★

منـذ شـهرين والأسـتاذ فتحـي يعمـل في مطعـم فـترة مسـائية لتحسـين مسـتوه المالـي، وبعـد إهانـات متكـررة تلقاهـا الأسـتاذ فتحـي مـن مديـر المطعـم وبعـض الزبائـن، قـدم اسـتقالته مقـررا البحـث عـن عمـل في مجالـه. شـعر بفـراغ. أيـن يذهـب؟ هـل يعـود إلى البيـت في وقـت مبكـر مـن يـوم الخميـس وهـو عطلـة شـبه رسميـة بكثـير مـن المؤسسـات الحكوميـة؟ توجـه إلى كبينـة في الشـارع وأخـرج كرتـا مسـبوق الدفـع وهاتـف زميلـه علـى الهاتـف الثابـت في منزلـه الواقـع في حـي متوسـط الحـال. ورث المنـزل عـن والـده هـو وأخـوه الـذي يعيـش في أقصـى الوطـن ويعمـل في شـركة نفطيـة. لذلـك، أصبـح الأسـتاذ مسـعد يعيـش في هـذا المنـزل مـع زوجتـه وولديـه.

رن الهاتـف. أجابـت زوجتـه. طلب منها التحدث للأسـتاذ. لحظات ورد عليـه. اقـترح عليـه الخـروج في نزهـة قاتلـة للملـل بعـد أسـبوع مـن العمـل المجهـد وإنجـاز مهمـة سـيخبره بهـا عنـد لقائهمـا. وافـق مسـعد وحـددا موعـدا للقـاء أمـام مبنـى دار الثقافـة بعـد نصـف سـاعة.

مضى الوقت حتى جاء الأستاذ مسعد متأخرا عن الموعد بعشر دقائق. اعتذر وسأل الأستاذ مسعد زميله إلى أين وجهتهما. أجابه بأن هناك معهدا يقدم دروسا خصوصية في أوقات مناسبة:

– ماذا لو ذهبنا إليه؟ لعلنا نجد عملا مناسبا يساعدنا على تحمل صعاب الحياة.

– فكرة جيدة لو نجحت. أنت أستاذ جغرافيا وأنا تاريخ. بضاعة بائرة. (هكذا قال مسعد)

– فلنجرب حظنا.

– الدروس الخصوصية للمواد العلمية وليست الأدبية.

– هذا يعني أني قضيتُ نصف عمري وعمر أمي لأصير أستاذا من أجل أن أجوع وأستجدي الرزق...

– لن أكسر خاطرك. لنسع وربما ننجح.

مشيا شارعا مختصرا ليدخلا الشارع الآخر حتى مرّا من أمام قصاب علق اللحم على عتبة الباب والدم متجلط على اللحم يقتات منه الذباب. والزبائن متحلقون حول اللحم. هذا يطلب شراء كيلو، والآخر اثنين، ومنهم من طلب أكثر. هذا المشهد لفت انتباه الأستاذ مسعد، فقال لزميله على نحو مفاجئ:

– انظر إلى هذا القصاب وركز على اللحم وعلى عدد الزبائن الكُثر.

نظر فتحي إلى محل القصابة ثم عاد بناظره إلى زميله ليسأله:

— ماذا هناك؟!

— هل لاحظت شيئا؟

— لا.

— يا صديقي، هذا العقل العربي مازال يمشي إلى الوراء. أخالني في سوق عكاظ. هل كنت سأرى هذا المنظر الدال على العقم الفكري؟! هل من المنطق أن يعلق اللحم على هذا الشكل ليكون مرتعا للذباب والمكروبات. وفي المحل المقابل توضع الأحذية في فترينات زجاجية كي لا تلطخها الأتربة. في تاريخي هنا العجب العجاب!!!

ضحك الأستاذ فتحي وهو يقول:

— ما هذه الفلسفة أيها الخنفشاري؟!

— والله، لو كان الحذاء الذي يشتريه المواطن متسخا بالأتربة لرفض شراءه. ورماه في وجه التاجر. أما اللحم، فلا ضير في ذلك.

— هذا هو الفكر الإنساني من الداخل.

— من فضلك، لا تتهم الإنسانية يا أستاذ فتحي! نحن فقط نرفض شراء اللحمة إذا كانت في ثلاجة خاصة بعرض اللحوم بحجة أن اللحم في ثلاجة العرض يعني أنها غير طازج. نهتم بالأحذية أكثر من اهتمامنا بالطعام.

— أنت ناقم على المواطن.

— يا صديقي! المواطن متخلف بدائي. هناك إعاقة جسدية

وإعاقة فكرية تصيب خلايا المخ. إذا كانت هذه الرؤية من داخل العقل في هذه المقارنة البسيطة، كيف سيكون الحال لو قارنا الحال بكل ما حولنا. إذا كان التفكير هكذا بأبسط الأشياء، فكيف سيكون التفكير في القضايا المصيرية؟! لنا مع الانحطاط حكايات يا صديقي.

— يا أستاذ مسعد طال وقوفنا في الشارع، لنتابع سيرنا، لندخل محل القصابة ونشتري لحما. (قالها ممازحا).

رد عليه الأستاذ مسعد وهو يشير بإصبعه نحو رأسه:

— إذا كنت مصابا بمرض شلل أطفال في عقلك فاشتر أنت لحما. أما أنا، فإني الشخص الوحيد في هذا الوطن الذي يتمتع بكامل قواه العقلية.

— أمرك غريب، هل يوجد مرض اسمه شلل الأطفال في العقل؟!

— نعم، وهناك أيضا إسهال وتبول لا إرادي في العقل..

واصلا مشيهما وهما يتحاوران حتى بلغا المعهد، دلفا إلى مكتب المدير، عبر لهما عن أسفه ووعدهما بأن يهاتفهما إذا احتاج إلى مدرسين في المواد الأدبية. وأكد لهما أن الفرصة ربما ستكون سانحة في عطلة الصيف، شكراه على نبل أخلاقه.

استدار الأستاذ مسعد نحو صديقه وقال مازحاً:

— لو التحقتُ بكلية الكيمياء، ربما صرتُ عالما وتغلبتُ على أحمد زويل.

ضحك الأستاذ فتحي وهو يقول:

– كنت حينها معترضا على الذرة ومنتقداً للنواة، ولك قضية في المحكمة ضد الجدول الدوري، كنت ستصير مشكلة علمية.

ضحك الأستاذ مسعد وقال:

– كم أعشق المجال الأدبي.

قفلا عائدين إلى قلب المدينة ليتناولا وجبة الغداء في مطعم شعبي.

★★★

التسكع الفاضح لمروجي الجنس، والأطفال الذين يعرضون أجسادهم مقابل المال، النساء المحترفات القادمات من أحياء عدة يترقبن إشارة من سمسار الجنس، وضع مزرٍ يعيشه محيط الحي جعل رشيد مستاء مثله مثل غيره، والفرق بينه وبين غيره النصيحة التي يقدمها لمن يشك به أنه انحرف أو على وشك. يمتنع عن النصيحة إذا طلب منه المتلقي ذلك.

الحال لم تعد تطاق. سيل من الوحل على وشك الزحف نحو الأسر المحافظة. والآن، لم يعد بمقدور رشيد الصبر. استدعى الأستاذ فتحي وأعلمه بالأمر وقررا التنسيق مع الآباء ومناشدتهم الحفاظ على أولادهم وطالبهم بالتوجه إلى قسم الشرطة لتقديم شكوى ضد المتسببين بالفساد الأخلاقي. وعند الاتصال بالشرطة، اختفى السماسرة وبدأت المضايقات عليهم وعلى الراغبين بذلك من الجنسين. قامت الشرطة بواجبها وعينت شرطيا على مدخل الحي ومنع الوقوف أو البيع على طول الشارع الرئيسي. وضعت

لوحـات مروريـة تمنـع الوقـوف. أيامـا معـدودة حتـى راح السماسـرة يتواصلـون مـع الزبائـن عـبر الهواتـف النقالـة وبذلـك يكونـون قـد حصلـوا علـى وسـيلة أفضـل مـن الوقـوف أو أخـذ دور الباعـة علـى طـول الطريـق الرئيسـية أمـام الحـي. أصبحـت التظاهـرة الـتي قـام بهـا رشـيد وأوليـاء الأمـور والشـرطة جـزءا مـن التكنولوجيـا ليتطـور السماسـرة والمروجـين. بـاءت محـاولات إيقـاف زحـف هـذه الظاهـرة بالفشـل. هـذه السـلبية أحزنـت رشـيد وعكـرت صفـو السـعادة الـتي تمـلأ حياتـه. قـرر أن يواصـل توجيـه نصائحـه لـكل مـن يقـع في الخطـأ. فالطريقـة الوحيـدة لهزيمـة هـذه الظاهـرة تكمـن في التوعيـة. وقـام بإجـراءات احترازيـة في منزلـه، حيـث عمـد إلى إغـلاق البـاب المـؤدي إلى الطريـق في الضاحيـة الجنوبيـة للحـي وفتـح بابـاً مـن خلـف المنـزل لتصبـح وجهتـه أشـجار الخيـزران. وهـذا كلفـه جهـدا ومـالا لأنـه قـام بتحويـل المدخـل إلى غرفـة والغرفـة إلى مدخـل. وكـم تمنـى لـو قـام بذلـك قبـل سـنوات عندمـا سـكن الحـي لأول مـرة.

★★★

السـاعة الثانيـة ليـلا. جاسـر نبيـل واقـف علـى شـرفة الـدور الثانـي لمكتبـه المنزلـي. يسـمع برنامـج السـمار علـى الراديـو الـذي يعـد تواصلا بـين السـمار وتبـادل التهانـي وطلـب الأغانـي. صـادق جالـس في سـيارته فجـو دافـئ بفعـل المكيـف، فدرجـة الحـرارة بـاردة ليـلا.

يركـز جاسـر علـى مـا يـدور في الراديـو مـن حديـث واتصـالات. اتصـل مشـارك، عـرف نفسـه بعصفـور الليـل، طلـب أن يتقـدم بتهنئـة خطيبتـه بمناسـبة حصولهـا علـى وظيفـة. يشـتد تركيـز جاسـر، يطلـب المتصـل مـن مقـدم البرنامـج أغنيـة معينـة ومقصـودة. هـز جاسـر رأسـه،

توجه نحو الخارج، أشار لصادق ليتبعه، تقدم خطوات، استدار نحو صادق ليقول له بجدية عالية: «وصلت شحنة جد سرية. أي خطأ ثمنه رأسك ورؤوس أولادك».

دب الرعب في قلب صادق. لم يعتد على التهديد بأولاده. إنها المرة الأولى برغم الطاعة العمياء والاشتراك في أشد الجرائم. سيدي أنا ذو طاعة مطلقة (هكذا نطق صادق...).

— اعرف ذلك يا صادق. ولكن هذه من أهم مراحل عملنا. والخطأ لن ننجو من توابعه لا بالمال ولا بالأساليب الأخرى.

— ثق بي.

— وصلت شحنة سلاح...

قاطعه صادق ليبدد قلق جاسر:

— وما الجديد سيدي، تعودنا على ذلك لم القلق المبالغ به؟!

زفر جاسر ودار نصف دورة ثم عاد لوضعه السابق:

— افهمني وركز. الشحنة غدا. يتم تنزيل الحاوية من السفينة. الحاوية فيها أسلحة. تعودنا على إدخالها وبشراكة الكثيرين. ولا تنس آخر شحنة صادرها مجهولون بهجوم يدل على أن هناك من يتتبع آثارنا. هذه الشحنة بالذات تعتبر خطأً أحمر في دخولها واستيرادها حصرا بالدولة. إنه أنواع من مضادات الدروع.

— ليكن... سننجح... تعقيبا على السلاح الذي خسرناه، كل الأدلة تشير إلى تورط جماعة متشددة، ومازلنا نتابع تحرياتنا، ولن يفلت من العقاب من كان السبب (هكذا قال صادق).

— سيتم إنزال الحاوية إلى الشاحنة على أنها قطع غيار مصنع. عندما تمرّ من تحت جهاز الفحص يتم بث محتوى شاحنة أخرى كي لا ترصد كاميرات المراقبة نتائج الفحص، تعودنا على ذلك بالتعاون هناك ومجهود مهندسنا الالكتروني. الجديد هو أن الشاحنة يجب أن تكون لغيرنا ولا علاقة لنا بها. وعند وصول الشاحنة إلى الهنجر، يتم إنزال الحاوية من على الشاحنة عبر رافعة واستبدالها بحاوية فارغة، تخرج الشاحنة، تغلق الأبواب. طبعا هناك قطع غيار مصنع موجودة من قبل. يخرج من النفق مجموعة أنت لا تعرفهم. سيفرغون الحاوية ويخرجون محتواها عبر النفق الموصول بأحد المنازل. وهناك، سيتم نقلها لأصحابها. حينها، نخلي مسؤولياتنا وليحرقوا في ألف جحيم. مهمتنا تنتهي عند التسليم. أنت أمن هذا الطريق وسلم الصفقة فقط وانتهى دورنا.

— العملية سهلة.

— بل بحاجة إلى حذر شديد. لا تتعامل أنت مع سائق الشاحنة. الهنجر والمنزل بوثائق مزورة، أليس كذلك؟

— لا، حقيقية ولا تثير أي شك. باسم مجنون، قمت بهذه العملية بنفسي. إن حصل شيء وهذا مستبعد لسنا في الصورة، سيتم البحث عن المالك ألا وهو المجنون الذي استعرناه.

— جميل... رائع.

★★★

أسدل الليل ستارته، اشتد ألم يعقوب، أنينه أفزع زوجته وردة وابنته. ألم حاد في أحشائه رماه أرضا يصارع الوجع. هرعت لمياء لطلب المساعدة من جارها عبد الحميد، ركض مسرعا. أقلقته حالة يعقوب، مما اضطره إلى الخروج من الحي، طلب سيارة الإسعاف من هاتف عمومي. عاد إلى منزل صديقه. مرت نصف ساعة وسيارة الإسعاف لم تصل. زاد التوتر في منزل يعقوب وهو يتوسل إلى الجميع لأعطائه شيئا يخفف ألمه. لم يعد عبد الحميد قادرا على الصبر في انتظار سيارة الإسعاف. أخذ صديقه وجعله يتكئ على كتفه، يسير به إلى خارج الحي برفقة لمياء وأمها. استوقفوا سيارة أجرة نحو مستشفى حكومي. دقائق حتى جاءهم الطبيب وفحصه بسماعته. لم يطيل تشخيص المريض. قد يكون يعاني من مشاكل في الكبد. طلب من الممرضة حقنة ثم وصف عددا من الأدوية ناصحا أهل المريض بعرضه في الغد على طبيب مختص في أمراض الكبد. مرت عشرون دقيقة والمريض لم تتحسن حالته. استدعوا الطبيب مرة أخرى، احتار الطبيب. فهو طبيب عام. وفي هذا الوقت من بداية الثلث الأول من الليل حتى الصباح، لا يتواجد أطباء متخصصون في المستشفيات الحكومية. وصف له حقنة أخرى، أخذ عبد الحميد الوصفة وتوجه إلى صيدلية المستشفى. هناك، اشتد غضبه، أعلمه الصيدلي أن هذه الحقن غير متوفرة في المستشفى وجل ما يوجد أدوية الإسعافات الأولية مثل المعقمات والشاش، والقطن، وقليل من المهدئات. الفوضى جعلت عبد الحميد ينقل صديقه إلى مستشفى خاص. قرار ناتج عن الإهمال الطبي في قسم الطوارئ. فقد شاهد الكثير من المرضى على الأرض دون أدنى اهتمام أو نظافة. حمل صديقه واستوقف

سيارة أجرة مجددا. في المستشفى الخاص وبعد إجراء الفحوصات اللازمة. طلبوا إجراء فحوصات باهظة الثمن. طلب المسؤول دفع مستحقات الفحوصات. وهنا، بدأت المشاكل تطفو على سطح الحياة، لم يغط كل ما جمع الرسوم. رفضت إدارة المستشفى إجراء الفحوصات حتى يستوفوا المبلغ كاملا. المريض يصرخ من الألم. مرافقوه يندبون هذا الوضع الإنساني المزري. «مهنة الطب مهنة إنسانية بحتة إلا أنها أصبحت مادية وتجارية ومصدر رزق يدر على أصحابه مبالغ طائلة في ظل غياب الرقابة على تجار الضمير البشري». هذا ما تمتم به عبد الحميد لحظة معرفته أنه في موقف محرج. ليس لديه خيار سوى العودة إلى الحي واللجوء إلى أبو أحمد البقال لعله يقرضه بعض المال. فعلا، وقف أبو أحمد موقفا رجوليا وأقرضه ما يحتاج إلا أن عبد الحميد يستشيط غضبا من ابنه إبراهيم. لم ير له وجها لهذا اليوم. أطلق الشتائم عليه سرا متوعدا إياه «في مثل هذه الحالات، يجب أن يكون موجودا لكي يساعدني وجاره بقليل من المال خاصة وأن عمله بدأ يدر عليه شيئا من المال إنه يعمل منذ فترة لا بأس بها». إبراهيم مؤخرا لم يعط أمه كل ما جمع من المال. ويعود السبب إلى تصفية دينه مع تاجر المستلزمات الإسلامية.

عاد عبد الحميد إلى المستشفى الخاص ليرى مالا يسر. صديق عمره يعقوب فارق الحياة. صدمة مزلزلة. الزوجة تبكي وتشق الجيب. ابنته غير مصدقة إلى هذه اللحظة أنها أصبحت يتيمة هي وأخواها الصغيران (لبيب، وتميم).

نُقلت الجثة لغسلها وتكفينها على أن يتم الدفن بعد الصلاة عليه فجرا. الرجل الطيب رحل. رحيله أبكى عبد الحميد وكأنه طفل: «لأول مرة أبكي هكذا. لم أدرك قبل اليوم أني أصبحت كبير السن، من يجلس إلى جانبي عند النهار، من ينسيني هم العمل وقساوته؟ كيف أبتسم وأضحك ومن رافقني عمرا طويلا قد رحل؟».

بلغ ذلك مسامع إبراهيم في وقت متأخر من الليل. حضر إلى الحي ليشارك الجميع المصاب الجلل.

في اليوم الثاني، ذهب إبراهيم إلى لمياء وناولها مبلغا ماليا. رفضت تسلمه. أصر لكنها رفضت. ربما شعرت أن الصدقات بدأت تنهال عليها. وهذا ما جرح مشاعرها. أخبرها أنه مستعد للتكفل بها وأسرتها. رفضت عرض إبراهيم. غادر وهو يلتمس لها الأعذار.

أدرك الجميع مأساة عبد الحميد، ساءت حالته لفقدان رفيق عمره. اتخذ من غرفته مكانا لحزنه وجزعه.

مرت أيام وإبراهيم يزور عائلة يعقوب ما بين اللحظة والأخرى. وعند اللقاء الأخير، أعطى لمياء مبلغا من المال مجددا، رفضته، فقال لها:

– أنتِ ستصبحين زوجتي وستكونين مسؤولة مني.

أجابته أن أسرتها لن تكون مسؤولة منه. لذلك قررت أن تعمل. عارضها لكنها أصرت.

عاتبها على تغيرها هذا وعلى وضع الحواجز بينهما على غير العادة وأعرب عن استعداده للزواج منها في أقرب فرصة:

– أخواك بمثابة أخوين لي. سنتزوج شرط أن تعدلي عن قرار العمل.

- حتى لو تزوجتك لن أعدل عن قرار إعالة أهلي. خالتي ستطلب من ابنها توظيفي في محله الخاص بأدوات التجميل.

قال غاضبا:

- إن الدين يحرم على المرأة أن تعمل في ظل زوج قادر.

أغضبها، عبرت عن ذلك. تسرع إبراهيم باتخاذ القرار في وقت مازالت الأحزان في القلوب. أكان عليه الحديث معها بهذا الموضوع بعد فترة طويلة حتى يزول الحزن؟ لا يدري. إلا أنه صعد الموقف لتبدأ الحساسية في لحظات لها حرمتها.

همت بالمغادرة، أمسكها من معصمها ليجبرها على الانتظار والوقوف قبالته ونظر إليها نظرات المعاتب وهو يعاتبها:

- تغيرت يا لمياء!

انفعلت لتخاطبه بطريقة انفعالية:

- أنت تغيرت، إبراهيم باللحية، وجلباب أبيض وقبعة بيضاء، وسروال طويل، أطول من الثوب، الجسد والقلب والشكل تغير ولم يعد يشبهك إبراهيم الأمس إلا بالاسم.

- الحق عليّ لأني أردت مساعدتك ودخول الجنة معك. ولأن قلبي عليك، وأريدك أن تصبحي امرأة مسلمة ملتزمة بتعاليم الدين.

- الدين يسر وليس عسرا.

- إن عذاب الله شديد.

- هو غفور رحيم.

- ولكنه شديد العقاب.
- حقاً أنت تغيرت.
- سأقبل الظفر بك بشروط.

بدهشة ردت عليه:

- بشرط!!! وما هي شروطك يا شيخ إبراهيم!؟
- ارتداء النقاب، وعدم العمل في مكان تواجد الرجال.
- مواد التجميل محل تواجد للرجال؟! هذا هراء.
- فكري في الأمر وأبلغيني عندما تعودين إلى رشدك.

تنهدت وذهبت لتجلس إلى جانب والدتها تاركة إبراهيم دون إجابة وكأنها لا تشعر بالندم على تجاهله.

★★★

الساعة الواحدة ظهرا، الأستاذ فتحي يمشي مع زميله الأستاذ مسعد خارجين من المدرسة نحو مقهى (الدب الصغير) لكسر الملل الروتيني اليومي بأخذ قسط من الراحة في أجواء شاعرية ولقاء مجموعة من المثقفين والشعراء والهواة. هنا، تُلقى القصائد والمحاولات الشعرية والخواطر، حيث يوجد قاص يلقي على مسامع الحضور جديده. هذه نافذة جيدة لمبدع لا يستطيع النشر بسبب وضعه الاقتصادي والثقل البيروقراطي في هذا المجال. ليس هو فحسب من يحاول الولوج من نافذة المقهى، بل هناك العديد من أصحاب المواهب الذين خانهم الدهر ولم يحالفهم الحظ لنشر

إبداعاتهم. وهناك كبار المثقفين الذين تربوا في هذا المقهى ونالوا شهرة واسعة في الأوساط الثقافية والشعبية، ولا زالوا يترددون على المقهى كأنه متحف أدبي وملتقى ثقافي عام.

هذا المقهى يطل على الحاضرين بالأغاني الطربية طيلة النهار، وعصراً يتحول إلى منبر، يليها اجتماعات للمثقفين كلٍّ مع من يستهوي حول طاولته. ومن الساعة الثامنة إلى العاشرة مساء، يتحول إلى منبر أيضا. وباقي الساعات حتى الثانية ليلاً، يكلل بصوت ناظم الغزالي وأم كلثوم وعبد الوهاب وغيرهم من ملوك الطرب الأصيل. مقهى لا يقدم المشروبات الكحولية. يقدم العصائر والشاي والسندوتشات.

وقف الأستاذان على الرصيف المقابل لموقف حافلات النقل الجماعي، قضيا ربع ساعة من الانتظار بالحديث عن الوقت المهدر عند انتظار وسائل النقل الجماعي. عبر الأستاذ فتحي عن استيائه من تفاقم هذه الأزمة مسببة مشاكل ومتاعب في المستقبل البعيد للمواطن. الوقت المهدر بمعدل ما بين ساعة إلى ساعة ونصف لكل مواطن يوميا. ينتج عن ذلك تقريبا نصف شهر سنويا يقضيه المواطن من عمره في انتظار وصول وسائل النقل.

وقفت الحافلة في مكانها المخصص، تدافع الركاب كل منهم يحاول أن يأخذ مكانه في الداخل لكي لا يضطر للانتظار الحافلة الأخرى. كما جرت العادة، يتبادل الركاب الشتائم عند التزاحم أو اصطناع التزاحم بسبب أن الكل يرغب أن يكون الأول في صعود الحافلة أو أن يكون أول المترجلين منها.

توقفت الحافلة في المحطة القريبة من المكان المقصود. هذه المرة الأولى التي يدخل فيها الأستاذ فتحي إلى هذا المقهى الثقافي. من الوهلة الأولى، بدأ فتحي معجبا بالمقهى، محدقا في سقفه الخشبي العتيق كأنه مكان تاريخي. وما شد انتباهه تلك الأشجار الظلية المزروعة في أماكن مختلفة من المقهى الواسع، يغطي جدرانه لوحات فنية خاصة بفنانين معروضة للبيع ولا مشتري لها بسبب نقص الوعي الفني. لكنها على كل حال تبقى وسيلة للعرض، وإن وجد مشتر فالشعراء والأدباء الهواة يكتفون بلوحة واحدة أو اثنتين. يعج هذا المقهى بالزبائن الدائمين ونادرا ما ينضم إليهم زبون جديد.

جلس الأستاذ فتحي على طاولة خشبية عليها قنينة السكر وطفاية سجائر وقليل من الورق الأبيض يعلوه قلم. أما الأستاذ مسعد فتأخر عن الجلوس بسبب إلقائه التحية على العديد من الحاضرين المعروفين لديه مسبقا. هو من الرواد المواظبين على الحضور الدائم للمقهى، عاد إلى الطاولة المقابلة لخشبة مسرح صغيرة لا يزيد طولها عن الثلاثة أمتار وعرضها المترين والنصف، سحب الكرسي المعانق للطاولة وجلس عليه. بادره الأستاذ فتحي قائلا باستغراب يمزجه الإعجاب:

– مكان جميل جدا، ولكن هناك ما أثار اهتمامي.

– ما هو؟!

قطع النادل الحديث:

– مرحبا بالأستاذ.

أجابه مسعد:

- مرحبا.

- ماذا تشرب اليوم؟

- كالعادة، قهوة.

أدار النادل رأسه نحو فتحي قائلا:

- الضيف ماذا يشرب؟!

- شاي!

ذهب النادل لإحضار الطلب وقال الأستاذ فتحي باستغراب:

- لماذا ناداني بالضيف، ألست واحدا من الزبائن؟!

- هذا المكان يعتبر منزلا ثقافيا. رواده يعرفون بعضهم البعض بسبب الالتزام اليومي أو الشبه يومي بالحضور. ونادرا ما يأتي زبون جديد إلى هنا وينضم إلينا لأن البعض لا يحبون الجلسات الثقافية. الناس يفضلون المقاهي التي يتواجد فيها الشيشة ولعبة الطاولة والأوراق وغيرهما، فالكثير يظنون أن هذا المقهى عبثي، ممل ولا يمتع رواده.

- عجيب!

- وما العجيب في ذلك.

- كيف أصبح الناس يعتبرون الثقافة والندوات عبثا؟! أليست المقاهي القاتلة للأخلاق والوقت هي العبثية؟!

- هذا هو حال أبناء جلدتنا. قل لي، هل أعجبك هذا المكان؟

- بالتأكيد. مكان جميل، ولكن ما أثار اهتمامي هو وجود الورق والأقلام على كل طاولة.

ابتسم الأستاذ مسعد ابتسامة خفيفة وقال:

- الأوراق والأقلام يوفرها مالك المقهى لمن يريد أن يكتب قصيدة أو خاطرة أو ملاحظة شخصية لأن المكان شاعري يساعد على ولادة القصائد والكلمات وتبادل الآراء بين المثقفين. مكان مميز للإبداع ونادر في بلادنا. في الماضي، كان من يخطر بباله فكرة ينادي النادل ويطلب منه إحضار ورقة أو قلم بسرعة قبل رحيلها. انزعج مالك المطعم (أحد الورثة المسؤول عن إدارة المقهى) من النداءات المتكررة ولبى الطلب بوضع رزمة من الأوراق عليها قلم على كل طاولة. إنه مقهى تاريخي تأسس في عشرينيات القرن الماضي.

قطع حديثهم كاتب معروف لدى الأستاذ مسعد اسمه «لؤي»:

- لدينا ضيف جديد (مد يده مصافحا الأستاذ فتحي) مرحبا بضيفنا الكريم.

- مرحبا بك.

- اسمي لؤي.

- وأنا فتحي.

- تشرفت بمعرفتك.

تدخل الأستاذ مسعد:

– هذا زميلي في المدرسة (مشيرا نحو فتحي بيده) وهذا زميل الأدب والثقافة، كاتب وموظف في شركة اتصالات (وهو يشير بيده نحو لؤي) تفضلا بالجلوس.

قال لؤي معتذرا:

– عليّ أن أفتح الساعة الأدبية.

– وماذا ستلقي اليوم على مسامعنا؟

– لم أكتب شيئا اليوم. لذلك، أحضرت معي قصيدة كتبتها قبل سنوات. وأنت ماذا ستلقي اليوم؟

– مقالة كتبتها وكالعادة رفضت الجرائد نشرها. وفيها مقارنة بين القارئ الأمريكي والقارئ العربي.

– إذن، لتلقها بعد إلقائي القصيدة مباشرة. ومن ثم الطبيب رؤوف (بصوت يكاد لا يسمع...) لديه موضوع ليس بشيق اليوم.

الأستاذ مسعد ممنوع من دخول أغلب مباني الصحف بقرار مسؤوليها. السبب كثرة زياراته وانتقاداته وإزعاجهم بمقالات يرغب في نشرها. لم تنشر له مقالة واحدة، إلا أنه مازال مستمراً بالمحاولات.

صعد لؤي على المسرح الصغير، انطفأ صوت الموسيقى الطربية الهادئة، التزم الجميع الصمت وراحوا يحضرون أنفسهم لسماع ما سيلقى اليوم وتدوين أهم النقاط والملاحظات.

قرأ لؤي القصيدة، صفق الجميع، ثم صعد الأستاذ مسعد فقرأ مقالته حيث نبه المستمعين إلى أن مقالته رفضت من قبل المحررين (كالعادة في كل مقالة يذكر سبب رفض النشر المختلف

عـن الأسـباب الماضيـة) بسـبب أن الأرقـام مفزعـة وغـير منطقيـة وهـي المقارنـة بـين المواطـن الأمريكـي الـذي يقـرأ أحـد عشـر كتابـا سـنويا مقابـل نصـف صفحـة للمواطـن العربـي.

قـرأ المقالـة، صفـق لـه الجميـع. وكالعـادة، يشـعر بالارتيـاح بعـد الإلقـاء للاهتمـام الـذي يلقـاه مـن الحضـور. عـاد ليأخـذ مكانـه ويسـمع بعـض التعليقـات والمديـح مـن الطـاولات المجـاورة.

بعـد انقضـاء السـاعتين الأدبيتـين مـن إلقـاء قصائـد بعـض الشـعراء ومحـاولات شـعرية وأدبيـة، غـادر الأسـتاذان المقهـى. أعـرب الأسـتاذ فتحـي عـن تعلقـه بهـذا المـكان المتميـز. بعـد رحلـة قصـيرة قضاهـا الزميـلان سـيرا علـى الأقدام، افترقـا ليذهب كل منهمـا إلى محل إقامته.

★★★

جلسـة جمعـت الشـيخ أبـو إيمـان وزمـلاء المهنـة تخللهـا محاضـرة لشـيخ في مسـجد بقلـب المدينـة، حضـره شـباب ملتـزم مـن عشـاق المحاضـرات. انتهـت المحاضـرة الـتي كانـت بعنـوان (نعيـم الجنـة). صلـوا العشـاء وغـادر الشـباب وزمـلاؤه وبقـى الشـيخ أبـو الـبراء زميـل المهنـة في الدعـوة. غـادرا المسـجد نحـو مطعـم برسـت كنتاكـي لتنـاول وجبـة العشـاء. تنقـلا مـن موضـوع لآخـر في الطريـق. وصـلا المطعـم، جلسـا علـى طاولـة المطعـم، أخـرج الشـيخ أبـو الـبراء السـواك مـن جيبـه ووضعـه في فمـه وراحـا يتجاذبـان أطـراف الحديـث. موضـوع الـزواج حاضـر لأن أبـو الـبراء عريـس جديـد تـزوج الثالثـة. فقـال لـه الشـيخ أبـو إيمـان مازحـا: سـكر الدنيـا لـك يـا شـيخ وعقبـى لـك بالزوجـة الرابعـة. فقـال الشـيخ أبـو الـبراء مقترحـاً:

— هناك أخت زوجتي الثالث، ما رأيك أن تصير عديلي.

— لست جاهزاً بعد، سأتزوج العام القادم.

— لمَ تقول هذا؟ لقد أنعم الله عليك بالمال الكافي لزواج من ثانية وثالثة.

— ليس السبب ما ذكرت، السبب عائلي.

ضحك أبو البراء وقال:

— وزارة الداخلية شديدة عليك. (يقصد الزوجة الحازمة والسلطوية...)

تنهد أبو إيمان وقال بحسرة:

— فقط مازلت أدرب زوجتي على الحياة الزوجية، اتعبتني نوعا ما.

— صحيح، الآن تذكرت، زوجتك مازالت صغيرة.

— هي بحاجة إلى أن تتعلم إدارة شؤون المنزل.

— تزوج الثانية وستعلمها كل ما يخص شؤون المنزل.

— سأفعل ولكن ليس الآن.

— جميل أن تقتدي بالسلف، والنساء حلويات الدنيا أنعم الله بهن على الرجال وخاصة الصالحين من عباده المؤمنين.

— أدري ياشيخ، لكن الزواج من صغيرة يؤخر الزواج من الثانية، لن تعدل بين الزوجات إطلاقا إن تزوجت.

— فهمتك، جزاك الله خيرا يا شيخ لأنك تفكر بالعدل بين الزوجات.

- هذه سنة الله في الأرض.
- تصور يا شيخ، أني أرغب بالزواج من صغيرة، لم أوفق، ولكن الرابعة ستكون صغيرة بإذن الله.

ضحك الشيخ أبو إيمان وهو يقول:

- ستطلق زوجاتك السابقات، وستكتفي بالأخيرة. الصغيرة ممتعة.
- يا شيخ، أتمنى لو عندي ملك اليمين إلى جانب زوجاتي. ملك اليمين.....

قطع حديثهما النادل وهو يقدم لهما وجبة دجاج البروست، خيرهما في نوع المشروب الغازي، أحدهما طلب كوكاكولا والآخر طلب بيبسي.

★★★

حتى نهاية الدوام المدرسي، الأستاذ مسعد لم يخضر إلى عمله في المدرسة. ليس من عادته التغيب. وإذا أجبره ظرف ما على التغيب، فإنه يهاتف إدارة المدرسة لإبلاغ المدير. المدير مزاجه عال اليوم. فلا، مشادات كلامية كالعادة، لكن في قلبه شعورا أن شيئا ما ناقص اليوم. ما هو؟ لا يعرف بالضبط سوى سؤال للأستاذ فتحي عن زميله وعسى أن يكون خيرا سبب تغيبه.

هاتف المدير منزل الأستاذ مسعد وعلم من زوجته أنه مريض. نزوره ونطمئن عليه (المدير حركته مشاعر التعود على مسعد...).

ذهبا إلى منزل مسعد، وجداه مصفراً وعليه رضوض وكدمات وبه نوع من الشرود. «سلامتك أستاذ، خيرا إن شاء الله» (المدير والأستاذ فتحي بادرا مسعد). اعتقدا أنه تعارك مع أحد ما.

قال الأستاذ مسعد:

- الحمد لله، لطف الله بنا.
- خير يا رب (تساءل الاثنان بصوت واحد)

الكلام للأستاذ مسعد:

- بالأمس كنت في السوق أتبضع. ازدحام بشري غير عادي.....

قاطعه المدير(كعادتك اعترضت على وزن أو سعر الطماطم... أنت منتقد لكل شي... قلت لك ستخوض معارك لا داعي لها...)

رد الأستاذ مسعد نافيا:

- ليتها كانت كذلك، ليتني ضُربت. آه، ما ألذ العصا مقارنة بما حدث.
- تكلم يا رجل، أقلقتنا، ماذا حدث لك؟ (قالها الأستاذ فتحي متسائلا).
- آه، في تاريخي لم يحدث لأحد ما حدث لنا. كنت أتبضع وسط الزحام، وإذا بصوت قريب مني يصيح بصوت عال «الله اكبر...» يليه صوت آخر:

«انتحاري...انتحاري...انتحاري».

شهق زميلا الأستاذ مسعد واصفرا بصمت ورحا يستعرضان ذاكرتهما. لم يسمعا عن انفجار في المدينة. هذه كلمات تثير الرعب البشري. واصل الأستاذ مسعد كلامه:

- صوت آخر أقرب من الصوت الأول يصيح «الله أكبر»، ما حدث بعدها يفوق أفلام البوليوود. أنا خانتني رجلاي، أحاول سحبهما لأركض، قبحهما الله! عندما احتجتهما خذلتاني في حالة الموت أو الحياة. ما الفائدة منهما؟! (يشير بيده نحو رجليه وهو يعاتبهما). في تاريخي لم أر أو أسمع أن هناك أفشل من رجلي في الأرض. المهم، جثا جسمي على الأرض، الحل الوحيد كان الانصياع لرجلي وللموت. فوضى السوق مرعبة. الكل يركض هربا من الموت. كم ركضت أرجل فيها شجاعة على جسدي، إلا رجلي قبحهما الله. أريد أن استحضر ماضياً جميلاً قبل الموت. لم أستطع تذكر شيء. أريد أن أدعو الله بالرحمة ولكن هل من وقت يمنحني إياه الانتحاري لأدعو لنفسي بالرحمة؟ مرت الثواني، لم ينفجر. تجاوزنا الدقيقة والثانية والثالثة وإذا بالسوق قد فرغ تقريبا من المتبضعين والباعة ما عدا من خانته رجلاه مثلي جاثيا على الأرض وقد داست أجسادهم أقدام الهاربين. أدرك بعض الباعة الفخ. كان فخا بامتياز بغرض السرقة. بعدها حملنا الناس لجنب السوق ورشوا علينا وسقونا الماء.

في تاريخي لا أدري كيف حدث ذلك. بالأمس عرفت، رخص بعض الناس ونذالتهم وحقارتهم. أكل هذا من أجل السرقة؟ ربما الآن، يضحكون على الفخ الذي نصبوه لنا. نحن سيؤون. نقطر نذالة. ماذا لو سنحت لهم الفرص باقتحام البيوت؟ أجزم أنهم سيرعبون النساء والأطفال ويرون ذلك مدعاة للمفخرة والتباهي. أركان الحياة خمسة عندنا، الفقر والقهر والمرض والظلم والاقتتال.

قال المدير مندهشا:

– سفلة! بلا قيم. يجب محاسبتهم.

قال الأستاذ فتحي مؤكدا ما قاله المدير:

– سيكررون ذلك إذا لم يلق القبض عليهم ومعاقبتهم. كم من ناس بحاجة إلى إعادة تربية وتأهيل أخلاقي؟

★★★

اجتماع عام وطارئ في مبنى المخابرات، قال رئيس الاجتماع العميد فاروق بقلق بالغ لضباط خبراء في المخابرات:

– هناك أمر يجهز ضدنا. لا أدري كيف شكله وأسبابه ونتائجه. ولكني أتوقع حدثاً غير تقليدي. المؤشرات لدينا تقول ذلك. يجب أن نفسر ما يحدث ونضع أسوأ الاحتمالات مع النتائج وكيف نتصرف في مواجهة أي طارئ.

أحد الضباط قال:

– أصبت سيدي. وعلينا رفع حالة الطوارئ المعلوماتية بين عناصرنا وتحليلها وإن كانت معلومة افتراضية.

قال العميد فاروق:

– نعلم أن أي ترتيب للفوضى باستخدام السلاح له قواعده من حاضنة بين الناس لأي جماعة مهما كانت إلى نوعية السلاح الذي يتم توفيره في تلك النقطة المقصودة. صادرنا مخازن سلاح في منطقة ولائها التام للدولة، ونوعية السلاح يشبه

إلى حـدا كبـير سـلاح الدولـة مـن ناحيـة النوعيـة والوظيفيـة. ومـا دق ناقـوس الخطـر في عقلـي وجـود أنظمـة دفـاع جـوي محمولـة علـى الكتـف ومضـادات لـدروع وبكميـات تثبـت أن هنـاك أمـرا قادمـا. وأيضـا تعـدد المخـازن المضبوطـة وكلهـا في مناطـق ليسـت مؤهلـة لأي أعمـال عنـف لأنهـا ليسـت حاضنـة والمناطـق الـتي تعتـبر حواضـن لم نلاحـظ فيهـا تحـركاً مريبـا، علـى الأقـل أمـام أنظارنـا. أيضـا الـزى العسـكري المـزور تقريبـا كل الأنـواع. وآلـة إصـدار بطاقـات عسـكرية ومدنيـة، كيـف دخلـت البلـد، ومـن وراء ذلـك؟ الأمـر لا يقتصـر علـى جماعـات، بـل تعـدى ذلـك لانغمـاس رجـالات دولـة بتوفـير مأمـن لدخـول هـذا العتـاد. لم يتـم اكتشـاف خيـط واحـد في نقـاط التفتيـش ولا حتـى الصـدف في اكتشـاف سـيارة أو ناقلـة لتلـك المعـدات. كل مـا اكتشـف قـد تم تخزينـه مسـبقا، حتـى مراقبـة الأشـخاص الذيـن علـى علاقـة بهـذا، أوضحـت أنهـم مجموعـات صغـيرة جـدا. وكل مجموعـة تعمـل بمعـزل عـن الأخـرى، ولا أحـد منهـا يعـرف المجموعـة الأخـرى، إلى الآن، كل المعلومـات لدينـا أن لا أحـد مـن المتورطـين يعلـم مـاذا يعمـل أو لمـاذا يفعـل ذلـك؟ لم نحصـل علـى سـبب أو مقدمـة لحـدث قـادم. إذا، علينـا العمـل بمجهـود اسـتثنائي. هنـاك طبخة غـير تقليديـة ومبتكـرة، وباعتقـادي أن القـادم مظلـم. تقريـر سـرقة السـيارات. يتضـح لنـا أن نسـبة السـرقة زادت ثلاثمائـة بالمائـة. والزيـادة بالنسـبة لسـيارات النقـل رباعيـة الدفـع. تختفـي بعـد السـرقة بشـكل عجيـب لأن الامـر منظـم. إذا هنـاك حـدث أشـبه بالتمـرد المسـلح علـى نقـاط كثـيرة تسـتدعي تشـتيت انتبـاه الأمـن والجيـش. والسـبب هـو حـدث يتوقـع منـه أن يكـون مزلـزلاً،

ولكن من وراء ذلك؟ هذه القدرات تفوق عمل جماعات متحدة مع بعضها داخل البلد، كيف يتم ذلك؟ من الممول؟ من الداعم؟ من المقصر من زملائنا؟ هناك الكثير من التساؤلات التي تجعلنا نترقب الكارثة. نحن الآن ما قبل الكارثة. ما شكلها ما مضمونها ما أهدافها؟ هذا هو عملنا القادم.

سأل ضابط:

– هل تتوقع أنياب التشدد الديني؟

العميد مجيباً:

– ممكن أن يكونوا جزءا من الحدث وليس كله. ببساطة، لأنهم ليسوا أصحاب مشروع ذاتي. ولا أعتقد أن مشروعهم ناضج لمثل هذا الحدث المفترض، إلا إذا تم خلق مشروع يتضمنهم ويتضمن غيرهم ممن لهم تأثيرات وقدرات على خلق حواضن من العدم كإيجاد الماء من العدم. أقرب توصيف عملية «إيجاد الماء من العدم». هم قد حفروا الحفرة ومروا بالمراحل قبل نضوج مشروعهم، ويجب معرفة المشروع ومراحله ومن قام بذلك وما هي النتائج المرجوة وما هو مشروعنا المضاد والذي سيفشل هذا المشروع بحيث لا نفاجأ. الرائد قمر الدين، بحثك الذي قدمته عن مراحل نمو النظام؟

أجاب:

– أجل سيدي.

أمره العميد:

- شكل فريق بحث يضم مجموعة من الخبراء واحرص على وجود خبير في الفلسفة والدراسات الإستراتيجية والتاريخ. وكونك خبير علم اجتماع وصاحب البحث، ترأس الفريق وفي أسرع وقت تنجز دراسة عن الوضع العام للحكم وما هي حلول سد الفجوات في تماسك النظام. سلم لي الدراسة لأطلع عليها ثم تنشرها لضباط الجهاز.

- أمرك سيدي.

توجه العميد برأسه نحو المقدم أشرف:

- مهمتك معرفة مصدر السلاح المضبوط، لمن تم تصديره؟

- أمرك سيدي.

توجه العميد بأمره نحو الرائد خالد:

- تقارير سفريات المعارضة من ستة أشهر، والسفارات التي ترددوا عليها، قائمة الصحف التي أجرت مقابلات معهم. أريد مراقبة تليفونية ومواقعهم عبر الإنترنت. والمشتبه فيه بتصرفات وتحركات مريبة يتم اختراق بريد رسائله الكترونية وتشدد عليه المراقبة. أعلن حالة الاستنفار القصوى لجهازنا وعناصره.

- أمرك سيدي.

قال العميد للحضور جميعا:

- نحن بحاجة إلى تحصين شعبنا وإعادة بناء الشعب فكريا ووطنيا بالشكل الصحيح. وبتزامن مع ذلك، إعادة تصحيح رجالات الدولة بما لا يتعارض مع مصلحة الوطن والشعب.

تأخرنـا ونواجـه معارضـة واصطدامـات لأي خطـوة مـن شـأنها تحصـين البلـد. علـى الأقـل الآن، نقـوم بواجبنـا ولو بشـكل أحادي إذا تم محاولـة إعاقـة مسـيرتنا. علـى الأقـل نكـون مسـتعدين.

المواطـن أشـبه بفكـر الطفـل أمـام أبيـه. لا يعـرف مصلحتـه عنـد مرحلـة الطفولـة، يجـب أن يكـبر وتكـبر أفـكاره ومـدارك المعرفـة ليعلـم حـين يكـبر أن أبـاه كان علـى حـق.

والدولـة يجـب أن تكـون الأب المثالـي، واسـع الفكـر، جسـوراً وصادقـاً ونقيـاً بحيـث يطابـق الطفـل أبـاه. العمليـة تكامليـة ويجـب أن يكـون فكـر الابـن توأمـاً لفكـر الأب. للأسـف، قصـر الأب تجـاه ابنـه وتجـاه نفسـه. وهـذا يسـتدعي التـدارك والإصـلاح الذاتـي لأن الانهيـار لا يعـوض بعشـرات السـنين.

★★★

شـركات جاسـر معروفـة لـدى الجميـع. أمـا هـو، فـلا ظهـور لـه والكثـيرون مـن الطبقـة المسحوقة يجهلـون مـن يملـك هـذه الشـركات. الآن، حـان وقـت الظهـور الإعلامـي والـبروز أمـام الشـعب. هـذا ما كان ينتظـره. الظهـور والسـيطرة والسـلطة التي لم يسـتمتع بهـا إلا من تحت غطـاء موظفيـه في كل مـكان. هكـذا جاءتـه الأوامـر مـن خـارج البلـد. حقـق المطلـوب، ثـراء لا حـدود لـه، يـد الخـير ممـدودة إلى الكثـير مـن الأحيـاء الشـعبية في جميـع أنحـاء البلـد. بشـكل تدريجـي لفـترة وجيزة مـن الزمـن، وبمقابلـة صحفيـة، يصـرح: «إنـه لم يظهـر بسـبب الجمود الإعلامـي حتـى تم إنشـاء شـركة إعلاميـة» هـذه الإجابـة غـير مقنعـة لصحفـي محـاور مثلـه مثـل باقـي المثقفين الذيـن لا تنطلـي عليهـم هـذه

الإجابـة. رأي مثقـف لا يهـم السـيد جاسـر. المهـم هـو رأي مواطـن بسـيط يسـره مخلـص ومنقـذ اقتصـاد بلـد يعانـي مـن الركـود والتقهقـر.

في أصيـل مشـمس، خـرج جاسـر مـن غرفـة نومـه. خادمته الحسـناء كانـت واقفـة أمـام غرفـة نومـه بانتظـاره حتـى يصحـو. حيتـه، ابتسـم في وجههـا ومـا كان ليبتسـم لغيرهـا وقـال لهـا بـدلا مـن رد التحيـة:

— تبدين أجمل من البارحة بهذا الفستان الرفراف.

قالت بصوتها اللعوب الرنان:

— فستان سهرة الأمس من اختيارك. أما هذا، فمن صميم ذوقي.

— ذوقك تغلب على كل أفق تفكيري ورغبتي.

ابتسـمت لـه وأظهـرت الدلـع الأنثـوي أمـام رجـل صلـب يأخـذ مـا يريـد دون أن يتمتـع بـه آخـر. ربمـا هـذا مـن بـاب الكبريـاء أو الأثـرة. يبـدو أمـام باقـي النسـاء وحشـا، أمـا أمـام «بتلـة» الخادمـة الحسـناء، فيقـف مكبـل الأيـدي لا حيلـة لديـه سـوى الابتسـامة. تنـاول يدهـا لتقبيلهـا وتطويـق عنقهـا تحـت ذراعيـه ليصطحبهـا معـه إلى بـاب مكتبـه وكأنهـا طفـل يريـد إرضـاءه ثـم يطلقهـا لتحضـر لـه القهـوة مـن يديهـا المتلئتـين بالجواهـر الثمينـة وكأنهـا زوجته. يدخـل إلى المكتب، يحـدق في أوراقـه حتـى تأتيـه بالقهـوة، وبعـد احتسـائه قهـوة الصبـاح يمـارس الرياضـة لمـدة نصـف سـاعة ومـن ثـم يذهـب إلى عملـه، وتظـل هـي تتزيـن وتحضـر نفسـها للقائـه عند العـودة أو للخروج معه في سـهرة ليليـة في أحـد الفنـادق الراقيـة إن لم يكـن مرتبطـاً بفتـاة متعـة عابـرة.

«لماذا أنا بالذات يميل إلي أكثر من النساء اللواتي عرفهن على مدار السنين الطويلة؟!» السؤال وجهته له ذات مرة:

أجابها بصراحة:

– أحببت امرأة تشبهك اسمها ياسمينة عندما كنت في السادسة عشرة وكانت أكبر مني سنا بعشر سنوات تقريبا، كانت تحتقرني، ربما كان ذلك مراهقة أو طيشا ولكنها أول امرأة دخلت قلبي.

سألته عن سبب رفضه الزواج منها إذا كان يحبها لأنها تشبه فتاته؟!

فكانت إجابته صريحة: لا يريد ذلك. ولو كنت أريده، لتزوجتك منذ فترة طويلة. لأني أعشق المتعة المرتبطة بالحرية وأرغب في أن أرى حبيبتي تحوم حولي دون أي ارتباط. أنا أراك «ياسمينة» إلا أن الاسم اختلف.

سألته أن كان يرى هذا نوعاً من إذلال تلك الفتاة بها؟!

أجابها دون تردد أنه يشعر أنها معه في شخصية خادمته يفعل معها ما يشاء دون زواج وهي تحت سيطرته. وكأنه يريد أن يقول لياسمينة إن فتى الأمس المتشرد هو سيد المجتمع اليوم.

تعرف على «بتلة» في فندق بإحدى الدول المجاورة وجلبها معه إلى بلده. كانت تعمل هناك كالمرحبة بالزبائن رفيعي المستوى. فهي فتاة تسعى وراء رزقها، تحمل أفكار الماجنات، إنها تعتبر البقاء مع جاسر جزءا من عملها. موظفة، خلقت لتكون كذلك، لم تتذمر يوما. ولكنها بالفعل حلمت أن تتزوجه لثرائه الفاحش. ربما طمعا، وربما حلما بالاستقرار، إلا أنها تظل موظفة تتبع

المصالح. وهي مرتاحة معه لما تلقاه من معاملة جيدة ومن مال وفير قد يعينها في المستقبل.

تعرف الكثير عن حياته الشخصية والعملية. فقد تم تجنيدها من قبل مرؤوسي جاسر خارج البلد. وهذا نوع من الرقابة عن بعد بالأيادي الخفية التابعة للأجهزة الخارجية.

تقارير ترفع عن جاسر حتى الجانب الشخصي وتغير مزاجه مثلاً. أحضر نساء إلى منزله وبعد منتصف الليل، يطرد بعض من حضر معه ويأمر السائق بإعادتها من حيث أتت. هذا حسب مزاجه المتقلب والمتغير. وأحيانا، تكون بتلة معه في غرفة نومه وفجأة يأمرها بالخروج والمكوث في غرفتها ويطلب عبر الهاتف فتاة يعرفها أو من الأماكن الخاصة التي توفرها المومس لتحضرها إليه فورا ليكمل سهرته. استطاعت بتلة التعامل معه والبقاء فترة ليست هينة.

بتلة هي فقط تعلم إن كان هذا اسمها الحقيقي أو لزوم العمل. تم تدريبها على أساليب عدة منها التجنيد لصالحها والجاسوسية. لذا، هي على علاقة مهمة مع بعض إدارة جاسر من حيث الفائدة المعلوماتية.

★★★

إبراهيم لم يحلق لحيته مقتديا بالشيخ أبو إيمان الرجل الخير الذي وفر له تجارة رابحة وفتح له باب الرزق كما يعتقد هو والآخرون. أصبح محط اهتمام الشيخ ومن حوله. التغيرات المفاجئة في أسلوب حياته أزعجت حبيبته لمياء ولكنها أسعدت أبويه لأنهما ينظران إلى هذا التغير من الناحية الدينية. فالوالدان

يتوجـان بالسـعادة عندمـا يريـان ولدهمـا مهذبـا ويسـير علـى الصـراط المسـتقيم المـؤدي إلى التقـوى.

نظـرات إبراهيـم تجـاه لميـاء تغـيرت نوعـا مـا. أصبـح الآن ينظـر إليهـا علـى أنهـا فتـاة ناقصـة عقـل وديـن. زاد ذلـك اليـوم عندمـا أخبرتـه أنهـا بـدأت تعمـل في محـل بيـع مـواد التجميـل، فعاتبهـا:

- تابعت محاضرة عن عمل النساء. هذا يغضب اللّه منك.

ردت عليه بحنق:

- أتريد أن أسرق أو أستجدي المال؟

- لا هذا ولا ذاك، أنا من سيوفر لك ما تحتاجينه.

- وهل ستوفر كل ما يحتاجه أهلي وأهلك؟!

- سأعمل جاهدا.

همت بالرحيل وهي تقول ناصحة:

- أنـت بـدأت تسـلك طريقـا غريبـا ربمـا لا يناسـبني. عندمـا تعـود إلى إبراهيـم الـذي أحببتـه، سـألتقي بـك.

- بعد أن هداني اللّه تريدين أن تكوني عقبة في طريقي.

هنا اشتاطت غضبا:

- أتركـني وشـأني، ولا تسـأل عـني. اذهـب إلى أصدقائـك الجـدد الذيـن غـيروا مجـرى حياتـك. أيـن إبراهيـم المحـب؟!

غـادرت المـكان مسـرعة متوجهــة إلى عملهـا. ظـل إبراهيـم ينظـر إليهـا حتـى اختفـت لا يـدري مـاذا يصنـع هـل يلحـق بهـا أم يذهـب إلى المكتبـة ليأخـذ مجموعـة مـن الكتـب ليبعهـا في مدخـل المسـجد؟ اختفـت لميـاء، وإذا بـه يكفـف يـده ويذهـب إلى المكتبـة. عـاد إلى المسجد قبـل صـلاة العصـر، قضـى وقتـا في بيـع بضاعتـه حتـى بـدأت الصـلاة، صلـى العصـر وعـاد ليواصـل البيـع. وبعـد خـروج المصلـين، دخـل المسـجد ليجلـس في المحـراب مـع الشـيخ أبـو إيمـان. سـأله عـن سـبب تغـير لـون وجـه وكأن همـا يثقـل عاتقـه، أجابـه بالصمـت. قـال لـه الشـيخ مستفسـرا:

- لا تخفـي عـني أي شـيء أنـا هنـا أخ لـك. قـد أصبحـت واحـدا منـا (يظـل إبراهيـم صامتـا ويتابـع الشـيخ كلامـه) ومـا دام الله موجـوداً فـلا تيـأس مـن رحمـة الله.

- أنا. يا شيخ......(ثم يصمت).

- قل ما بك؟! هيا قل....

- إنها لمياء!!!

- من هذه لمياء؟! (ثم يتذكر...): آه، ابنة يعقوب.

- أحببتها منذ الصغر وأردت الزواج بها.

- وهي تحبك؟

- تحبني (ينفعل) أكثر من نفسها.

- هل المشكلة من والدتها بعد وفاة والدها رحمة الله عليه؟

- لا.

- إذا ماذا؟!

- ليست ملتزمة بتعاليم الإسلام.

انتفض الشيخ وهو يقول مستغفرا:

- استغفر الله العظيم.....ألا فسرت لي أكثر؟!

- فتاة طيبة، قنوعة، صاحبة أخلاق عالية إلا أنها ليست منقبة ومتخاذلة في صلاتها. وزد على ذلك تعمل في محل أدوات التجميل.

- لا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم. «الطيبون للطيبات» وأنت شاب طيب مؤمن. إذا كتب لك نصيب، فهذا هو قدرك، «لو اجتمع الإنس والجن على أن ينفعوك بشيء لن ينفعوك إلا بشيء قد كتبه الله لك، ولو اجتمعوا على أن يضروك بشيء فلن يضروك بشيء إلا قد كتبه الله عليك». ادعها إلى الله وانصحها وحاول أن تكون سببا في هاديتها. «العهد الذي بيننا وبينهم الصلاة فمن تركها فقد كفر». صدقني يا إبراهيم! الله راضي الله، أنت تستحق حورية من حور الجنة.

- هداها الله.

- غير منقبة ولا تصلي وتعمل في محل تغيير خلق الله!!!

قاطعه إبراهيم مستغربا:

- تغيير خلق الله؟!

– نعم، أدوات التجميل تغيير للخلق. وهذا حرام وزندقة.

– كنت أظن أنها تعمل في مكان فيه اتصال مع الرجال!

– هذه جريمة أخرى.

هنا، بدا الارتباك الكبير واضحا على ملامح إبراهيم وهو يحرك رأسه على يمينه ويساره ويقول:

– استغفر اللّه... استغفر اللّه... أكفرا في أرض الإسلام؟

وقع تحت سيطرة الشيخ، الذي راح يهدئ من روعه:

– لا تنفعل....(يربت على ركبته وهو جالس أمامه ويتحدث وعينه تغمز) إذا لم يهدها اللّه كان خيرا لك.

– مازال حب لمياء يعشش في قلبي كالعصفور يعزف على وتر الأغصان.

– أصبحت شاعرا يا إبراهيم!!

– إنه الحب يا شيخ.

– الحب أو الرغبة؟ فأنت شاب. الشباب شعلة من نار.

– الاثنان معاً.

– إذا أردت، سأذهب إلى لمياء وأخبرها بحبك لها.

– هي تعرف ذلك.

– إذن، حاول مرة أخرى. وإن شاء اللّه ستكون من نصيبك. وإذا عاندت، فمن المؤكد أن هناك الكثير من الأخوات اللواتي

يحبهـن الله لشـدة إيمانهـن والتزامهـن بتعاليـم الإسـلام.

— أشـكرك يـا شـيخ، سـأحاول مـرة أخـرى معهـا لعلـي أهديهـا إلى الصـراط المسـتقيم.

— جزاك الله خيرا.

وقف إبراهيم وهم بالخروج، وقف الشيخ وقال له:

— إبراهيم....

— نعم يا شيخ.

— أنـا مسـافر لمـدة أسـبوع. سـأذهب للعمـرة. هـل تريـد أي شـيء لأحضـره لـك معـي مـن مكـة؟

قال إبراهيم بعفوية:

— ماء زمزم وتعود بالسلامة.

***

توالـت الأيـام والعميـد فـاروق يقـوم بمهمتـه علـى أكمل وجـه موجهـا ضربـات موجعـة وغـير مسـبوقة للدخـلاء والعابثـين بأمـن الوطـن مـن الداخـل والخـارج حتـى جـاء اليـوم الـذي شعر فيـه العميـد بضعف تدريجـي يغـزو جسـده. وبعـد أيـام مـن هـذا الشـعور، قصـد المستشـفى العسـكري. أجريـت لـه فحوصـات عديـدة وظـل مرضـه مجهـولاً حتـى اليـوم الثالـث الـذي اكتشـف فيـه الأطبـاء أنـه مصـاب بمـرض خطـير راح يفتـك بالكبـد بشـكل سـريع جـدا. نصحـوه بالسـفر إلى فرنسـا أو الولايـات المتحـدة الأمريكيـة لإجـراء بعـض الفحوصـات والعـلاج حيـث إن الطـب هنـاك متقـدم ومرتبـط بمراكـز أبحـاث علميـة. رفـض السـفر

إلى وجهـة الأطبـاء وفضـل السـفر إلى روسـيا حيـث اشـتهرت بعـلاج أمـراض الكبـد دون غيرهـا حسـب اعتقـاده. بـدأت إجـراءات مكثفـة لرحيلـه إلى روسـيا. قيـادات عليـا وقفـت مراقبـة باهتمـام صحـة العميـد واضعـة تحـت تصرفـه طائـرة طبيـة خاصـة وفريـق طـبي لمرافقتـه إلى موسـكو. تلقـى اتصـالات عديـدة ممـن تهمهـم سـلامته.

يـوم السـفر، أعلـن مديـر المستشـفى العسـكري بـأن العميـد انتقـل إلى الرفيـق الأعلـى. حـزن اعـترى أطـراف معينـة في أجهـزة الدولـة. نعـي بوسـائل الإعـلام الرسميـة والشـبه رسميـة والخاصـة والصحـف. يعـرف بعـض مـن الشـارع أنـه خسـر أحـد حـراس هـذا الوطـن الكبـير برجالـه وأبطالـه، وآخـرون يرونـه أحـد مصائـب البلـد وركنـا أساسـيا للقمـع السـري وحراسـته للدكتاتوريـة. شُـيع جثمانـه إلى المقـبرة في جنـازة رسميـة حضرهـا أهـم الرمـوز في النظـام وكذلـك المسـتفيدون مـن ذلـك الحـدث أصحـاب الحـركات المزدوجـة في الجهـاز ورؤسـاء أحـزاب المعارضـة وفئـات مـن مختلفـة مـن الشـعب...

في اليـوم الثانـي، جـاء الرائد خالـد إلى مكتب العقيد عمـر. وأبلغه أن أحـد جنـود التفتيـش علـى مدخـل مبنـى الجهـاز. فتـش فـراش مكتـب العميـد الراحـل عنـد دخولـه المبنـى قبـل مـرض العميـد بأيـام، ووجـد أن الفـراش كان يحمـل قـارورة صغـيرة جـدا علـى شـكل ميداليـة علـق عليهـا مفاتيـح. كانـت صغـيرة لا يزيـد طولهـا عـن سـنتي متريـن اثنين. سـأله مـا تحتويـه، فأجـاب بأنهـا عطـر، وهكـذا بـدت للجنـدي، انتفـض العقيـد مـن مكانـه وقـد أدرك للتـو أن العميـد اُغتيـل. ومـا أدهشـه، كيـف يمكـن للفـراش الـذي عمـل لأكثـر مـن ثلاثـة عشـر عامـا تحـت إمـرة العميـد أن يخونـه؟ طلـب العقيـد مـن زميلـه تولـي

التحقيقات العلنية وألا يخفي شيئا عن منتسبي الجهاز. وما هي إلا ساعات حتى انهار الفراش واعترف بفعلته. وكما روى للمحقق، فقد جاءه أربعة أشخاص ووصفهم جميعا وكان من بينهم شخص أحمر وأصلع ذو طول وعرض وأخذوا ابنته بقوة السلاح، كبلوه هو وزوجته وأولاده وقالوا له نفذ ما نريد نرجع ابنتك. سنغتصبها ونصورها وننشر الصور إذا بلغت عنا، وحتما لن يصل إلينا أحد. وإن وصلوا، نكون قد اغتصبناها وهتكنا عرضك. فأنت مخير بين أمرين. إما أن تلبي مطلبنا أو نهتك عرضك. ثم رحلوا مصطحبين ابنته وبقي الرجل الأحمر، وضع القارورة وقال له:

— تبدو عطراً. لها رائحة عطر. لكنها سائل فيه فيروس غير قاتل. عملك بسيط جدا. اغمس قطعة قماش بهذا السائل وامسحه بسماعة هاتف العميد فاروق. لا أحد سيشك بك. وما أن نعلم بأنك قمت بالمهمة أعدك بإرجاع ابنتك سليمة دون مس شعرة واحدة منها ومعها هدية تليق بك. وإن رفضت، ستموت وأنت على قيد الحياة. ما هو الأهم بنظرك؟ شرفك أو مرض بسيط يصيب العميد يتعافى منه تدريجيا؟ نحن لا نريد إيذاء العميد، بل إن هذا السائل عبارة عن عطر سيجعل العميد مصاباً بالزكام لمدة زمنية. عرضك أو أنفلونزا تصاحب العميد.

وقبل أن يغادر، قال له إنه حريص على الفراش ناصحا إياه أن يتجنب لمس السائل وأن يستخدم وسيلة عند التطبيق.

سأله المحقق عن مصير ابنته، فأجاب أنها عادت إليه سليمة بعد إعلان وفاة العميد. أودع الفراش في السجن وبدأت حملة واسعة النطاق التعرف على الرجل الأحمر. اتضح أنه من جنسية غربية

يتقن لغة أهل البلد. دخلها مرات كثيرة كباحث في الاحتباس الحراري. ما أن وصلوا إلى هذه المعلومات حتى تبين أن ذلك الرجل غادر البلد في نفس اليوم الذي اختطف فيها ابنة الفراش. أما ما يخص أعوانه المجهولين فحتى اللحظة مازالت التحقيقات جارية...

★★★

جاء وقت الاستراحة. خرج الأستاذ فتحي من الفصل. وكالعادة، تزاحم الطلاب للخروج دفعة واحدة. استطاع انتشال جسده من بين سيل الطلاب المتدفق ليصل إلى غرفة استراحة المدرسين أمام مكتب المدير.

دلف إلى الغرفة. وكما تعود أن يرى الأستاذ مسعد يُجبر الأساتذة المتواجدين على قراءة الأخبار الغربية في الجريدة، الجميع يتهربون ويتملصون. وما أن دخل فتحي حتى رأى مسعد النور وكأن من يؤيده قد جاء إليه. صرخ بانفعال:

- اقرأ يا أستاذ فتحي (وهو يمد الجريدة نحو عيني فتحي) اقرأ هذه هي الشعوب الحرة.

قرأ الأستاذ بصوت متوسط:

«مكسيكي يعتصم أربعة عشر ساعة داخل شاحنة بعد رفضه رشوة شرطي».

ثم تابع مسعد قوله:

- نحن الشعوب سبب الفساد يا أستاذ.

ضحك الأستاذ فتحي وقال ساخرا:

- أصبحت الشعوب سبب الفساد؟! هدئ من روعك يا صديقي! بالأمس قلت إن الحكومات هي سبب الفساد واليوم الشعوب.

انفعل الأستاذ مسعد وهو يرد:

- المواطن جزء من الفساد. تخيل لو رفض المواطن إعطاء الموظف رشوة وعرف المواطن حقوقه وما ينُص عليه القانون، حتما سيباد الفساد. صمت المواطن على الفساد فساد. أظن أني سبق وقلت لك ذلك.

- المواطن مجبر على دفع الرشوة.

- ومن أجبره؟! (يخاطب جميع المدرسين) لو رفض الجميع دفع الرشوة لصلحت الأوضاع. يا صديقي! المواطن العربي جزء لا يتجزأ من الفساد... (صمت يستجمع أنفاسه ثم تابع) الخطأ من كلا الطرفين، من المواطن والموظف.

رد الأستاذ فتحي معترضاً على رأي مسعد:

- يا أستاذ مسعد! لا يجوز التعميم. هناك مواطن ظالم يدفع رشوة لنيل شيء ليس من حقه، ومواطن صاحب حق يدفع الرشوة من أجل أن ينال حقه. وهناك ظالم من الطرف الآخر يتلاعب ويدعي أن ملف المعاملة ناقص وهو كامل. ولا نهضم حق الشرفاء من المواطنين والموظفين. تجد الشرفاء في كل مكان يطأه قدمك، وإلا خسف الله الأرض ومن عليها. كن عاقلا! لا مانع من التعبير عن رأيك. أنت إنسان مثقف ولك حضور في المجتمع ولكن بعدل دون التعميم.

– جل همي هو هذا الوطن. أنا أحب وطني، أنا....

قاطعه الأستاذ فتحي ناصحا:

– حب الوطن بتربية الأجيال القادمة. نحن تربويون ونحمل مسؤولية كبرى على عاتقنا. ويجب أن نكون على قدر المسؤولية. إذا صلح الجيل الجديد، سيفعل أشياء لم نقدر عليها نحن.

فجأة، اقتحم المدير القاعة وهو يصرخ في وجه الأستاذ مسعد:

– أنت هنا كالعادة تقرأ الجرائد ولا تقوم بعملك. سأرفع عنك تقريرا. أنت أستاذ الفاشل.

تدخل الأستاذ فتحي:

– خيرا يا سيادة المدير؟!

وجه المدير يشير إلى الأستاذ مسعد وهو يخاطب الأستاذ فتحي:

– حضرة الأستاذ المحترم جالس هنا ولا يقوم بعمله. أبعدته عن التدريس ليتابع الطلاب عند الطابور الصباحي وعند فترة الاستراحة. ولكنه لا يقوم بعمله. تصور يا أستاذ! وجدت طالبين يدخنان في إحدى زوايا فناء المدرسة وسيادة الأستاذ جالس هنا. بدلا من متابعة الطلاب يقرأ الجرائد. هذه ليست مدرسة. إنها مهزلة! هل أصبحت المدرسة سبب فساد الطلاب؟! (أدار وجهه نحو الأستاذ مسعد مخاطبا) أنت تتكلم عن التقصير وأنت أحد المقصرين.

نطق الأستاذ مسعد محاولا امتصاص غضب المدير لشعوره بالذنب:

- آسف سيادة المدير. هذا خطأ لن يتكرر مرة ثانية.

- اذهب حالا إلى مكتبي للتعرف على الطالبين، ثم إلى فصليهما ليمنعا من الدخول إلا بإذن خطي مني حتى أستدعي وليي أمريهما.

★★★

وصل جاسر نبيل إلى دولة خارجية في إطار عمل متطلب كل ثلاثة أشهر وأحيانًا كل شهر حسب الأوضاع الداخلية للبلد. أيام قضاها في الاستجمام يليها اجتماع هام مع مرؤوسيه في صالة الاجتماعات التابعة للفندق. إنه ملك لشركاء جاسر من دول متحالفة، وهو مخصص للقاء العاملين تحت إمرة هؤلاء وإقامة الزوار فيه أمر طبيعي كفندق. ويبقى الهدف الأساسي من بنائه للالتقاء والاجتماع مع من يمثلهم ويعمل لديهم في كواليس الأنظمة. في الصالة، جلس جاسر وثلاثة من مرؤوسيه حول طاولة مستديرة، إضافة إلى مترجم. قدم جاسر ملف عمله للشهر الأخير وراح يشرح المشاكل التي واجهها مؤخراً:

- مع أني أنجزتُ ما طُلب مني وبدأ المردود يكبر بشكل غير عادي، آخرها حاويات مضادة الدروع. برغم أن المتسلم له تقصير في تخزين بعض من الصفقات حيث كشف منها القليل إلا أن نسبة النجاح كبيرة إلى حد الآن.

واجهتُ مشكلة الإيقاع بالرجل الأمني (فاروق) إنه رجل محتاط وذو خبرة عالية ونزاهة. لا يغريه المال ولا النساء، يكره الرذيلة. حاولنا الإيقاع به عن طريق فتاة. كانت الخطة استدراجه إلى الفندق أو شقة ويتم تصويره. تم إعداد الخطة بشكل متقن. أوقعنا الكثير

إلا هو. حاولنا استدراج ابنته عن طريق شاب وسيم. هي طالبة في آخر عام من الثانوية، ففشلنا. وعلى ما يبدو تحمل سمات أبيها. منذ أن أوكلت إلي مهمة «الاستدراج»، لم أواجه شخصية كالعميد فاروق. الاستدراج أنجع وسيلة. برأيي وحسب تجربتي، لا أحد يستطيع مقاومة إغراء النساء إلا فاروق. لذا، جندنا فراش مكتبه، نجحنا في القضاء عليه. (يخرج من حقيبته ذاكرة صغيرة ويضعها على الطاولة وهو يقول) كل شيء هنا في هذه الذاكرة.

أيضا، تخلصنا من مالك شركات الفردوس واشترينا أسهم الشركات من الورثة وبقى لنا وريث واحد وسنتغلب عليه.

يزعجني شخص في الدولة، كثُرت زياراته وطلب المال مقابل الحماية. أود منكم السماح لي بالتخلص منه.

هز أحدهم رأسه وهو يقول:

- من يطلب المال فاوضه ولا تتخلص منه. نحتاجه، نحتاجهم.

قال الآخر وهو يتطلع في ملف جاسر:

- نحن مرتاحون منك ومن فريق عملك. برغم بعض الإخفاقات، نثق بكم وبمجهوداتكم وقدراتكم. قريباً، ستصبح رمزاً وطنياً. كثف من أعمالك الخيرية ووزع على الفقراء القمح والسكر. قم بزيارة المستشفيات الحكومية وقدم الدعم كالأدوية والهدايا للمرضى في المناسبات الدينية. ولا بأس لو بنيت مركزاً خيرياً لعلاج السرطان ومركزاً لغسيل الكلى. وبين الحين والآخر، سنرسل لك فرقاً طبية لعلاج الحالات المستعصية ومعها ستصلك توجيهات ويمكنك طرح الاستفسارات، وستلقى

الجواب لأن سفرك ليس بالجيد في الوقت الراهن. لا تسافر في المرة القادمة إلا بتوجيه. (سحب ورقة من أمامه وراح يشير بقلمه إلى بعض النقاط وهو يتابع كلامه...) قم بتأسيس قناة دينية، استقطب رجال الدين المتشددين للعمل بها وسيتقدم لك من يعمل تحت إمرتنا وأنت لا تعرفهم ولا داعي إلى أن تعرف من يقدم البرامج. المهم الأهداف. حرية التصادم النسبي والتدريجي بين المذاهب. إحياء فتاوى عابرة وغابرة وأشياء أخرى، مقدمو البرامج سيكونون على علم بها. المهم لا تعارض رجال الدين. ادعم القنوات الدينية الأخرى ما استطعت واغمر الصحفيين المؤثرين بعطفك. أمن لهم مستقبلهم الإعلامي والمالي من خلال رواتب جيدة يسيل لها اللعاب أسوة بزملائهم في القنوات الأجنبية. احرص على إيجاد نسخ لأجهزة البث والمواد الإعلامية بأماكن متفرقة وسرية للغاية. ركز على استقطاب الصحفيين الذين اعتقلوا في حوادث متفرقة. فإن فيهم كرهاً وأحقاداً لا حدود لها ضد جهاز المخابرات. اجعلهم يجهزون مواد إعلامية ضد الجهاز ويتم إرسالها بشكل دائم لمواقع قنوات مؤثرة عبر مواقعها الالكترونية. وهي ستقوم بعملها (يناوله ورقة وهو يقول) في هذه الورقة أسماء الوسائل الإعلامية وعناوينها الالكترونية الخاصة بهذا الهدف.

مشروعك السكني الأخير فيه ثلاثة ألف شقة. سيتم تسليمك خطة عمل. مسابقة غير مسبوقة لشباب اليائس وخريجي الجامعات تحت تغطية إعلامية كبرى. الجوائز ألف وحدة سكنية أو أكثر توزع لشباب حسب الوضع المؤثر هناك. أظهر

نفسك في صورة متبني الشباب. تسليم الجوائز بعد قرعة عشوائية (يانصيب) تحت اهتمام حكومي خاص، هذه طريقة تلفت أنظار الشعب إليك ويمنحك ثقة نفسية وحباً مطلقاً والخطوة التالية ستصلك في الوقت المناسب.

تحدث الثالث بإشارة ممن سبقه بالكلام:

— لدينا معلومات تفيد بأن شخصية أرفع من التي تأتي إليك وتطلب المال مقابل الحماية. سيطلب لقاءك قريباً وسيطلب أكثر بكثير مما كنت تدفعه لقاء الحماية. فاوضه وكن واثق النفس وادفع له ما تره مناسبا، من خلال هذا التفاوض ستدخل مرحلة جديدة تساعد على تعميق شركاتنا هناك. لا تكن بخيلاً حين يتوجب أن تكون كريما. الدولار الذي تدفعه هو شيك بعشرة دولارات. ثق بصادق. إذا نصحك فانتصح. نحن لا نقويه عليك بل نجعله سنداً لك. ستكون أنت الأقرب للمواطن ومحل ثقة الجميع. أنت فارس أحلام الوطن ومنقذ الاقتصاد من الهلاك. سيطرتك على الميناء الرئيسي والمنافذ البرية عبر العمال لا تكفي. ستسلم لك خطة للتعاون مع شركة دولية بقصد الاستثمار. ساعدها في تطوير وإدارة الموانى والمنافذ البرية.

تكلم الرجل الثاني بإشارة من الأول وهو يمد ورقة إلى جاسر دون فيها أسماء:

— هؤلاء ممن يعملون معك في الشركات والحراسة الأمنية. هم عملاء للجهة الأمنية. هذا أخطر موضوع نتحدث فيه بهذا الاجتماع. لا تعزلهم، فقط أسس شركة ورقهم فيها. لا تنقلهم

لوحدهم، بل مع الكثير ممن يعملون لديك. واجعل هذه الشركة تعمل بإخلاص واحترام للقانون. أما حراسك وهم اثنان، اجعلهما يرافقانك في أعمالك الخيرية. وامنع دخول الحرس إلى الطابق الذي فيه مكتبك. وكن حذرا منهم! فمن السهل وضع أجهزة تنصت في سيارتك. اصطحبهما معك إلى الحج....

قاطعة جاسر مستغرباً رغم عدم التعود على المقاطعة والاعتراض في هكذا اجتماعات:

– الحج؟!

– موسم الحج قريب، اذهب إلى الحج وهما يرافقانك.

– ما لي والحج؟ (باستغراب، تساءل)

– رجل صالح يزداد حب الناس له.

– لا أهوى الذهاب إلى الحج.(قالها كأنه معترض)

– اذهب وافعل ما يفعله الملايين. ودر حول الكعبة كما يدورون. ولا بأس، لو ينادونك الحاج.

– سأفعل.

– وزر المساجد، كل جمعة في مسجد، ولا تسمح لأحد بنقاشك دينياً.

أراد المتحدث الأول إنهاء الاجتماع:

– هذا كل ما لدينا الآن. غدا، سيأتيك مساعدي ومعه ملفات الخطط وإمكانيات التنفيذ لدراستها.

★★★

الثانيـة ظهـرا، الأسـتاذ فتحـي في مدخـل الحـي في طريـق العودة من مطعم متواضع ذهب إليه ليشـتري نصف دجاجة مشـوية له ولأمه. ولأنه مقاطـع أبـو أحمـد البقـال، فقـد اشـترى مشـروبا غازيا من خـارج الحي.

مـرّ مـن أمـام منـزل ليسـتوقفه منظـر مدهـش. وجـد طفلـة في السـابعة مـن عمرهـا. ابنـة أحـد سـكان الحـي. بسـطت الـتراب ووضعـت حدودا لمربـع تحيـط بـه أحجـار متوسـطة الحجـم مـن الأربـع جهـات لتنفـرد بمربـع حجمـه يسـاوي المتريـن، لترسـم لوحـة علـى الأرض، لوحتهـا الـتراب المرصع. ريشـتها سـكين أحضرتـه مـن منزلهـا أخذتـه خلسـة. أمسـكت السـكين مـن النصـف ونحتـت عليـه أشـكالا جميلـة. قلـب عليـه خطـوط، وعلـى يمـين القلـب وردة وكذلـك شمالـه، ومـن تحـت القلـب نجمـة يحيـط بهـا مربـع.

حـاول الأسـتاذ قـراءة هـذه الرسـمة وفـك اللغـز الـذي يـدور مـن حولهـا. مـاذا تعـني هـذه الرسـوم لطفلـة؟! حتمـا، هنـاك تعبـير خـاص بهـا وإسـقاط لأفكارهـا. القلـب، هـل يعني الحـب؟ وهل أدركـت الطفلة الصغـيرة معنـى الحـب؟! مازالـت صغـيرة على مثـل هذه التسـاؤلات؟! وهـل استشـعرت مـا في قلـوب الآخريـن؟! إنهـا تحمـل معانـي الحـب الطفولـي، مـاذا تقصـد بالـورود؟! إنهـا تقصـد مـا قصـدت مـن وراء القلـب، أو ربمـا الحيـاة، ولكـن مـاذا تقصـد بالنجمـة؟! هـذا مـا لا أعرفـه. هـذا مـا تمتـم بـه الأسـتاذ قبـل أن يتحـدث إليهـا:

- رسم جميل! ماذا تقصدين بهذا الرسم؟!

أخفـت السـكين خلـف ظهرهـا، حدقـت في وجهـه وهـي جالسـة علـى الأرض ثـم ابتسـمت وظلـت صامتـة. ربمـا أحسـت أنه سـيعاتبها.

فلـو وجدتهـا أمهـا سـتعاقبها لحملهـا سـكينا.

أعـاد لهـا السـؤال بعـد أن دنـا منهـا وقبلهـا. لم تجبـه، فقـال لها:

- أعدك أن أحضر لك عدة رسم في المرة المقبلة.

ظلـت تحـدق في وجهــه في صمــت، قبلهــا ثانيــة ثـم أســتأنف طريقــه إلى منزلــه.

تناول وجبة الغداء. جلس إلى طاولته الصغيرة ليتناول جريدة ويقرأها.

قبـل ظهـر هـذا اليـوم، تعـارك (ابـن سـيف) الـذي يبلـغ مـن العمـر خمـس سـنوات مـع (ابـن عمـه حصـين). وأثنـاء الشـجار جـاءت زوجة حصـين فانتصـرت لابنهـا المهـزوم الـذي يكـبر ابن سـيف بأشـهر قليلة.

ذهـب ابـن سـيف إلى أمـه شـاكيا. هـذا الحـدث أغضب أمـه. تركت مـا بيدهـا لتعـارك زوجـة حصـين. وبعـد مشـادة كلاميـة، بـدأت معركة حاميـة تدخلـت علـى إثرهـا النسـاء ووضعـن حـدا للعنف.

قبـل دقائـق، اشـتكت زوجـة سـيف لزوجهـا وأثـارت غبـار الفتنـة. ذهـب سـيف ليطلـب مـن أخيـه تربيـة زوجتـه لأنهـا قليلـة الأدب. غضـب حصـين لهـذه اللهجـة ولوصـف زوجتـه بــ (قليلـة أدب) رد متهمـا بـأن زوجـة سـيف هـي (قليلـة الأدب) لا زوجتـه. هنـا، اشـتد غضـب سـيف، رأى في أخيـه شـخصا يجـب تربيته حتـى وإن كان أكبر منـه. مـد يـده ليمسـك بقميـص أخيـه، وجـد حصـين نفسـه في موقـع المهـان وعليـه الدفـاع عـن نفسـه ليمـد يـده ويصفـع أخـاه علـى وجهـه. ثـار سـيف وتحـول إلى ثـور أهـوج وكأنـه في مصارعـة لثـيران لينحـني وينطـح أخـاه في صـدره ليقذفـه بعيـدا. فقـد كلاهمـا أعصابـه وتشـابكا

بالأيـدي وراح كل واحـد ينـال مـن الآخـر حتـى سـقطا علـى الأرض. وأخـيرا، نـال سـيف مـن أخيـه حينمـا تنـاول حجـرا ليقذفـه علـى رأسـه ويحـدث بـه نزيفـا. زاد هيجناهمـا، تعالـت أصـوات الزوجتـين. الاسـتغاثة وصلـت إلى مسـامع الأسـتاذ فتحـي، رمـى الجريـدة علـى الطاولـة، هـرع لـيرى مـاذا حـدث؟! أصبـح شـاهدا علـى ملحمـة بـين أخويـن ولـدا مـن بطـن واحـدة. تدخـل الأسـتاذ مـع بعـض الذيـن حضـروا إلى مصـدر الأصـوات المتعاليـة ليفضـوا المعركـة. مـا حـدث أغضـب الأسـتاذ فتحـي. أصـر علـى طلـب الشـرطة لأن جريمـة قتـل كادت تحـدث. ضمـد الأسـتاذ جـراح حصـين حـين أمـر أحـد الأهالـي باسـتدعاء الشـرطة لوضـع حـد لهـذه المعـارك المتتاليـة والـتي وصلـت إلى مرحلـة الشـروع بالقتـل والانتقـام.

***

اجتمـاع سـري للعقيـد عمـر ورفاقـه في مبنـى قصديـري خـارج العاصمـة في منطقـة معزولـة وتحـت حراسـة سـرية. جلسـوا جميعـا حـول الطاولـة ينصتـون إلى العقيـد قائدهـم الجديـد بنـاء علـى أمـر العميـد فـاروق قبـل اغتيالـه. جميعهـم مستشـعرون صعوبـة الوضـع وخطورتـه. لـذا، بـدوا منصتـين والعقيـد يقـول:

- اغتيـال العميـد ضربـة علـى رأس كل واحـد منـا. لـو طرحنـا علـى أنفسـنا سـؤالاً، لمـاذا العميـد فـاروق دون غـيره؟ قـد يكـون مـن أكثـر الجاديـن والمتمكنـين في العمـل. هـو الوحيـد الـذي لم يرضـخ للضغوطـات. أمثالـه غـيروا مواقفهـم فجـأة. وهـذا يثـير التسـاؤل حـول انتمائهـم الفعلـي في الأمـر الواقـع ونوعيـة الضغوطـات.

ما يؤرقنا أن هناك محاولة لإنشاء ودعم جماعة متمردة في الشرق للمطالبة بالانفصال. لذا، علينا العمل في إطار الجهاز وخارجه تلبيةً للواجب والحفاظ على التراب الوطني. عملنا في الجهاز جمع المعلومات والتحرك تحت الأوامر. وخارج الجهاز، نكون أحراراً نقوم بما نراه مناسبا لحماية الوطن. كلٌّ منكم يعرف عمله، والأهم هو التوسع والبحث عن الرجال الوطنيين للانضمام إلينا هذا دور كل واحد منكم. أنتم تعرفون كيف يتم ذلك. ما نحتاجه الآن رجال مخابرات يعملون بالشرق للمساعدة. من منكم يمكنه الثقة بضابط يعمل في الشرق؟

أجاب الملازم عفيف:

- ما رأيك بالاتصال بالعقيد أحمد قرطابي؟
- العقيد أحمد.... يمكن أن يفيدنا ...(هكذا قال العقيد عمر)
- العقيد أحمد كان أستاذا في كلية الشرطة، تدرب على يده الكثيرون. وعندما بدأت تظهر بؤر التمرد، أرُسل لقيادة المخابرات الميدانية في الشرق. إنه وطني ومشهود له بذلك. (هذا ما قاله الملازم عفيف)
- اذهب إليه واطلب منه التعامل معنا وتزويدنا بالمعلومات ولا تقل له من نحن حتى نختبره. وهذا من باب الحرص لا أكثر. هل أنت على استعداد التضحية يا عفيف؟
- ولم لا. ما دمت هنا، فأنا مستعد لكل شيء.

يتوجه العقيد بالحديث إلى الرائد خالد:

- مهمتك فرز السلاح الذي صادرناه مؤخرا وتوزيعه على مخازن عدة وفي أماكن مختلفة.
- جاهز للتنفيذ.

★★★

ينهي إبراهيم عمله بعد العصر، يجمع بضاعته ويضعها في كرتون خاص بها ويودعها في غرفة حارس المسجد. يدخل المسجد ويقضي ما بين الصلاة والصلاة في الاستماع إلى المحاضرات والندوات سواء في هذا المسجد أو في آخر يعلمه به الشيخ أبو إيمان إن كان موجودا أو عتيق بنيابة عنه. في هذا اليوم، أُبلغ إبراهيم أن هناك محاضرة هامة سيلقيها شيخ وعالم جليل له شأن عظيم في الدين وهو آخر مرحلة يمرّ عليها المستقطب. سبق له وإن مرّ على مراحل عدة حتى وصلت الأوامر ليحضر محاضرة لهذا الشيخ مع جماعة يسيطر عليها. الاطمئنان لإبراهيم جاء لنتائج بحث مطول عنه وعن غيره، شاب شديد البنية، ناقم على الحياة، محبط، معدم، غيور على دينه، جاهل علميا ودينيا، يحب رضا اللّه، رغبات حميمة في إطار مشروع زواج أوشك أن يفشل، وفي النفس طراوة ملحة للعلاقة الروحية.

توجه إبراهيم برفقة عتيق إلى وجهة لم تكن معروفة لديه من قبل، استوقف عتيق سيارة وطلب من السائق نقلهما إلى خارج المدينة، إلى منطقة مهجورة تدعى (اليبابة). حقيقة، هناك اتفاق مسبق بين عتيق وسائق سيارة الأجرة المحسوب عليهم. لم يسبق لإبراهيم وأن سمع بهذه المنطقة ولا يعرف موقعها لأن تلك المنطقة سميت باسم حصري لا يعرفه إلا قاطنوه السوريون. وعلى بعد تسعين كيلو مترا

تقريبا، وصلوا إلى المكان المقصود عبر طرق ملتوية حتى لا يتعرف إبراهيم على الطريق المؤدية إلى ذلك المكان مع شغله طيلة فترة السفر بقراءة القرآن وتعليمه أسلوب التجويد مع الأخذ بالاعتبار العودة مساءً حيث يكون الظلام قد أطبق تماما على الأرض.

بعد توقف سيارة الأجرة، اضطر عتيق إلى المشي مع إبراهيم لمسافة طويلة على الأقدام عبر طرق غير معبدة معتمدا أسلوب التمويه والمغالطة في الكلام والإلهاء حتى وصلا إلى منطقة مهجورة يوجد بها الشيخ المحاضر ومجموعة قليلة من الشباب تحت أضواء القمر بالقرب من شجرة. صلاة العشاء أوشكت وما تبقى من الوقت إلا ربع ساعة. أشار عتيق للشيخ أبو معاذ المحاضر بإماءة من يده اليمنى، تقدم الشيخ وسلم على إبراهيم ثم أخذ الشيخ مكانه ليبدأ بإلقاء محاضرة قصيرة، موجها خطابه لحضور لا يتجاوز عددهم السبعة من الفتية. وبعد المقدمة بالصلاة والسلام على أشرف الخلق محمد بن عبد الله الصادق الأمين، شرع في إلقاء الكلمة التي جهزها مسبقا:

- هذه الأرض المباركة الإسلامية لا يحكمها المسلمون (فتح يديه) لا تستغربوا كلامي هذا. (اهتز جسده وهو يقول) هذه البلاد محتلة ولم يعلن بعد سقوط الدولة رسميا. احتلال هذا الأرض الإسلامية عن طريق العملاء والعلمانيين الكفار الذين أرادوا فصل الدين فصل الله رقابهم، أرادوا دولة بلا إسلام، هذه الأرض مليئة برجال المخابرات الغربية المتخفين في شكل سياح، (يهدأ ويقول وهو يمسح بيده اليمنى لحيته) من قال لكم إنهم سياح؟! ومن قال لكم إن أرض المسلمين بحاجة إلى السياحة

وتقديم النساء لهم والخمور والعياذ بالله من كل ذلك؟! هل أصبح المسلمون وسطاء ونادلي الخمور وقوادين للنساء؟! هل يسمح أحدكم أن تقدم امرأة مسلمة جسدها لسائح؟! إنهم يعمدون إلى جعل البلد منحلة أخلاقيا وفكريا. وبدل أن تحصل الدولة على أموال على الطريقة الإسلامية تحصل عليها من الدعارة. هذه البلاد يجب أن تكون مستقلة والبركة فيكم أنتم الشباب، أنتم عماد هذا الدين الذي كرمنا الله به، اصطفانا الله بالإسلام (يرفع يديه إلى السماء والسبحة تتدلى من يده اليسرى وهو يقول) اللهم نحن حماة هذا الدين وحماة كلماتك. وأنت قد اخترتنا من خيرة عبادك الصالحين لندافع عن دينك ونعيد مجد الخلافة. نقف بين يديك، ندافع عن دينك وعن اسمك، كل هذا لوجهك الكريم (ينتصب أمام الحضور ورح يخاطبهم) يا أبنائي ويا إخوة الإسلام وأحباب الله لا مكان لرجال المخابرات الأجنبية في أرض الإسلام. ولا مكان للكفار العلمانيين تربية القردة والخنازير. لا تستغربوا عندما أقول لكم إن السلطة على علم بأن رجال المخابرات الأجنبية يتجولون في هذه الأرض كما يشاءون. السلطة هي من أعطتهم تأشيرة الدخول إلى أرضنا (يصرخ وهو يهتز) ليخرج الغزاة من أرض المسلمين، ليخرجوا من أرض المسلمين..

يقف عتيق ويهتف رافعا يده نحو الأعلى:

— لا للوجود الأجنبي في أرض المسلمين.

وقف الجميع لينضموا إليه ويهتفوا مرددين:

- لا للوجود الأجنبي في أرض المسلمين.

واصل الشيخ وختم المحاضرة بالدعاء: اللهم أهلك اليهود ومن هاودهم(يردد الجمع أمين) والنصارى ومن ناصرهم. اللهم اجعلهم وأموالهم ونساءهم غنيمة للإسلام والمسلمين. اللهم شتت شملهم واسبي نساءهم واقتل أولادهم، اللهم اقتلهم عدداً وأهلكهم بددا ولا تبق منهم أحداً، اللهم عذب العلمانيين الكفار الزنادقة بأيدي المؤمنين واحشرهم في نار الجحيم. اللهم ارزق هذا الشباب (يشير بسبابته نحو الحضور) حور العين في جنة الخلد، إنك أكرم الأكرمين.

هتفوا مجددا بالموت للكفار والعلمانيين، أشار لهم الشيخ بالجلوس وواصل خطبته حتى انتهى، وأمر بالأذان ثم صلى بهم صلاة العشاء.

عاد كل واحد من الحضور إلى مكان إقامته في المعسكر. ماعدا إبراهيم فمازال حديث العهد، وفي الطريق سأل رفيقه باستغراب:

- هل كلام الشيخ عن المخابرات الأجنبية صحيح؟!

- بالتأكيد، هل عند شك في ذلك؟

- لا أشك في ذلك ولكن ما يجول في رأسي كيف سيخرج هؤلاء من أرض المسلمين.

- الرجال الذين اصطفاهم الله وأحبهم، هم من سيقومون بذلك.

- وكيف ذلك؟!

- ذلك له طرق معينة يقوم بها من أرادوا رضا الله سبحانه تعالى الذي يجازيهم جنة الخلد ويرزقهم حور العين، (تنهد) آه ليتني أستطيع فعل ذلك وأرضي الله وأكون بمرتبة الأنبياء والصحابة وأظفر بحور العين، لو قدر لي وشاركت في هذا

العمل العظيم سألقى الله وهو راض عني، سأبعث مع الأنبياء. أليس ذلك ما يحلم به المسلم؟!

- بلى والله. إرضاء الله واجب كل مسلم.

★★★

استيقظ رشيد وزوجته على أنين واستغاثات ابنتهما الكبرى ذات الربيع السابع التي كمشت جسدها ضاغطة على بطنها لعلها تخفف من شدة الألم. نقلها والدها في الحال إلى المستشفى. أبلغه الطبيب أن ابنته مصابة بالزائدة و وجب إجراء عملية جراحية لإزالتها. لم يتردد وطلب منه القيام بذلك. أجروا لها الفحوصات اللازمة قبل العملية. طُلب من الأب تجهيز قربة دم، فصيلة دمها نادرة لأنها مصابة بمرض فقر الدم الحاد المكتسب وراثيا.

رشيد لديه نوع من الخبرة في فصائل الدم لأنه تعود على التبرع بشكل منتظم. أدرك حجم هذا الطلب إذ يتحتم عليه القيام بمجهود غير عادي من أجل الحصول على فصيلة الدم النادرة. وبما أن المستشفى عام فكثير من الأشياء تكون معدومة لأسباب معروفة. الخيار المتاح أمام رشيد الرجوع إلى الحي وأخذ زوجته لفحص فصيلة دمها، لأنه أرادها في بداية الأمر أن تظل إلى جانب والدته. في المستشفى، أجرى لها فحص الدم وأظهرت النتائج عكس ما توقع، فصيلة الأم مختلفة عن فصيلة ابنتها. عاد إلى الحي، تحدث مع أحد السكان بمضمون حاجته، شاع الخبر بينهم وحضر الكثيرون إلى المستشفى. أجريت الفحوصات الواحد تلو الآخر والأب والأم على أحر من الجمر. لم يتحقق مبتغاه. برغم أن الأهالي لم يتهاونوا من الوقوف إلى جانبه، إلا أنهم ظلوا في مثل

هـذا الموقـف عاجزيـن لا يـدرون مـاذا يصنعـون. في مثـل هـذه الحالات، وجـب المـال للحصـول علـى الفصيلـة النـادرة في ظـرف قياسـي. ولذلـك طـرق عديـدة ولكـن لم تظهـر لرشـيد إلا طريقـة واحـدة، عنـد قـدوم أحـد عمـال النظافـة في المستشـفى، قـال أقـرب إلى الهمـس والسـرية:

– طلبك عندي.

قال رشيد بالهفة:

– أنا في أمس الحاجة لذلك.

أخـرج عامـل النظافـة مـن جيبـه ورقـة فيهـا رقـم هاتف وهـو يقول:

– اتصـل بهـذا الرقـم وأخـبره بطلبـك. وخـلال نصـف سـاعة أو أقـل، تجـد طلبـك أمامـك. وحقـي محفـوظ عندك.

تناول الورقة وهو يتساءل:

– ماذا تقصد؟!

– لقاء خدمتي.

أدرك رشيد للتو بعضاً من المقصود:

– لكني لا أستطيع دفع مقابل.

– يـا سـيدي، المتـبرع بخيـل. لـدي معرفـة سـابقة بـه. يأخـذ ثمن دمه ولا يعطيـني لقـاء إحضـار الزبـون ويضعـني في موقـف محـرج معـه.

بان لرشيد القصد فاستوضح:

– أيريد المتبرع لقاء ذلك مالاً؟!

- أيقدم أحد هذه الأيام شيئا مجانا، لا شيء أغلى من الدم.
- لكن هذه الطريقة محرمة شرعا.
- المتبرع بحاجة إلى تغذية خاصة، هل ينفق على حسابه الشخصي؟! أمر غير مقبول.
- غير المعقول بيع الدم، وكيف تسميه تبرعا؟
- يا سيدي! إذا كنت لا ترغب في دفع حقي، فأنا مسامح لك. أما المتبرع فلن يعطيك قطرة واحدة إلا والثمن في جيبه.

هز رشيد رأسه وهو يقول في سره: «السمسرة امتدت حتى إلى المستشفيات. لا حول ولا قوة إلا بالله» ثم قال لعامل النظافة:

- أولا، أنا لا أستطيع شراء الدم لأني بذلك سأغضب الله سبحانه وتعالى. ثانيا، لو لم يكن ذلك حرام، فما كنت أستطيع شراء الدم لأني فقير ومعدم. وأنا على ثقة بأن الله قد كتب لي ولابنتي قدرنا قبل أن نولد. إذا كان المكتوب أن ابنتي ستنجو، حتما ستنجو، والله معنا.

ظل رشيد في مأزق حتى تجاوزت الساعة الثامنة صباحا وهو يحضر المتبرعين ولم تتطابق فصيلة أحد مع دم ابنته. في نهاية المطاف، اضطر رشيد صاغرا أن يهاتف المتبرع ويجمع ما لديه من مال.

هذه الحالة التي وصل لها المستوى الإنساني. لم يعد معلوما هل من حق المتبرع تلقي المال لقاء دمه لأنه فقير ويحتاج إلى تغذيه لتعويض الدم المسحوب منه؟ أم أن المتبرع ربما يصرف المال في أغراض أخرى غير التغذية؟ أم يفترض به أخلاقيا أنه يتبرع بدمه ويتسول مقابل التغذية؟ هذه من تناقضات الإنسان ومحتوياته وخلل

غير مفهوم، أين الصواب؟ (تساؤلات رشيد بعد مهاتفة المتبرع...)

★★★

توافد أهالي الحي على منزل العريس سامر والعروس نرمين محملين بالأطعمة الشعبية والهدايا المتواضعة وراحوا يحتفلون بالعرس. النساء يزين العروس ويزغردن. أطلق الرجال العنان للحناجر لتغني بشكل جماعي، وراحوا يدورون حول العريس. في هذا الحفل الليلي، وقف الأستاذ فتحي أمام جماعة شرعت بالرقص، أخذ مكان المتفرج وهو يتحسس قلبه تارة ويبتسم تارة أخرى. هذا الإنسان قنوع بما أعطته الدنيا. كانت لنرمين مكانة في قلبه وضعها في حساباته المستقبلية حتى يستقر في عمل ثان يساعده على بدء حياة أكثر تحسنا ويتقرب منها، إلا أن القدر حال بينه وبينها دون ذلك. فوجئ في الفترة الماضية بخبر خطبتها. مما جعله يكتم مشاعره مقررا نسيان ما فكر فيه مباشرة والاستمرار في حياته. فهو لا يؤمن بما في أفلام السينما من حب وصراع، بل يؤمن بالحظ. فلو كانت من نصيبه، لكان اليوم عرسه، سلم أمره لله في هذه اللحظة وعاد يبتسم بمرارة.

وبعد حفلة بعثت الفرح في قلوب قوم بؤساء، استقبل سامر عروسه في احتفال جمع جميع السكان تقريبا. الحي جميل بالفرح والطرب والرقص وكأن هذه الفرحة الأولى في حياة أناس يأسر بالهم نقص في المعرفة وقلة في الخبرة الدنيوية المنحدرة من فلق التعليم.

نُقلت العروس إلى منزل العريس بموكب من أهلها وأهله. مازال المحتفلون حتى هذه اللحظة في الخارج يكملون سهرتهم. هذا ما يقتضيه العرف في تلك المنطقة مستغلين مصابيح السماء المحاطة

بالقمر المنير. ولفترة لم تكن معروفة للجميع قضي منها بسبب الزهو والرقص، خرج صوت أسكت الجميع، صوت مذهل ومخيف ومرعب. ترك الجميع أماكنهم وتوجهوا نحو مصدر الصوت. ها هو سامر يجادل العروس، وأبوي سامر اللذين شددا حول على الطلاق والانفصال عن نرمين فوراً، طعنت بشرفها. أشتد انفعال سامر أكثر، يسحب نرمين من شعرها ويتلفظ بأبشع وأقذر الألفاظ وملقيا عليها تهمة الشرف. الدم يغطي شفتيها بفعل صفعات تلقتها من يديه الغليظتين. تصرخ بصوت بالكاد يُسمع وهي تقول « لم أفعل شيئاً، أرحمني، لم أفعل شيئاً.» اختلطت دموعها بدماء شفتيها وهي تتعصر ألما وخجلا وهي تجر كشاة بها عيب للذبح حتى لا تشوه باقي القطيع. رماها أرضا واستمر بقذفها بوابل من الشتائم لها ولأهلها . فهم الجميع السبب. فالفعل يترجم القصد والسبب في هكذا حدث.

على الأرض، يمتد نصف جسدها ويدا تسندها والآخر ممدودة للتوسل، ضاع مكياجها ورونقها وتلطخت ملابسها الجديدة، هول الصدمة أربكها تماما (يارب... ما ذنبي... طاهرة...). وفجأة، اخترق الجمع الذي توافد بالحال إلى ذلك المكان والد وأخو العروس نرمين بوجهين يتطاير منها الدم. انقضا عليها بغرض قتلها لتلطيخها سمعة العائلة. صراخها واستغاثتها دويا في أرجاء المكان. أما الأهالي، فقد انقسموا إلى قسمين، منهم مؤيد لغسل المكان بالدم، ومنهم من عارض ذلك مكتفيين بتبرؤ أسرتها منها. وهذه الفئة أقلية لا تتجاوز عدد الأصابع. مؤيدو قتلها تناقلوا التأييد بين بعضهم البعض ساخطين من هذا الوضع المهين لقيم الإنسان

والمستهجن من قبل الجميع. تدخل المعارضون لإنقاذ حياة نرمين من القتل ومدافعين عن فكرة التبرؤ. الأستاذ فتحي دافع عنها ببسالة حتى جذبها إلى خلفه مناديا: «ليطلب أحدكم الشرطة».

تبوأ مؤيدو قتلها دور المتفرج. منهم المتشفي ومنهم الساخط. وقبل ووصول الشرطة، تناقل الناس فيما بينهم ما لم يكن في الحسبان، «إذا سقط العجل كثرت السكاكين». هذه المقولة أصاب من قالها. عديمو الضمير لا يفوتون فرصة كهذه دون الخوض في القيل والقال وخرجهم عن الأسلوب اللائق. فلا حرمة لعورات الآخرين، لا تقدير لوضع حرج جعل من الأب إنسانا مهتوك العرض، الأم شوهدت وهي تضرب وجهها براحتيها وتخدش جلد وجنتيها من شدة الشعور بالذنب لتقصيرها وعدم قدرتها على تربية ابنتها.

طالت الألسن، ألسن لا حدود لها. من سمع بالأمر أخبر من لم يسمع. ومن سبق له أن سمع أراد أن يسمع للمرة الثانية والثالثة.

تناقل الناس خبرا مفاده أن هناك من شاهد سيارة مرسيدس توصلها إلى أمام الحي. هذا يؤكد صحة هذه الخبر، وزادوا على ذلك بأنها تعمل بملهى تابع للمطعم الذي تعمل به. وهذا يقول إنها كانت ترمقه بنظرات مشبوهة. وآخر يقول إنها وقعت فريسة شاب من أبناء الحي.

اصطحبت الشرطة معها نرمين ووالدها وزوجها إلى قسم الشرطة. حرر محضر وتم الاحتفاظ بنرمين حيث حولت إلى قاضي التحقيق في صباح اليوم التالي. الضوضاء تواصلت طيلة الليل. والدها صب جل غضبه على زوجته لأنها أهملت تربية ابنتها.

في صبيحة اليوم التالي، أمر قاضي التحقيق بإحالة نرمين على الطب الشرعي. ذهب أهل العروس والعريس إلى قسم الطب الشرعي في المستشفى العام بانتظار الفحص. جلس زوج نرمين بوجه واضحة عليه علامة الغضب وبجانبه والدته على أحر من الجمر. أما أم العروس، فجلست وحيدة مطأطئة رأسها وهي تدعو الله: «أن يستر ابنتها وأسرتها».

وقفت هناك نرمين تسند ظهرها على زاوية، نيران تتوقد كل ثانية في صدرها هي واثقة من نفسها. لكن (ماذا حدث لي؟! يارب لم أقترف ذنباً، لمَ أنا؟!) ترمق أمها بنظرة وهي متطئطئة الرأس، منهارة، مزقت جلد وجهها محملة نفسها المسؤولية لتقصيرها في تربية ابنتها. تعود لتنظر إلى أبيها وهو يهتز غضبا منتظراً الفرصة لقتلها. تفكر (سانتحر...)، كيف تنفذه، جاءتها فكرة الصعود إلى أعلى سطح المستشفى وتلقي بنفسها، قررت وصممت على التنفيذ فورا، تزحزحت من زاويتها قليلا تراقب وأبويها لتنسل من تحت ناظريهما، خطت الخطوة الأولى وإذا بالمرضة تمسكها من يدها جاء وقت دخولها لغرفة الكشف، جذبتها من يدها وهي تبتسم لها. هذه أول ابتسامة تجدها من بداية الحدث، ابتسامة غريبة لها في هكذا موقف. خطوتين وطوقت المرضة ذراعها على خصر نرمين لتمشي بها، تلك اللمسة لها إثر وشعور غريب ربما لم تجد له وصف في هكذا لحظة عصيبة لا تتمناه فتاة شرقية رُهن شرفها بكم نسيج وقطرات من الدم.

بعد هنيهة، شمخ رأس الأم عندما أعلمها الطبيب نتيجة الفحص مؤكدا أن «الغشاء تمزق حديثا» محررا بذلك تقريره الطبي

بنسختين لقاضي التحقيق ووالد العروس، انفرجت أساريرها، زغردت، استبدلت الأم التكشيرة بابتسامة. إلا أن الزوج لم يقتنع بما صرح به طبيب الإرشاد النفسي. اعترض قائلا «هذا الكلام غير معقول» محتارا هل يصدق نفسه أم الطبيب. طلب توضيحا من الطبيب. قال له الطبيب إن حالة زوجته من الناحية العلمية حيث لا يسيل الدم بالشكل المتوقع.

لم يقتنع بما قاله الطبيب قائلا له: «لم يسبق وأن سمعت بما تقوله»، قال الطبيب له ولباقي أفراد الأسرتين أن هناك عدة أنواع من الأغشية. أشار لهم أن دراسة عالمية نشرتها مجلة اللانست البريطانية أظهرت إلى أن ١٦ بالمائة من النساء المتزوجات لا يفقدن الغشاء إلا بعد الولادة الأولى. أما زوجته، فهي ليست من ضمن هذه النسبة المئوية. مع العلم أنه قد يزول خلقيا، أو بسبب مرض، أو عارض سقوط، أو التعرض لاحتكاك جسم رصين أو حاد. خاصة صغيرات السن اللواتي يلعبن على المراجيح والألعاب أو يركبن الدراجة الهوائية.

على بعد ثلاثة أمتار من الطبيب ومن حوله أفراد الأسرتين يحاولون فهم ما حدث، وقفت نرمين إلى جانب عتبة غرفة الفحص تمتزج لديها مشاعر الفرح بدموع الحزن على محياها وهي تحاول التقاط أنفاسها بعد أن تكسرت أحلامها ولاكتها الألسن وخاض العامة في شرفها.

توجه الجميع إلى مكتب القاضي. بعد أكثر من ساعة، وقف الزوج وزوجته ووالدا العروس أمام القاضي، قرأ نتيجة الفحص. وقبل أن يتفوه بكلمة واحدة، فاجأته نرمين وهي تطلب إقامة

دعـوى تفريـق للضـرر الـذي مـس شـرفها. صُـدم الـزوج، قـدم أعـذاره لهـا في حضـرة القضـاء، إلا أنهـا أصـرت معللـة أنهـا سـقطت في مسـتنقع الاتهامـات بوقوعهـا بالرذيلـة وبأنهـا تعرضـت لضغـوط نفسـية واجتماعيـة. حـاول الأب الضغـط عليهـا بالعـدول عـن قرارهـا، كـرر سـامر الاعتـذار لنرمـين ولأهلهـا، طلـب منهـا السـماح بـإذلال يحـاول إقناعهـا بالعـودة معـه إلى المنـزل ونسـيان مـا حصـل ويبـدآن صفحـة جديـدة (ببسـاطة، وكأن شـيئاً لم يكـن). قابلتـه بجسـدها الـذي شمـخ مؤخـرا وزاد عرضـا وطـولا، عيناهـا تحولتـاً إلى أنيـاب أسـد يـزأر، (مـاذا؟!) تقـرب أذنيهـا منـه ليكـرر مـا قالـه، كـرر قولـه بأكثـر ضعفـا مـن ذي قبـل، كلمـة كأنهـا ألـف طعنـة قاتلـة (ببسـاطة؟!). شـعر سـامر بشـيء يوثـق يديـه ويضغـط جسـده، إنهـا نظراتهـا كالسـكاكين الماضيـة. إلا أنهـا رفضـت بشـدة. ممـا اضطـر القاضـي إلى تلبيـة مطلبها.

قـررت نرمـين إعـادة اعتبارهـا بتلاشـي أحلامها. وتعود بعد سـاعات إلى منزلهـا بمـأتم مـن الحـزن بعـد خروجهـا منـه باحتفـال مهيـب. إلا أنهـا أظهـرت وجهـا مـن الشـجاعة لمقاومـة ضغوطـات المجتمـع. هـذه هـي الشـخصية الحقيقيـة الـتي تسـكن بداخـل صدرهـا، صلابـة، مقاومـة لصعوبـة الحيـاة والمحيـط، لا تتهـاون مـع مـن أخـذ حقهـا حتـى ولـو كان ثمـن ذلـك حياتهـا. برغـم شـعورها بغصـة في حلقهـا وغضـب عـارم اجتـاح جسـدها، إلا أن الثبـات مدها بشـيء مـن الحكمة والصـبر لتـترك غرفتهـا بعـد دقائـق مـن عودتهـا إلى منزلهـا لتخـرج إلى المنتـزه العـام تقضـي سـاعات وهـي تحـاور العـدم وأشـجار المـكان وليـس بيدهـا شـيء لتصنعـه سـوى البـكاء الحـارق والتحمـل. الورقـة الـتي كانـت بيدهـا اسـتهلكتها. طلقـت زوجهـا. وهـذا أضعـف الإيمان.

اعتبر الأستاذ فتحي هذا اليوم أسوأ يوم في حياته وهو يرى من كانت تحمل مكانة في قلبه قد هتكت وأستبيح عرضها. أمسى ساهرا متألما من شدة الخجل. شعر بمشاعر نرمين. وبعد وصول خبر خلعها لزوجها، استشعر استرجاع جزء من الكرامة المفقودة لتلك الفتاة.

طرق بيت نرمين، انه سامر جاء محاولا بعد أن مضى على الحادثة أسبوع، لعلها تراجعت وخف غضبها. تحدث للأب واتفقا على استدعاء نرمين لسماعه لعلها تعود إليه. سمعت نرمين كل تبريرات سامر، وكذلك الأب الذي انحاز للاعتذار ومنحها عقداً من الذهب لترضيتها. الأب ينظر إلى مستقبل ابنته مع هذا الزوج لأنه بمفهوم عام ربما تبقى بلا زواج وستبقى الألسن تلوكها. بعد أن استمعت وجاء دورها، طلبت بكل هدوء وكأن أكبر فرصة في العمر قد وضعت بين يديها «أعتذر لي أمام كل الناس... أمام الجيران..... أعتذر أمام كل إنسان سمعك تتهمني. تدخل الأب «يا ابنتي، لا تزيدي من توتر الحالة، إقبلي الاعتذار وعفا الله عما سلف».

رد سامر معتذرا «أنا أخطأت بحقك أنتِ شريفة، أعتذر لك عما بدر مني وأتمنى أن تقبلي اعتذاري ولنطو الماضي». هزت رأسها ورسمة تكشيرة على محياها «لنطو الماضي؟! جميل يا سيد سامر، جميل (سالت قطرات الدموع وشقت خدودها قهرا، وتابعت...) هل أدركت معنى الرجولة؟ الرجولة كلمة شرف وموقف عز. الرجولة أن تحترم الآخرين ولا تستصغر شأنهم. الرجولة هي الشهامة والمروءة في أجمل معانيها. هي الأخلاق الكريمة والمعاملة الحسنة!

أمسكها والدها من ذراعها محاولا إسكاتها وهو يقول «بما تهذين يا بنت اسكتي؟!» نظرت لوالدها كالوحش مكملة ما

بدأتـه دون أن تعـير أحـدا الاهتمـام إلا نفسـها المكسـورة. الرجولـة هـي أن تغفـر وتعفـو عنـد المقـدرة وأن تمسـك نفسـك عنـد الغضـب! الرجولـة هـي أن تمسـح بيـد الحنيـة دمعـة ألم عـن وجـه بائـس. كـم مـن تلـك الصفـات تجدهـا في نفسـك يـا سـيد سـامر؟! اخبرنـي. قـد تجتمـع الصفـات في رجـل واحـد وقـد يجتمـع الرجـال في صفـة واحـده. لـو فصلـوا رأسـي عـن جسـدي، لـن أكـون زوجـة لـك، رضيـت لـي الـذل والإهانـة، لم ترحـم ضعفـي وتوسـلاتي لأنـي امـرأة ضعيفـة.» أدارت لـه ظهرهـا وغـادرت وهـي تقـول «لا تحـاول مجـددا، فليـس لـك مـكان في قلـبي». وتابعـت مشـيها إلى حيـث أمهـا وهـي توبخهـا وتلومهـا أنهـا تضيـع مسـتقبلها، لم تبـال وفي مخدعهـا، جلسـت علـى فراشـها ولهـا نصـف ابتسـامة ونصـف بـكاء وهـي تنتصـر وتـذل مـن أذلهـا وإن كان ذلـك لا يكفـي كمـا قالـت في نفسـها. وتابعـت: «اقسـم بـالله مـا تنـال مـني شـعرة. لـو الأمـر كان بيـدي لسـجنتك» تتحسـس خدهـا. فـالآلام المعنويـة مازالـت متصلـة بصفعـات تلقتهـا حينهـا.

★★★

في فنـدق راق، بـدأ جاسـر سـهرته الليلية الأسـبوعية وهـي الأولى بعد عودتـه مـن خـارج البلد. يشـرب الخمر على النمط الغربـي حتى منتصف الليـل، ثـم يعـود إلى منزلـه وهـو في مزاج يسـعى دائمـا إليـه ليكمل باقي السـهرة مـع أجيرتـه بتلـة. هـي السـهرة الأخـيرة في فنـدق بعـد أن أمـر بلبـس درع التقـوى المعتـدل لأن وسـائل الإعـلام سـتكون عليـه رقيبـاً.

لم يلبـث سـوى بضـع دقائـق حتـى جلـس بجانبـه صـادق، نظـر في وجهـه، أشـار لـه صـادق بعينـه كمـا تعـودا علـى لغـة الإشـارة ثـم وقف وأطلـق رجليـه متوجهـا إلى السـاحة الخارجيـة لفنـاء الفنـدق. و مـا هـي

إلا دقائـق حتـى لحـق بـه جاسـر فوجـده يدخـن سـيجارته علـى مقربـة مـن البوابـة، اقـترب منـه جاسـر، فتـح صـادق بـاب سـيارته وأدار المحـرك، فهـم جاسـر وصعـد، أمـر رجالـة بانتظـاره، انطلـق صـادق وتوقـف علـى بعـد كيلومـترات ونـزل مـن السـيارة يتبعـه جاسـر. أصبـح جاسـر يثـق بصـادق أكثـر مـن ذي قبـل بعـد أوامـر مرؤوسـيه وتعزيـز الثقـة بـه. لـذا ذهـب معـه دون احتيـاط أمـني. وقـف أمـام صـادق وقـال لـه بلهجتـه المتثاقلـة:

- ما الأمر؟!

أجابه بصوت يكاد لا يسمع:

- وصلني طلب من خارج البلد، يريدون قلب شاب.

- ومن المعني بالطلب؟!

- ربمـا رئيـس، ملـك، أمـير أو ثـري مـن أثريـاء العـالم. هكـذا وصلتـني الأوامـر...

- وأين المشكلة؟!

- أرادوا أن يرسـلوا فريقـاً طبيـاً لفحـص الشـاب الـذي سـيأخذون منـه القلـب.

قال بصوت مهتز ومتوتر:

- إيـاك أن توافـق، نحـن في مرحلـة حساسـة. لدينـا أطبـاء وسـنقوم بالواجـب. قـم بالترتيبـات لإنجـاز المهمـة كمـا نريـد نحـن، لا هـم. هـم أصحـاب الحاجـة.

– هذا كان رأيي. ألديك أوامر أخرى.

– نعم، هناك إقبال عالمي على منتجات المعامل القصرية، نريد التوسع. قم بذلك بأسرع وقت ممكن.

– اعتبر الأمر منجزا. ولكن هناك مشكلة صغيرة جدا.

– ما هي؟

– المجنون الذي أنشأنا باسمه المشاغل القصرية توفي الأسبوع المنصرم. والمشاغل تحمل اسمه بالوثائق.

– ابحث عن مجنون آخر على أن يحمل وجها مناسبا ثم قم بتنظيفه والبسه بدلة راقية ليكون مقبولا لهذا العمل.

– تحت أمرك.

– إياك أن تقترب من هذه المشاغل. تحكم بها عن بعد.

– كل شيء حسب حسابه. المظهر العام للمشاغل أمام المراقبة، مصنع للغزل والنسيج والدور الأرضي الذي به المعمل.

– أثق بك.

– زارتنا الرقابة لكننا أظهرنا رئيس المجموعة على أنه عين من المالك المهاجر في دولة أجنبية وتعاملوا على أنه الموكل للإدارة وأظهرنا لهم الوثائق المطلوبة التي تثبت أن المجموعة عبارة عن منشآت للغزل والنسيج ثم غادروا.

– إياك أن يعرف أحد بالأبواب السرية للأدوار الأرضية للمشاغل.

– كل شيء حسب حسابه.

عـاد جاسـر لاسـتكمال سـهرته الـتي بدأهـا. وتحـت وطـأة التفكـير، غـادر الفنـدق متوجهـا إلى منزلـه حيـث قضـى وقتـا مـع «بتلـة». وقبـل مطلـع الفجـر، كان في مكتبـه بالشـركة الأم. دخـل المكتـب وجلـس علـى كرسـيه وهاتـف المحامـي، أيقظـه مـن النـوم وأمـره بالحضـور فـورا إلى المكتـب. وقـف جاسـر وفتـح البـاب علـى يمـين الحائـط في المكتـب ليدخـل إلى غرفـة نـوم راقيـة جـدا فيهـا أهـم كماليـات الحياة، سـرير، ثلاجـة صغـيرة بهـا كل مـا يحتـاج مـن فواكـه ومشـروبات، تلفـاز مـع عـدة أقمـار صناعيـة، طاولـة راقيـة عليهـا مـرآة، ومكيـف. اسـتلقى علـى السـرير وأشـعل التلفـاز، ظـل يقلـب القنـوات الفضائيـة في القمـر الأوربـي حتـى أُبلـغ عـبر هاتـف علـى مقربـة مـن سـريره أن المحامـي بانتظـاره. أذن بدخولـه وخـرج لمكتبـه، وأشـعل سـيجارته. بـدا المحامـي مرتبـكا لمثـل هـذا الاسـتدعاء، سـأل بتوتـر:

- خيرا إن شاء الله سيدي.

أجابـه بصـوت أجـش مصحـوب برقـة غـير معهـودة ربمـا بفعـل الشـراب الـذي لم يذهـب كامـل عقلـه لتنـاول القليـل منـه ليسـاعده علـى التفكـير:

- اجلس.

جلس المحامي وجلس جاسر أمامه وهو يأمر:

- قـم اليـوم بإجـراءات إنشـاء قنـاة دينيـة عملاقـة وتـول أمـر تعيـين الشـيوخ والمثقفـين المعروفـين لـدى الجمهـور مـن المشـاهدين. أريـد إنجـاز هـذا المشـروع بأسـرع وقـت ممكـن. قـم بإجـراء حملـة إعلاميـة غـير مسـبوقة لهـذه القنـاة.

- أمرك سيدي!

- المقر الرئيسي للقناة هنا في البلد. وشبيه للمقر الرئيسي يكون خارج البلد. الأمر الثاني والأهم، كلف مكتب التنفيذ بإنشاء مجموعة قنوات فضائية في (الهوت بيرد) تكون تحت إشرافك شخصيا حتى لو اضطررت للسفر.

- سيكون المقر خارج البلد؟!

- نعم، في باريس مثلا. عين محاميا هناك لتلك المجموعة.

- تحت أمرك. وما نوعية القنوات، أقصد الهدف، إخباري أو اجتماعي.

- قنوات إغراء متعمق.

- ماذا؟!

- أنا أثق بقدراتك. لا أريد أن يعلم أحد بهذا الأمر. راتبك سيزيد ثلاث مرات.

- تحت أمرك.

- على أن تكون القنوات عبارة عن صور مغرية لفتيات عربيات والتعليق بلغة العربية وليست أفلاما. تقوم بتوفير رسائل اتصال لمن يريد أن يتحدث لصاحبات الصور من النساء بقصد متعة الإغراء، وعليك أن تتعاقد مع شركات الاتصالات في أوربا وآسيا وإفريقيا من أجل الرسائل القصيرة. أريد أن يكون البث من قمر اصطناعي آخر على مدار النايل سات.

- من الناحية القانونية، لا مشكلة في ذلك.
- ماذا لو وصل هذا الأمر إلى مسامع البلد.
- الاستثمار خارجي، على القمر الأوربي. من سيوصل هذه المعلومات إلى مسامع الجمهور؟ سأقوم بإجراءات توثيقية لشركة أوربية تحت اسم مستعار للجمهور. وهذا من حقنا في القانون الأوربي. ومن حقنا أن نحافظ على سرية ملكية الشركة أمام الإعلام بشكل عام. وإن تسربت معلومات، ننفي أي علاقة لنا ونتهم خصوما لنا بالتشهير بنا، الجمهور يتحول إلى مدافع شرس عند النفي.
- إذن، قم بعملك.
- سأكون عند حسن ظنك سيدي.
- تستطيع أن تعود إلى منزلك.
- سأذهب إلى مكتبي، الصبح على وشك الانبلاج.
- لك ذلك.

غادر المحامي وشعر جاسر أن قدرته على الذهاب إلى المنزل لم تعد مجدية بعد شعوره بالإرهاق، دخل غرفته المجاورة للمكتب ليغط في نوم عميق.

★★★

ذهب عقل الأستاذ فتحي إلى عالم الغرام ليعيش لحظات سحرية محاطة بالأسوار الوردية. أسابيع وهو هائم في شاطئ بلا مرسى.

ليله شرود، نهاره هروب وتقرب، هروب من الحرمان وتقرب من سيد الهذيان. وكأن الغد أجمل، فيه الخير، فيه السعادة المطلقة، وعيه الفكري لم يعد يجدي نفعا أمام إحساس غريب يدب في القلب كنوبات الهواء في صدر الغريق. رزانة شخصيته عاجزة على مواجهة موجة ساخنة كرياح حارقة قادمة من كبد الصحراء الصيفية. كلماته ككلمات غير موزونة لأنه مضطرب الأفكار. هناك حلاوة وطراوة لكل ثانية تمرّ من حياته. اعتاد على أغاني فيروز. أما اليوم، فهو أغنية. كل كلمة يسمعها يرقرق على إيقاعها ليهتز جسده من الداخل وكأن زلازلاً يجتاح مفاصله، كأن مدا دمويا جرف شطآن شريانه. أصبح قلبه معزوفة على قيثارة العشق. آه منك أيها العاشق الرزين، آه منك أيها الرجل صاحب الثبات والجدية. أفي لحظة أصبحت ذكرى جليد؟! إنه الحب، ذلك السحر الملموس، والحقيقة غير المرئية. أين كنت يا حضرة الأستاذ من كل هذا؟! اليوم أنت سيد العشاق ورجل الحب الأول. أسند ظهرك إلى الشجرة وتنهد لتخرج من صدرك فتات كبدك المزقة بفعل الحب الأول. لن تجد في عمرك أجمل من هذه اللحظات. حتى ولو ظفرت بمن تحب، حتما ستتعود عليها وتصبح حياتك معها عادية ومألوفة مع مرور الزمن. استغل هذه اللحظة الربانية التي يهبها الله لعباده مرة واحدة في العمر. شعورك هذا لن يتكرر مهما كانت الظروف الإنسانية. إنها قدرة إلهية خصها ربك للإنسان. اشتد عزف قلبه. لحن بديع غنت على إيقاعه نفسه من الداخل، إنسان يسكن بداخل إنسان. عقله يكاد يقلع من مكانه ليحلق في الأفق مع الطيور الموسمية التي تزور هذا المكان مرة واحدة في عمره. عيناه تبحران إلى ما وراء نفسه. حب

يعانـق العشـق. إيـاك أن تغـرق في الـتراب، تمسـك بجذعـي. أمسـك الأسـتاذ الشـجرة الـتي يسـند ظهـره عليهـا في قلـب المتنـزه وهـو يصـدر أنفاسا غنائيـة كلهـا إحسـاس وطـرب. حـدق إلى ارتفـاع الشـجرة وشـعر أنـه أطـول منهـا. وكأن جسـمه يتمـدد بفعـل الحـب ليقـف منافسـا لشـموخها ويواصـل سـيره بـين باقـي أشـجار المنتـزه باتجـاه أي مـكان تختـاره قدمـاه. أمـا هـو، فـلا سـلطة لـه علـى نفسـه. إنـه الحـب.

★★★

اسـتقل الأسـتاذ فتحـي الحافلـة الجماعيـة ليعـود إلى حـي الصفيـح. وعنـد مدخـل الحـي، التقـى نرمين وهـي عائدة مـن مكان عملهـا حاملة بعـض الأكيـاس البلاسـتيكية المليئـة بالخضـار، أحضرتهـا معهـا مـن سـوق حيـث يبـاع مـا تبقـى مـن الخضـار بأسـعار أقـل في آخـر النهـار لـتردي النوعيـة، فيُقبـل عليهـا الفقـراء وأصحـاب الدخـل المحـدود.

كأن القـدر رثـى لحالهـا. اقـترب منهـا، عـرض عليهـا المسـاعدة في حمـل الأكيـاس البلاسـتيكية. شـكرت لـه هـذا التصـرف وناولتـه نصـف الأكيـاس لحملهـا. أراد أخـذ الباقـي ولكنهـا رفضـت. أصـر علـى حملهـا، فناولتـه الأكيـاس الأربعـة واحتفظـت بواحـد. دلفـا إلى حـدود الحـي وكل منهمـا يرمـق الآخـر بنظـرات فيهـا نـوع مـن الخجـل لمـا حـدث لنرمـين فبادرهـا الأسـتاذ:

– تألمت لما حدث لكِ.

ظلت صامتة، فتابع قوله:

– كم وددت أن لا يحدث لكِ ما حدث.

- كابوس وانتهى. لا أحب الخوض في هذا الموضوع.
- لي سؤال واحد.
- إذا كان خارج هذا الموضوع.
- بل في صلب هذا الموضوع.
- إذن لا تسأل.....(أظهرت استياءها)

صمت قليلا وهما يتابعان مشيهما، فعاود الحديث:

- لماذا طلبت الطلاق منه بعد الحادثة وقد اعتذر؟!

توقفت عن المشي ونظرت في وجهه نظرة غضب وقالت بهدوء:

- أقل شيء، وأكثر شيء أستطيع فعله فيمن يشكك في شرفي.

لم يجد سبيلا إلا المضي قدما مع أفكارها لفتح الموضوع:

- كان يستحق السجن.

قالت بغضب:

- كان ومازال يستحق الموت.
- لهذه الدرجة أنت تحقدين عليه؟!
- صحيح أنني فقيرة ولكنني غنية بالعفة والكرامة. ليس لدي في هذه الدنيا غير الشرف أفتخر به. إني أفضل الموت على أن أقع في الرذيلة أو السمعة السيئة. يا أستاذ! إن الحرة تموت على أن تقع في مستنقع النجاسة.

– أنتِ متنورة العقل. وهذا ما يعجبني فيك.

– أوضح ما قلت؟!

قال بارتباك:

– أنا فقط معجب بأخلاقك وأتمنى أن تحذو حذوك كل الفتيات في هذا الحي الذي تحول بين ليلة وضحاها إلى مرتع للفساد الأخلاقي.

عادت لتمشي وهو إلى جانبها وقد رمى قلبها بسهم السعادة وتأييد أفكارها التي لطالما انتقدها الجميع وكأنها وجدت من يسمع لها، فأجهشت بالبكاء وهي تشكو:

– هتكت كرامتي، الكل يتحدث عني. وبعد تبرئتي، لم يقتنع أحد بالتقرير الطبي بسبب جهلهم. ماذا عساني أن أفعل بنفسي؟! (تشهق...) لم يرحمني أحد. هكذا خلقني اللّه. لو كان الأمر بيدي، لأصبحت مثل المكتملات لا عيب خلقي يعيبني. ربما أنت الوحيد الذي مدح أخلاقي لأنك أستاذ متنور بنور العلم.

حاول أن يهدىء من روعها:

– امسحي دموعك، عليك أن تكوني جسورة وصعبة المراس، لو رآك أحد تبكين حتما سيختلق الأقاويل. لا تسمحي لهم بإطالة ألسنتهم عليك، كوني قوية، وأنا سأكون إلى جانبك ولن أتردد عن الوقوف معك على مصير واحد. أنت فتاة رائعة وسيكون مستقبلك أفضل.

– ومن سيرضى بفتاة حصل لها ما حصل في مجتمع متخلف لا يؤمن بالعلم وينقاد للخرافات والشعوذة والعادات السيئة.

— قلت لك أنا إلى جانبك ولتصنع الأيام القادمة الخير إن شاء الله. قولي لي، كيف اهتديت إلى طلب إقامة دعوى تفريق للضرر الذي مس شرفها؟

— قبل نتيجة الكشف، كنت واثقة من شرفي. لذا، سألت طبيبة مرت من قاعة الانتظار كيف انتصر لنفسي؟ فقالت لي ما قلته للقاضي.

— أحسنتِ في إقناع القاضي.

ردت عليه بمدح نفسها:

— لا تنس يا أستاذ إني أنهيت الإعدادية في المدرسة قبل انتقالنا إلى هذا الحي المشؤوم.

★★★

أعصاب جاسر نبيل تصليها النار، يذرع مكتبه ذهابا وجيئة وبيده كأس الخمر يهدئ من أعصابه الملتهبة، يغادر المكتب إلى مكان مرتفع يمكنه مراقبة جمال العاصمة في النصف الأول من الليل.

استباقه للوقت المعلوم جعله أشبه بالمتوتر، الأمر ليس بيده، كم ألح لاختيار الزمان والمكان لأن المشيئة الخارجية أصدرت حكمها. وبما أنه شرطي لها، وجب عليه الانصياع للأوامر.

في الاتجاه الآخر، صادق متحرك ومتحمس، يترجل مع اثنين من رجاله من السيارة أمام عمارة مكونة من طابقين. الطابق الأول متجر واسع. الطابق الثاني عبارة عن شقتين. الأولى معروضة للإيجار ولا يوجد بها أحد، الثانية هي المقصود الليلة. يصعدون

السلم بهدوء إلى الدور الثاني. يرتدون قفازات يدوية شفافة. يطرق باب الشقة ويقرع الجرس، دقيقة مكروهة يقضونها انتظاراً. فُتح الباب مع صوت «من الطارق...»، الإجابة كافة «الشرطة...» دخل صادق ورجاله، البروفسور (أمير منصور) يسأل عن سبب الحضور في مثل هذا الوقت. أغلق صادق باب المنزل من الداخل، ظهرت زوجة البروفسور وابنته وابنه وكلهما قلق إثر قرع الجرس في وقت كانوا نائمين. الرد كان بلمحة البصر عبر مسدسات كاتمة لصوت، أطلق النار على البروفسور وزوجته وابنته وابنه. لملموا الأعيرة الفارغة من الأرض وغادروا مسرح الجريمة.

نصف ساعة أو أكثر ورجل يقف إلى جانب جاسر هامساً في أذنه، انبسطت أساريره، الخبر كان سعيدا، (قتل البروفسور).

ابن البروفسور عمره أحد عشر عاما. أصابته طلقة نارية في بطنه والثانية مرت من حدود قلبه. استطاع إن يهاتف عمه بكلمات بالكاد كانت واضحة تحت رحمة النزيف والصدمة المرعبة لمجزرة ليس سهلا تقبل منظرها سواء من طفل أو بالغ.

أُبلغت الشرطة. فترة وجيزة كانت الشرطة وسيارة الإسعاف في عين المكان. أسعف الطفل. ومن ثم تم نقل الجثث.

صدمة الشارع كانت مجلجلة. فليس من السهل تقبل حوادث اغتيال كوادر البلد. هذا يعني أن هناك مؤامرة تطل برأسها البشع لترعب أبناء هذا الوطن.

العملية نفذت. لم يهتم جاسر كيف نفذت ومن هم أعضاء فريق التنفيذ من رجاله. هو حذر صادق أكثر من مرة بأن لا يقدم

علـى عملية يكـون فيهـا متواجـدا بشـكل شـخصي. صـادق رصـين، لكـن أخذتـه الثقـة بنفسـه وتصـرف بهفـوة أن يكـون قائـد المنفذيـن عمليـا. هـي تعتـبر أسـهل عمليـة قامـوا بهـا. لـذا، وجـد الأمـر عاديـاً أن يشـبع رغبتـه بعنـف مـا. ولذلـك جنـون عظمـة.

مـرت الأيـام وابـن البروفسـور تتحسـن صحتـه تباعـا بعـد العمليـات الجراحيـة والمحققـون يقومـون بعملهـم ببنـاء صـورة واضحـة للأحـداث لعلهـم يسـتدلون عـن الجنـاة. في اللحظـة، سمـح بهـا الأطبـاء للمحقـق بالتحـدث إلى الطفـل علـى ألا تزيـد مـدة التحقيـق عـن خمـس دقائـق نظـرا للحالـة الصحيـة والنفسـية. قـدم الطفـل وصـف الجنـاة إلى المحقـق وغـادر المحقـق المستشـفى بانتظـار التحسـن الواضـح لحالـة الطفـل الصحيـة والنفسـية ليتـم لقـاؤه بالرسـام الجنائـي لرسـم صـور الجنـاة. هـذا كان يتطلـب أيامـا وربمـا أسـابيع.

ملـف التحقيـق وصـل إلى يـد العقيـد عمـر بطريقـة اسـتخباراتية. ومـن خـلال الملـف، انطبقـت مواصفـات الجانـي علـى صـادق المذكـور في ملـف أعـده العميـد فـاروق قبـل اغتيالـه وسـلمه لمسـاعديه. مـن هـذه النقطـة، انطلـق التحقيـق السـري بأمـر مـن العقيـد عمـر حتـى وصـل لخلاصـة مفادهـا أن صـادق رجـل ظـل. وبـدأت أعينهـم الخفيـة تركـز علـى مـن وراء صـادق. حاولـوا ربـط قضيـة دعـم التمـرد واغتيـال العميـد واغتيـال البروفسـور. لم تكـن هنـاك علاقـة بـين جميـع الأطـراف. الجرائـم محبوكـة وكأن هنـاك جهـات عديـدة كل واحـدة لهـا علاقـة بجريمـة. وهـذا عامـل تشـتيت.

طُرحـت علـى العقيـد عمـر فكـرت التخلـص مـن جاسـر، إلا أنـه رفـض وأمـر بتسـهيل أعمـال جاسـر في الوقـت الحالـي علـى الأقـل

لسببين. الأول أن جاسر صار ذا شعبية وصيت إعلامي وصار له ارتباط وثيق بجذور اقتصاد البلد. ثانيا، يجب أن تكشف الأيام جميع المتصلين به، فقط التخلص من مساعديه. وكلما قتل رجل يتبع جاسر، حتما سيأتي بدل منه وهكذا يمكن معرفة صلات الجميع لعلهم يستطيعون تفكيك شفرات كثيرة لمثل هؤلاء الناس.

زاد اغتيال البروفسور غموضا عندما فارق الطفل الحياة. وتقرير الطبيب الشرعي أفاد فيه بأنها جريمة قتل بتعرض الطفل لحقنة غير موصوفة طبيا بينما كان راقدا في المستشفى. هذا فتح باباً من التساؤلات عن حجم الخروقات والتسهيلات التي يتحصل عليها الأعداء من الداخل.

بالنسبة لمحققي المباحث، هناك طريق مسدود في سير هذه القضية خاصة وهناك تمويه وتلاعب داخلي لطي صفحات الجريمة. أما بالنسبة للعقيد وزملائه، فقد كانت القضية أكثر وضوحا ورسمت خطة للتخلص من صادق ومراقبة من سيخلفه عن كثب. وضعت الخطة. وبعد أيام جاء موعد التنفيذ. أوكلت المهمة للملازم عفيف. تمركز عفيف على بعد ثلاثة كيلو مترات من فيلا جاسر. انتظروا هناك حتى غروب الشمس. وبعدها، جاءتهم المعلومات أن صادق في طريقه للفيلا. بدأوا مستعدين للهجوم. اقترب صادق بسيارتين. تقدمت السيارة الأولى ذات الدفع الرباعي إلى نقطة الهجوم، في تلك النقطة وعلى طريقة العصابات ليوحي الحدث أن لا جهة حكومية ذات صلة بالحادث. انفجرت عبوة ناسفة أعاقت مواصلة السير مما أجبر سائق السيارة التي يستقلها صادق على التوقف. هنا، أُمطرت السيارتان بالرصاص من جميع الاتجاهات.

في البدايـة، قتـل السـائقان عـن طريـق اثنـين كلفـا بهـذه المهمـة. وهنـاك مـن تكفـل بالهجـوم علـى صـادق ومرافقيـه. حـاول المرافقـان المنـاورة بحمايـة صـادق إلا أن الفشـل بـدا واضحـاً مـن خـلال مقتـل مـن حـاول الخـروج وبيـده الحقيبـة المضـادة للرصـاص حيـث وضعهـا لتحمـي رأسـه وظهـره. فكانـت الرصـاص كفيلـة بمنعـه مـن أداء المهمـة حيـث صُـب عـدد منهـا علـى قدميـه ليسـقط أرضـا وأطلقـت واحـدة علـى رأسـه لتقضـي عليـه، صريـخ صـادق بـدأ كالناقـة هيئـت للذبـح، يحـاول إزاحـة السـائق نحـو المقعـد الآخـر لعلـه يحظـى بفرصـة الفـرار. راح رجـال صـادق يسـقطون الواحـد تلـو الآخـر. اقـترب المهاجمـون نحـو السـيارتين وهـم يطلقـون الأعـيرة الناريـة. سـحب صـادق المسـدس وبـدأ بإطـلاق النـار. هـذا لم يغـير مـن الأمـر شـيئا في حالـة ارتبـاك وضيـاع التركيـز، فشـله في سـحب جثـة السـائق ليحـل محلـه جعلتـه يرجـع إلى مقعـده ويفتـح البـاب وهـو يصـرخ «سأسـلم نفسـي». تقـدم منـه المـلازم عفيـف وحـدق في عينيـه لثانيـة، مسدسـه مصـوب نحـو رأس صـادق، مـن أنتـم؟ (تسـاءل..)، الـرد مـن المـلازم كانـت رصاصـة اسـتقرت في رأسـه ليترنـح إلى جانـب إطـار السـيارة. دنـا المـلازم مـن الجثـة وتأكـد مـن مقتلـه. بعدهـا، أمـر أتباعـه بالانسـحاب فـورا.

الأسـلحة المسـتخدمة في هـذه العمليـة هـي غنيمـة حصلـوا عليهـا من المسـتودع في الشـرق. لـذا، كانـوا متأكديـن أن التحقيقـات ستسـير في اتجـاه مـن يدعـم المتمرديـن ويزودهـم بالسـلاح. هـذا إذا عثـر المحققـون علـى خيـوط تقودهـم إلى ذلـك.

ارتمـى جاسـر علـى الكرسـي حـال سماعـه بمقتـل صـادق، فتعـرق. عجـز عـن البلـع. دورك قـادم يـا جاسـر. (هـذا مـا قالـه وعينـاه

شاخصتان نحو السقف...). حاول الوقوف. فعلها بعد محاولة مضنية وكأن قدميه قد بترتا. دخل إلى مكتبه ترافقه أجيرته. «هون عليك سيدي، لحظات عصيبة وستزول حتما». هكذا طمأنته بتلة. تناول جاسر هاتفاً عبر الأقمار الصناعية وهاتف دولة أجنبية. وجد أن الهاتف لا يعمل. فقد أوقف لحظات معرفة الجهات الخارجية بمقتل صادق. وضع جاسر الهاتف جانبا وقال لبتلة: أبلغي الحرس أن يكونوا متيقظين.

سرح جاسر لدقائق وبعدها دخلت عليه (بتلة) وقالت له بأن هناك من ينتظره، من هو؟! وكيف دخل إلى بيتي؟! تساءل. أدخلوه رجالك. ردت عليه.

تناول مسدسه وخرج للقائه. من أنت؟! بادره جاسر. أريد الانفراد بك سيدي.(هكذا رد)

أشار جاسر لبتلة وحارسه بالابتعاد قليلا. اقترب منه الرجل وقال بصوت أقرب إلى الهمس: بأنه سيعمل بدل صادق. واسمي (صبور) جاءتني الأوامر بذلك قبل نصف ساعة، (للدجاج قن...) شفرة يعرفها جاسر.

هز جاسر رأسه وتساءل ليطمئن عن سيران الأمور. طمأنه وأكد له أن الوضع تحت السيطرة ولا داعي للقلق. ما حير جاسر الجهة التي تقف وراء مقتل صادق. طرح السؤال على (صبور). كان الرد: «حتما سنعرف»...

★★★

بعد غياب طال، عاد الشيخ أبو إيمان من السفر مساء الأمس وقصد اليوم المسجد قبل صلاة الظهر بنصف ساعة وبيده بعض الهدايا.

كان إبراهيم يعد نفسه لافتراش بساط البيع أمام المسجد، حين فاجأه الشيخ بقدومه من خلفه، أخذه بالأحضان، عناق دام لحظات وكأن إبراهيم قد شم نسيم مكة من خلال الشيخ. دعا إبراهيم للحاق به داخل المسجد. سأله عن أخباره وطلب منه أن يحدثه ماذا وجد في مكة؟ أجاب على أسئلته وأبدى اهتماماً غير عادي بإبراهيم، أكثر من المعتاد. وفجأة غير مسلك الحديث ليخرج الهدايا من الكيس ويقول:

– أحضرت لك ماء زمزم، ومصحفا، وسبحة.

تناول إبراهيم الهدايا وهو يقول:

– لك شكري واحترامي يا شيخ. هذه أجمل هدية تمنح للمسلم.

– أنت شاب مبارك. ورأيي أنك ستصبح سندا لهذا الدين.

– لك الفضل في هدايتي يا شيخ.

– الفضل كله لله ولقلبك العامر بالإيمان.

– جزاك الله خيرا يا شيخنا الجليل.

انتصب إبراهيم واقفا وقال وهو يهم بالمغادرة:

– أنا ذاهب إلى عملي. ألقاك بعد الصلاة.

– كان الله في عونك.

أشار الشيخ برأسه لمؤذن المسجد عتيق، اقترب بحذر شديد، وقف أمام المحراب وكأنه يهيئ نفسه للأذان ويتحدث مع الشيخ بصوت خافت. حيث يتحدث ووجهه نحو المحراب وبيده الميكرفون، لم يوصل بعد بالكهرباء. أما الشيخ فيتحدث وهو متوجه نحو المصلين وبيده المصحف وكأنه يتلو القرآن، فقال بصوت خفيف:

- هل أنجزت ما أمرتك به؟
- نعم، كل شيء على ما يرام، وأرى أننا سننجح.
- الأمير أصدر أمرا، المعلومات مكتوبة بشفرة، الورقة ستكون بداخل المصحف الذي سأتناوله بعد الصلاة. سأضع المصحف عندما يخلو المسجد من المصلين وأنت قم بعملك.
- تحت أمرك.
- أقم الصلاة.

ظل الشيخ أبو إيمان يحملق في أوراق المصحف تارة وفي عيون المصلين تارة أخرى حتى أطلق المؤذن صوته، أرجع المصحف وراح يردد وراء المؤذن.

انقضت الصلاة وخرج جميع المصلين. كان آخرهم الشيخ. تأخر في تلاوة القرآن. تناول عتيق المصحف وفتش بين أوراقه حتى وجد الورقة. أعاد المصحف إلى مكانه وانحنى خلف العمود حيث لا يمكن لأحد أن يراه من نوافذ المسجد الأمامية. دس الورقة في جوربه وانطلق إلى منطقة (اليبابة). التقى بأبو معاذ خلف صخرة تتوسط مساحة شاسعة من الأرض شبه صحراوية تلتقي في نهايتها

بجبل وعر فيه كهوف وخنادق. سلم على أبو معاذ وهو يقول له:

- الشيخ سلمني رسالة.

- إليَّ بها.

تناولها أبو معاذ وقال له وهو يخفيها في جيبه:

- بلغ تحياتي للشيخ وأعلمه أن الرجال على أهبة الاستعداد لأي طارئ. وقل له إننا بحاجة إلى بعض المال الذي سيذهب إلى عوائل الإخوة المرابطين.

- أمرك.

★★★

«إذا زادت الأوضاع سوءا وارتفع معدل الخطر، ستُستدعى من قبل رجال يعملون مثلما نعمل من أجل الوطن. لا تبحث عنهم، هم سيتصلون بك». هكذا قال العميد فاروق للعقيد عمر في اجتماع سري بينهما قبل اغتياله. جاءته إشارة التوجه إلى منطقة نائية خارج المدنية، اقترب موعد اللقاء، ذهب العقيد إلى ذلك المكان عند الظهيرة، توقف بسيارته البيضاء من نوع تويوتا ذات الدفع الرباعي بالقرب من منحدر صغير جدا يلتقي مع حقل في عز عنفوانه الزراعي، حتى يتسنى له التوغل فيه لحظة الخطر. ذلك حسب ما طُلب منه. ترجل بعد أن ذخر مسدسه وأعاده إلى حزامه، ترك باب السيارة مفتوحا وظل يراقب المكان بعينه واضعا نفسه في استعداد تام تحسبا للمراقبة أو المطاردة.

قبـل أشـهر، قـام العقيـد بأعمـال احترازيـة لسـيارته، حيـث زود أبوابهـا مـن الداخـل بصفائـح حديديـة صلبـة تسـاعده علـى صـد أي هجـوم محتمـل ولـو بنسـبة ضئيلـة.

توقفـت سـيارتان مـن نـوع نيسـان ذات الدفـع الرباعـي. ترجـل مـن الأولى رجل وطلب من العقيد أخذ مكانه في السيارة النيسـان حيث يبقى هـو في سيارته التويوتـا حتـى يعـود. فعـل ما أمـر وأخذ مكانـه. انطلقت السـيارتان بسـرعة عاليـة نحـو بقعـة تبعـد بأكثـر مـن عشـرين كيلو متر.

قلـب العقيـد يـكاد ينفجـر غضبـا، عقلـه تعفـن تفكـيرا. منـذ الأمـس الصبـاح، وهـو يحمـل علـى عاتقـه همـا يمـزق الـروح والبـدن. قدمـاه تذرعـان الأرض بـين ذهـاب وجيئـة في مكتبـه، لم تـرف عينـاه ولـو للحظـة واحـدة. اسـتنفرت المجموعـة الـتي يترأسـها في العمل السـري. أبلـغ الأمـن وجميـع أعضـاء المخابـرات باختفـاء المـلازم (عفيـف). الجميـع يعمـل ويجمـع المعلومـات. ولا معلومـة حتـى السـاعة تـدل علـى أثـر المـلازم. عنـد السـابعة مسـاء، جاءتـه الإشـارة بالتوجـه إلى هـذا المـكان. إلى هـذه اللحظـة، شـكوك العقيـد تـدور حـول المـلازم عفيـف والاسـتدعاء مـن جهـة أخـرى أبلغـه بهـا العميـد قبـل اغتيالـه، وكأنـه يربـط تقديـم الموعـد مـن أجـل مناقشـة أمـر المـلازم.

دخلـت السـيارتان إلى مزرعـة وتوقفتـا أمـام منـزل ريفـي. ترجـل الجميـع وطلـب أحـدهم مـن العقيـد الدخـول. دخـل. هـا هـو يقـف أمـام رجـل في السـتين مـن العمـر، طويـل، أبيـض البشـرة، شـعر رأسـه أشـبه بقمـاش أبيـض ناصـع، شـاربه متوسـط، يرتـدي بدلـة، السـلام حـار بينهمـا. قـدم الرجـل نفسـه، اسمـه اللـواء نايـف قائـد معسـكر أشـبال الوطـن. جلـس الاثنـان علـى أريكتـين متقابلتـين. قـال

اللـواء للعقيـد بأنـه مرتـاح مـن عملـه في المخابـرات ومدحـه لأنـه يتابـع عملـه مـن أيـام العميـد فـاروق. تبـادلا أطـراف الحديـث وراح اللـواء يشـرح لـه أهميـة التنظيـم السـري للدفـاع عـن الوطـن ووضـح لـه أنهـم استشـعروا الخطـر. لـذا، كانـت اللبنـة الأولى لهـذا التنظيـم قبل خمسـة أعـوام بقـرار مـن قيـادات وطنيـة لمواجهـة الزحـف الأجنـبي والتوغـل داخـل المؤسسـات الحكوميـة وتمكنهـا منهـا تدريجيـا عـن طريـق تجنيد العمـلاء وضـم المناضلـين إلى صفوفهـم تدريجيـا عـن طريـق الابتـزاز الـلا أخلاقـي. لـذا جاءتـه فكـرة العمـل المضـاد للقضـاء علـى الدخـلاء.

وشـرح لـه بعـض الأدوار الـتي يجـب عليـه ومـن معـه القيـام بهـا بالتنسـيق مـع اللـواء نايـف ممثـل مفاصـل مـن الجيـش وسـلم لـه خريطـة لمواقـع أسـلحة تسـاعدهم علـى تصفيـة متورطـين لا يمكـن محاكمتهـم بسـبب الضغوطـات الخارجيـة والإعلاميـة، وقـدم لـه لائحة إضافيـة بأسمـاء أشـد الفاسـدين فسـادا ممـن هـم تحـت المجهـر.

أمـا مـا يخـص الشـرق، قـال اللـواء نايـف إن الجيـش سـيتدخل في الوقـت المناسـب لمنـع المنشـقين مـن تكويـن أنفسـهم. ولـن يتـم ذلـك إلا بإفـادة مـن العقيـد، لأن المخابـرات أدرى بـأدق التفاصيـل ويمكنهـا الوصـول إلى عمـق الأزمـة. قـال العقيـد إنهـم نفـذوا ضربـات اسـتباقية وموجعـة في الشـرق وأن الوقـت غـير مناسـب لتدخـل الجيـش كـي لا يحـاول المنشـقون والداعمـين لهـم إضفـاء شـرعية إعلاميـة علـى هـذه القضيـة لأن الأعـلام صُنـع لتشـتيت المواطنـين وخلـق شـعبية وشـرعية لأي تمـرد، ودعـم مـن تصنعهـم إيـاد خارجيـة، وبـأن النجـاح يتـم عـبر المخابـرات إذا كانـت مدعومـة بشـكل مطلـق ماديـا ومعنويـا.

نحـن لدينـا مصادرنـا الاسـتخباراتية. سـنعمل علـى تزويدكـم بالمعلومـات وكذلـك انتـم تفعلـون. أمـا الدعـم المـادي، فسـتجدونه إلى جانـب السـلاح. ونحـن علـى مقربـة منكـم نتدخـل في الوقـت المناسـب. هكـذا قـال اللـواء نايـف وراح يوضـح أن الجيـش سـبق لـه وإن قـام بعمليـات نوعيـة وسـرية أشـبه بالعمـل السـري والنجـاح كان بالسـيطرة الكاملـة علـى منافـذ العبـور.

وتواصـل الحديـث بينهمـا لفـترة زمنيـة ناقشـا فيهـا جميـع جوانـب العمـل السـري. وبعدهـا، سـأل اللـواء العقيـد عـن (المـلازم عفيـف). هنـا، تنهـد العقيـد بحرقـة قاتلـة وهـو يقـول «لم تصلنـا أي معلومـة عنـه منـذ الأمـس».

قـال لـه اللـواء بأن لديه معلومـات عنه، انتفض العقيـد باللهفة لمعرفة مـكان تواجـد عفيـف. قـال لـه اللـواء: «اهـدأ وسأشـرح لـك مـا حـدث ومـا يحـدث». عـاد العقيـد ليأخـذ مكانـه بإسـناد ظهـره علـى الأريكـة.

تابـع اللـواء كلامـه: أن تعمـل خادمـا للوطـن يتطلـب التضحيـة مـن أجـل نيـل شـرف المـوت في سـبيله. هنـاك مـن يمـوت مـن أجـل أن يعيـش المواطـن. وهنـاك مـن يمـوت مـن أجـل أن يمـوت المواطـن. وهنـاك مـن يعيـش ليمـوت المواطـن. المـلازم نـال الأولى.

قاطعـه العقيـد «هـل قتـل المـلازم؟» «قُتـل عصـرا». تـألم العقيـد ألمـا شـديدا أدمعـه علـى أثـر سماعـه هـذا النبـأ سـأله اللـواء: «هـل يبكـي العسـكري؟» أجـاب بأنـه أدمـع علـى صديـق مقـرب منـه وليـس علـى عسـكري ضحـى بنفسـه مـن أجـل الوطـن. وتسـاءل عـن القاتـل، أجـاب اللـواء بـأن عفيـف أخطـأ في اختيـار مـكان تنفيـذ مهمـة اغتيـال صـادق.

حيث إن ذلك المكان كان قريبا من صراف آلي وعلى مقربة من الصراف توجد كاميرا مراقبة. من خلال الفيديو المصور للمعركة. استطاع (صبور) التعرف عليه (صبور حصل على نسخة من الفيديو عن طريق المسؤول عنه مقابل مبلغ مالي). اختطفه للتحقيق معه لمعرفة من وراءه. عذب عذابا شديدا. وما أن بدأ يضعف، حتى قام رجل يعمل لدينا بصفة سرية مع (صبور) بقتله. الرجل الذي يلقب (بالمجنون) لشدة بأسه وإقدامه على العمل بلامبالاة، أُوكلت له مهمة تعذيب عفيف وانتزاع الاعترافات منه نزعا. وفي حضور صبور بدأ يضعف، حينها غمز له المجنون بطرف رمشه ليصمت، صمت، صرخ في وجهه صبور، ظل صامتا، صرخ صبور مجددا باسم (المجنون) ليستأنف التعذيب. حينها، وجه المجنون لكمة لعنق عفيف. كانت قاتلة. وهذه كانت أوامرنا لكي لا يتم اختراقكم. نشعر بالألم والأسى لهكذا عمليات. لكننا أمام خيارين. إما الوطن أو رفاقنا. وسبب وجودنا هو الوطن. ونحن نعرف أن العسكري يكون بطلا إذا مات من أجل وطنه.

تنهد العقيد وهو يترحم على الملازم ثم استأذن اللواء بالاقتصاص من صبور. أمره اللواء بتأجيل ذلك حتى يتمكنوا من مراقبته ومعرفة الجهات التي يتصل بها.

هل من معلومات عن قاتل صادق؟ سؤال وجهه جاسر لصبور وهما يهمان بالجلوس في الحديقة.

***

(صبور) كان مجندا متمكنا في إحدى الدول قبل تكليفه بمهمة الرجوع إلى البلد منذ سبع سنوات. خلال تلك السنين لم يلتق بجاسر وجاءته الأوامر فجأة للالتقاء بسيده الجديد والعمل تحت إمرته.

قال صبور إن ضابط مخابرات هو من قتل صادق. وحسب معلوماته من داخل الجهاز، فإن ضابطاً برتبة ملازم هو من خطط ونفذ بمعزل عن أوامر رؤسائه. تم التعرف عليه بتسجيل كمرات مراقبة تابعة للبنك في مسرح الاغتيال. لذا، انتقمت منه وأوعز لموقع الكتروني وهمي يحمل اسم (انصار الجهاد) ليتبنى المسؤولية. استحسن جاسر هذا الرد، معتبراً أن قتل نصف منتسبي الجهاز لا تعوض خسارة صادق. سأل جاسر صبور عن السيارات المصفحة الحديثة الخاصة به:

- متى ستصل السيارات المصفحة؟
- قريبا.
- ألا ترى أنها تأخرت في الوصول؟!
- مثل تلك السيارات تصنع تحت الطلب لأنها ذات تقنية عالية ومقاومة لأجهزة التشويش. لذا، تأخرها منطقي.
- لم أعد أحتمل الخروج بسيارات مصفحة يمكن النيل منها.
- سيارتك سيدي تقاوم الرصاص وتضعف أمام العبوات الناسفة.
- هذا ما يقلقني.
- لا أتوقع اعتداء عليك. ولو حدث ذلك سيكون عبر الرصاص، وهذا احتمال ضعيف جدا. ولكن يبقى في الحسبان أن أي

اعتداء عليك سيكون مزلزلاً لأركان البلد. أنت صرت متماهياً مع أجزاء الدولة، والكل يسعى للحفاظ عليك. أي اعتداء فردي سيكون محاولة فاشلة.

- من الممكن محاولة قتلي. (الرعب يهز وجدانه).

- اطمئن سيدي، زودتك بحراسة مدربة لا نظير لها.

- أمتأكد؟

- هذا واجبي. دع الجانب الأمني الخاص بك لي، جئتك لاقتراح مشروع.

- تكلم. عهدتك أدهى من صادق.

- نستورد عملة محلية من الصين.

ضحك جاسر وهو يقول:

- وكيف ذلك؟!

- لاحظت أن الشعب يعاني من تبادل الصرف وفكرت بالسفر إلى الصين نطبع مليارين أو ثلاثة حسب طلب السوق.

- فكرة بائسة. لو أردنا لطبعناها هنا. ولم العناء والسفر إلى الصين؟!

- في الصين، تطبع بمصنع متخصص. وبنفس مصنع العملة المحلية والمواد الخامة وتحت إشراف خبراء.

- إغراق السوق بعملة الصرف سيكشف الأمر وتُسحب من السوق وربما شركاتنا هي التي ستدفع الثمن.

- سيدي، نطلب نموذج ونفحصها بالبنك المركزي. وحينها، سنعرف الفرق.
- هل جربت هذه العملية؟ (سأله بجدية)
- في أكثر من دولة نامية.
- وما النتيجة؟
- أكثر من رائعة. والشكر لنا طبعا لأننا أزحنا عبئا على المواطن في البحث عن الصرف خاصة المعدنية. وفرنا له نصف ساعة يوميا بما يعادل سبعة أيام ونصف اليوم في العام. نحن نرفع من ساعات العمل للشعب. (قالها ساخرا)
- لست أنت الداهية لوحدك. حتى أنا لدي مشروع أكثر من ممتاز يا صبور.
- تفضل سيدي.
- البارحة كنت أشاهد برنامجاً اقتصادياً عبر قناة ألمانية ناطقة باللغة العربية. تطرق لموضوع الجبن المزيف.
- أأصبح الجبن مزيفاً؟! أهو عملة تطبع. (وراح يضحك...)
- ينقصه رقم تسلسلي ويصرف بشيكات. (يسرف بالضحك...)

جاسر رجل جاد. ضحكه نادر الحدوث. أما اليوم، فقد جعلت منه المشاريع الغريبة والانتقام من الملازم عفيف مجرد فم ضاحك. مشاريع أشبه بمسرحية كوميدية لما توصلوا له من مستوى متدن في الغش لم يتطرق لها إبليس ذاته. والكلام مازال يدور بكوميديا فضة:

— أتقصد أن الموظف يتسلم راتبه جبناً من البنك. (هكذا قال صبور بضحك يهز بدنه...)

بعد الضحك، قال جاسر بجدية:

— نريد أن نكون سباقين ببناء مصنع ينتج ذلك الجبن. يقال إن مذاقه لا يختلف عن الجبن الطبيعي من ناحية الطعم والشكل. حتى أن الألمان يواجهون مشكلة بالتعرف عليه (أخرج جاسر ورقة وراح يقرأ اسم الجبن ويردده أكثر من مرة لعله ينطق الكلمة بطريقة صحيحة...) اسمه «ال...الجا ...سترو...ميكس ألجاسترومكس». ابحث عن هذا الموضوع وانظر هل بمقدورنا الحصول على ما يلزم لإنتاجه؟!

★★★

في موعد مسبق بين الأستاذ فتحي والأستاذ مسعد في مقهى الدب الصغير، جلس فتحي على طاولة مقاربة للمسرح الصغير في انتظار صديقه. تأخر عن الموعد. ربما هناك مانع ما جعله يتأخر أو أنه قد نسي الموعد المحدد أمس. هذه من مجمل تكهنات أطلقها. يتصفح للساعة، فإذا بها تجاوزت الخامسة مساء. رغم أن اليوم هو الخميس ومسعد في مثل هذا اليوم ليس لديه ما يشغله، المقهى ليس كالعادة، أغلبية رواده غائبون. الموقف بدا غريبا نوعا ما، ظل مكانه يحتسي قهوته، يسمع أغنية لعبد الوهاب، الأغنية طويلة، ساعدته على الانتظار لوقت أطول. سماع رموز الأغنية العربية عالم من المتعة. هذه الأغنية من أجمل الأغاني على قلبه، وهذا ما منعه من المغادرة. ظهر الأستاذ مسعد بوجهه

الشاحب وشعره غير المنسق أمام الأستاذ فتحي. يلهث بسبب سرعة الخطى، أجهدته ليلحق بالموعد، وقبل السلام والترحيب، وجه اعتذاره المباشر بسبب تأخيره. الأستاذ فتحي لا يُستغضب بسهولة. قبل الاعتذار دون عتاب، قابله بابتسامة شبه عريضة، إلا أنه استوضح من صديقه:

- قلقت عليك. هل هناك ما عكر عليك صفوك؟

جلس الأستاذ مسعد وهو يقول:

- كانت مباراة ممتعة بين ريال مدريد وبرشلونة.

باستغراب وكأنه عتاب مهذب، قال الأستاذ فتحي:

- أهذا كل ما في الأمر؟!

- نعم.

كرر سؤاله بطريقة أخرى أقرب إلى الكوميديا:

- كل هذا التأخير بسبب مباراة لكرة القدم؟!

- نعم.

- أنا مرمي هنا وأنت تصفق لفريقك.

- واحد ! صفر...

وإذا بالأستاذ فتحي يلهث وراء أفكار صديقه وكأنه على عتبة المسرح:

- لصالح من؟!

- ريال مدريد.

– وأنت تشجع ريال مدريد؟

– لا، برشلونة!

الأستاذ فتحي لا تستهويه كرة القدم، يهز رأسه وهو يقول:

– إذن خسر فريقك المفضل؟

بتحسر مصحوب بانفعال قال الأستاذ مسعد:

– كانت خسارة مؤلمة.

بسخرية معهودة منذ البداية:

– خسارة! لقد خاب ظن صديقي في فريقك.

– إنه الحكم.

– ما به؟!

– من المؤكد أنه تقاضى الرشوة.

– مقابل الانحياز لريال مدريد؟

– هذا واضح... في البداية طرد لاعباً...

انحراف واضح لتصرف الأستاذ فتحي. ظن أن مكروها قد حدث لصديقه ليتحول إلى مستهزئ في كلامه. يقطع كلام مسعد وهو يشرح كيف أخطأ الحكم:

– عيب عليه. خسئ ذلك الحكم، خيب ظن صديقي. يبدو أن الحكم كان على علم بأني أقبع هنا في انتظارك منذ ساعة ونصف وأنت تشاهد المباراة، فعاقبك بانحيازه إلى ريال مدريد.

أدرك الأستاذ مسعد للتو سخرية صديقه منه، فقال معاتبا:

- قدمت لك اعتذاري ومازلت تعاتبني؟!

- بـالله عليـك يـا رجل، أنا علـى موعد معك وأنت تتابـع كرة القدم؟!

- اعذرنـي صديقـي! أنـا لم أشـرب الخمـر في حياتـي ولم أشـعر في عمـري بمعنـى الثمالـة إلا عندمـا أشـاهد كـرة القـدم.

- ألهذه الدرجة؟!

- وأكثـر. إنهـا الشـيء الوحيـد الـتي ينسـيني همومـي، ويجعلـني أعيـش في رغـد، لمـدة ساعة ونصـف، إنهـا أشـبه بالمخدر (يسـتدير ليلتفـت إلى يمينـه ويسـاره وهـو يتابـع قولـه...) لسـت أنـا وحـدي مـن يشـعر بهـذا، حتـى رواد المقهـى أمـام شاشـات التلفـزة لسـماع التحليـلات الرياضيـة.

- أكل هذا من أجل كرة قدم؟!

- إنهـا مخـدرات الشـعوب يـا صديقـي. يطيـب لـي مشـاهدة كـرة القـدم أفضـل مـن مشـاهدة نشـرة الأخبـار.

- لا مجال للمقارنة.

- علـى الأقـل لا تنتهـي المبـاراة وأنـا أبكـي مـن هـول المشـاهد المؤلمة، والقتـل والتدمير.

- لا أستطيع النوم إلا بعد الاستماع لنشرة الأخبار.

- وهذا ما جعلك بارد القلب.

- ما تقصد؟!

- نشرة الأخبار تكسب المتابع هواية اللامبالاة، التعود على الأنباء المؤلمة. مما يؤدي إلى التعود على الصبر المطلق والناتج عن التعود على اللقطات غير الإنسانية.

- أتعني أني أتمتع بالصبر الناتج عن الأخبار؟!

- فهمت ما قصدت. من المفروض أن متابعي نشرات الأخبار ينتصرون لمن انتهكت أرضهم وعرضهم. إلا أنه مع مرور الزمن، أصبح الخبر السيئ أمرا معتادا لا يحرك المشاعر حيال الظلم.

- ربما تكون مخطئا، لأن متابعة الأخبار تجعلك يقظا تدرك ما يدور حولك.

باستهزاء يملأه القرف، رد عليه الأستاذ مسعد:

- مقتل كذا... انفجار... صرح فلان ضد فلان... أهذا فهم لما يدور حولنا؟! ألا لعنة الله على اليقظة القاتلة للضمير؟!

- هذه أمور تهم وطننا العربي وعلينا فهم ما يدور في العالم.

- أتسعدك أخبار هذا الزمان؟!

- علينا فهم الأحداث.

- أي أحداث يا أستاذ فتحي تتحدث عنها؟! وماذا تريد أن تفهم؟! أنا أقول لك أخبار أربعة أعوام قادمة في جملة واحدة:

- الفصائل الفلسطينية تتراشق الاتهامات، مقتل شبان فلسطينيين، مقتل وجرح العشرات في دولة كذا، انفجار سيارة مفخخة، انفجار حزام ناسف، الأمين العام لجامعة الدول العربية في

رحلة مكوكية لمناقشة قمة عربية، الأمين العام للأمم المتحدة قلق حيال...هذا يؤيد وذاك يرفض، دولة عربية تتهم دولة أخرى عربية. هذه الأخبار سلفا يا صديقي، هل من جديد؟ طبعا لا، الجديد غير مدرك أنه في الماضي كانت الأخبار حول الصراع العربي مع عدوه. كانت هناك قضية يتوجب علينا متابعتها. أما اليوم، فالأخبار حول الصراع العربي العربي، الفلسطيني الفلسطيني، العراقي العراقي، اللبناني اللبناني وهكذا دواليك بين البقية. بالله عليك، ألا يتوجب علينا السكر بكرة القدم؟!

بإحباط مطلق، رد عليه الأستاذ فتحي:

— جل ما أخشاه أن أصبح ناقما مثلك. أرجوك! لنخرج من هذا الموضوع ولنناقش مواضيع ثقافية علنا نخرج بفكرة نستفيد منها.

★★★

أطفأ الشيخ أبو إيمان مصباح غرفة النوم الشديد الإضاءة، واكتفى بمصباح باهت كهذه اللحظة. نزع قميصه، فتح ذراعيه وهو يقترب لاحتضان زوجته الطفلة صفاء، اندفعت إلى الخلف ليصدها خشب السرير، تدفع بقدميها إلى الخلف وإن بقي جسدها محجوزاً في نهاية السرير كنهايات المدى. يضمها كاملة إلى صدره وهي تدفع وجهه بيديها علها تصده، لم تفلح منع قبلة خشنة، صاحت: «اتركني...»، لم يكترث. وها هو يحاول تجريدها من ملابسها. كررت صياحها وبكاءها، انزعج، قيدها بساعديه الغليظتين، امتعض وجهه وجحظت عيناه وهو يقول: «أتغضبين

الله بتمنعك هذا؟! ، سيدخلك الله النار إن لم تطيعي زوجك. لا تكوني من المتمنعات وتلعنك الملائكة حتى الصباح».

ارتخى جسدها خوفا ورعبا وذابت كالشمع أمام جنون النيران. الخوف من عقاب النار، ذلك الطريق إلى داخل صفاء الليلة. بعد تراخي جسدها، استطاع تجريدها من ملابسها كما تجرد هو من إنسانيته.

أكمل بطولاته الوهمية في جسدها الصغير وقبلها بشهوانية بعد أن مسح وجهها من عرقه المتطاير وهو يقول لها ويلهث: «الأمر بسيط وممتع، لا تخجلي مني، استمتعي. فأنا أحبك»، لم ترد عليه، فهي منتظرة رأفة الوقت بمروره ليتركها تستجمع أنفاسها المتقطعة لعل أوجاعها تتناقص تدريجيا. أخذ نفسا عميقا وهو يقف ليتوجه عاريا نحو المطبخ، تناول خلطة أعشاب. توجه لأخذ حمام ساخن، غسل جسده قليلا، لكن هاجس الجنس مازال حاضرا.

★★★

جاء موعد انطلاق القناة الدينية. أصبح لها صدى غير عادي بفعل الحملة الإعلامية المنظمة في الداخل والخارج. انطلقت دون بث تجريبي باحتفال مهيب حضرته شخصيات هامة من جميع شرائح المجتمع.

في خضم الصدى الإعلامي، أخذ رجال دين معروفون ممن لهم قصد أو بنية خالصة حصصا دينية. ومن هؤلاء الشيخ أبو إيمان. فقد تولى برنامج (شباب في طريق الإيمان)، وكما توقع مسؤولو القناة، النجاح مكتوب لها في فترة قياسية، وتضافرت عوامل النجاح، إمكانيات هائلة وتقنيون متميزون. والأهم وجود أوجه ذات سلطة دينية مكنت القناة من استقطاب المشاهدين وكأنها

المنفذ الوحيد للصوت الديني. هناك معارضة شبه ميتة من بعض رجال دين مستوعبين هدفها وتوجهها من خلال بعض المنتسبين لها ودورها المشكوك، لكن تحذيراتهم تواجه بتهم منها موالاة طائفة غير طائفتهم، بالإضافة إلى تهمة العمالة والارتزاق والتآمر وأحيانا موالاة العلمانيين.

كذلك بعض المثقفين من كُتاب وأكاديميين وباحثين. ولكن باءت انتقادتهم بالفشل الذريع (علماني، شيوعي، طائفي، الخ.....) تلك التهم المعلبة كما قال أحد المثقفين هي وسيلة ناجعة وتبرير منطقي لكثير من العقول الجامدة... إذا تحدث باحث أو مثقف، فورا ينعت بالعلماني، بالتزامن مع حملة توعية عكسية أن العلماني كافر، أمر مقلق لبعض المثقفين والكتاب حسب رأيهم. كان رد الشيخ أبو إيمان عليهم في برنامجه التلفزيوني الجديد «ماذا رأيتم من الله حتى تكرهوا الإسلام؟»، ردت عليه صحيفة بقلم الكامل (كاتب صحفي) «أنتم لا تدافعون عن اللّه، أنتم تريدون أن تكونوا اللّه»... بهذه الكلمات طُعن الكامل برقبته حتى كادت أن تذهب رأسه.

بدأت حروب كلامية كآلة قياس للمستوى العام للجمهور. تبادلت الشرائح الدينية والثقافية التبريرات كلٌّ حسب معتقده. نضوج سريع لعلم اللسانيات والتهم المتبادلة ولا استثناء لأحد، لا رموز الدين ولا رموز المذاهب ولا رموز المثقفين ولا رموز الأحزاب ولا الجمهور. الجميع يخوض ذلك وبشراسة وتعصب وجاهلية وبدائية مطلقة.

قطب الأستاذ مسعد جبينه وهو يتصفح أوراق الجريدة وقد جمع في عقله مادة للتحليل حول عناوين الأخبار لهذا اليوم. طوى الجريدة ووضعها جانباً ونظر إلى ساعته. تبقى ثماني دقائق

لانتهاء استراحة الطلاب. استدار نحو زميله الأستاذ فتحي وقال:

– حرب إعلامية متبادلة بين المثقفين والمحسوبين على المتدينين بعد محاولة اغتيال الكاتب الكامل.

الأستاذ فتحي منهمك في تصحيح أوراق طلابه. توقف عن ذلك، وقال:

– المشكلة ظهور آراء دينية وفتاوى لم نكن نسمع بها في الماضي.

– الدين أيا كان، دائما هو الغالب، الصوت الديني ينتصر دائما سواء كان في نفوس البشر من أجل الدنيا واحتيالا على الدين أو من أجل الآخرة بوجه خالص لله. وأهم الأسباب ارتباط الناس روحيا بالسماء والأنبياء. كل البشر يعتقدون أنهم في الطريق الصحيح لإرضاء ربهم. إلا أن التقصير العلمي النهضوي الذي يرقى بالمجتمعات وتحييد علوم إنسانية هي الحل بين النزاعات والاختلافات الثقافية والدينية كانت ومازالت سببا في الاختلافات الدينية والفكرية والثقافية والمفرداتية.

– ضريبة تكنولوجيا إلاعلام، إنها تعمل على تفكك ما تبقى من العقول.

– نعم، مراحل مرّ بها المجتمع لتصفير العقول، فكل وسيلة إعلامية توجه حسب إمكانياتها أكانت متواضعة أو ضخمة. فقد عملت على بناء أفكار تناسبها وحسب هواها وميولها، والنتيجة جمهور ينقاد خلفها. فكان التقصير في مواجهة التحديات والخروقات الاجتماعية ذات نتائج واضحة. مثلا، لم تعد المدارس تصنع العقول السليمة، ولم يعد الطالب ورقة بيضاء يمكن للمعلم الكتابة عليها القيم الصحيحة والمبادئ

والأخلاق الحميدة والمنطق وتلقي المعرفة الغير مبطنة التي تشكل مجتمعا سليما خاليا من التشوهات المعرفية، بل صارت عقول الطلاب عبارة عن أوراق ملوثة غير صالحة للاستهلاك العلمي أو المعرفي أو الفرز بين المنطق واللامنطق، وصار العقل توجيهياً يتلقى أوامره عن بعد وبالتأثير غير المباشر.

- أتقصد يا أستاذ مسعد أن الحلول تكاد تكون معقدة وبحاجة لتساؤل عن أول خيط للحلول، هل يكون بالتصفير المباشر للعقول بحيث تعود الورقة البيضاء إلى أصلها ليتمكن المعلم من إعادة كتابة القيم والمبادئ وغيرها من صفات حميدة، أم أنه من الضرورة الملحة التدخل لإعادة هيكلة عقول الطلاب الذين مروا وتجاوزوا مرحلة التأسيس الفكري؟

- تبقى الحلول معقدة ومركبة وبحاجة إلى أبحاث لخلق عوامل الحلول الجذرية للقضاء على الوحوش التي أطلت برؤوسها في كل العقول محدثة فوضى أجساد ومغيرة فطرة تكوينية بشرية. الأمر لا يقتصر على اختلاف المذاهب ذات النتائج الدموية، بل صار اختلاف الدين مع مذاهبه، والمذاهب مع فروعه، والأحزاب مع منافسيها، والدولة المجاورة مع جارتها، والشرق مع الغرب والشمال مع الجنوب، والمدينة والمديرية والحارة، والأسرة والفرد. تلك فجوات عبور عبر أجساد الأحياء إلى عالم الموت في مجتمعات عربية قررت الاختلاف وطعم الدم تلذذا وتعطشا كواجب وطني أو ديني أو مذهبي أو ثقافي مزور.

- هل عبارة «الاختلاف فضيلة» هي العنوان الرئيسي لأي مبادرة إنقاذ الفكر تيمنا بباقي مجتمعات البشرية؟

- يا أستاذ فتحي، كل المجتمعات على اختلافها المهول تستفيد من الاختلافات الفكرية لتطوير الفكر المتبادل أو بتحجيم مدى الخلاف وعلاج الهفوات أيا كانت، إلا مجتمعنا فالاختلاف اقتتال واحتراب وكوارث دامية.

- وعند الاقتتال تكون نظرية المؤامرة حاضرة!

- بصراحة، قبل أن يتحدثوا عن نظرية المؤامرة، عليهم أن يخبروني من يسرق الأحذية من المساجد!

★★★

عملت لمياء في محل بيع أدوات التجميل الخاصة بالرجال والنساء معاً. فتاة اليوم تختلف كثيرا عن الأمس. أصبحت ربة أسرة. الجميع مسؤول منها. عليها واجبات جمة تجاه أسرتها. هذا ما لم يقدره إبراهيم. أثارته الغيرة، فانفجر الغضب في نفسه. لم تعد هناك مساحة للتفاوض مع فتاة أحبها يراها تعمل في محل حيث تختلط مع الرجال. زد على ذلك كونه محلا لتغيير خلق الله حسب اعتقاده. انحط شأنها في نظره. زارها في المحل، دخل فوجدها تبيع مستلزمات الحلاقة لرجل، ظل واقفا يستغفر الله حتى انتهت من البيع. يقترب منها متسائلا:

- أأنتِ راضية عن هذا؟!

تظاهرت بعدم الفهم لترد عليه بالسؤال:

– راضية عن ماذا؟!.

أمسك بيديه الطاولة الزجاجية المخصصة للعرض وقال لها بغضب:

– سؤال سخيف، أليس كذلك؟!

ردت عليه بنوع من الحدة:

– لا تخطئ في حقي.

– تعصين أوامري وتطلبين ألا أخطئ في حقك؟!

كشرت في وجهه:

– أطيع أوامرك؟! من أنت حتى أطيع أوامرك؟!

يلتفت إلى يمينه ويساره وهو يزداد غضبا:

– من أنا؟! أنسيت من أنا؟!

تنهدت بحنق وقالت:

– لم أنس يا سيدي المفتي!

جحظت عيناه بقوة حتى كادت أن تخرجا وهو يقول بصوت عال:

– تسخرين مني؟!

– إبراهيم! لا تصعد من الموقف. نحن في محل ولسنا في الحي.

– أنا هنا يا سيدة الحسن والجمال لأقول لك شيئا واحدا.

– ما هو؟!

– أتركي هذا العمل المخجل والتزمي بالصلاة وتنقبي.

– هذا ليس من شأنك.

– لا تجعليني أتخذ قرارا تندمين عليه العمر كله.

– بعد أن خسرت أبي لا يهمني أن أخسر شخصا آخر.

– عودي إلى رشدك.

عادت قليلا إلى الوراء وقالت بانفعال:

– قل لي! ماذا أفعل؟ ما تريد مني؟! أتريدني أن أستجدي لقمة العيش من الناس لأهلي؟

هدأ قليلا وقال:

– سبق وقلت لكِ أني مستعد للتكفل بأسرتك.

ضحكت ساخرة وهي تقول له:

– لم تستطع مؤخرا التكفل بأسرتك بعد أن بدأ المرض ينال من والدك تدريجيا. أبوك أوشك على أن يصبح عاجزا عن العمل. بربك، قلي لي، كيف ستتمكن من تحمل عبء أسرتين. ناهيك عن عدم قبولي بأن تعيش أسرتي عالة على الغير؟

– سأكثف جهدي للعمل. وبإذن الله، سأتغلب على الصعاب.

– أنت تتوهم.

– أنا قادر على تحمل مسؤولية أكثر من أسرة إلا أنك تختلقين الحجج. هي كلمة واحدة إما أنا أو العمل في هذا المحل.

- دون تفكير يا إبراهيم حتما سأقول عملي وأسرتي. أما أنت، فإنك ملك لغيرك.

رفع حاجبيه وسألها باستغراب:

- ماذا تقصدين؟!

- تغيرت منذ أن التحقت بجماعة المسجد.

أغضبته، فقال لها شاتما:

- أنت مارقة وعديمة الأخلاق.

ردت عليه بنوع من الأدب وضبط النفس على عكسه:

- سامحك الله، أتركني وشأني، اذهب إلى أسيادك.

- هذا ما عندك؟!

- هذا ما عندي.

- أحذرك للمرة الأخيرة ، اعدلي عن قرارك.

- لا عدول عن ذلك.

قطب جبينه لينسحب من المحل وهو يرمقها بنظرات لا يدري ما هي، أهي الحقد الجديد تجاه فتاة أحبها منذ سنين الطفولة؟ أم أنه الحب مازال يسكن مكانه في القلب؟ اختفى جسده وهو يمشي في الشارع يتلفت خلفا من لحظة لأخرى. أما هي، فقد تنهدت لتظل ثابتة في مكانها وكأنها جماد لا تدب في أوصاله الحياة.

★★★

الشمس على وشك الرحيل وابن وسيطة لم يعد إلى المنزل حتى الآن. بارتباك شديد وبكاء ونحيب، تمشي في الحي طالبة المساعدة من كل من تلقاه:

«ابحثوا عن ابني، ابني مفقود لم يعد حتى الآن، أريد ابني». هذا ما كانت تقوله لعامة الأهالي، مدركة مصير ابنها المجهول، لأنها تعلم كم من طفل فقد ولم يعد أبدا. هناك سوابق في مثل هذه الحالات. أطفال يختفون فجأة في جميع الأحياء ولا يعودون إلى الأبد. لا تحقيق يصل إلى الجناة ولا معلومة واحدة عن مصير الأطفال. كل شيء مجهول.

صوت يهز أرجاء الحي. بكاء وشق جيب. النساء من حولها يهدئن من روعها. والرجال يقولون لها ربما يعود وهي تقول: أعرف أنه لن يعود إلى الأبد: «لقد خسرته». ظلت وسيطة منهمكة في مصيبة فقدان أحد أبنائها. فلم تعد تعلم ماذا تفعل وأي طريقة تسلك. المصيبة صارت اثنتين. فقدت ابنها وزوجها وسيم قابع في غياهب السجن.

★★★

من الهوايات التي يمارسها رشيد اللعب مع الصغار. يرى فيهم متعة حياة لا متناهية، يرى نورا لا ينقطع وينبوع لا ينضب. كل يوم جمعة، ينهي عمله مبكرا ليخصص وقته لعيده الأسبوعي. يعود بعد صلاة الجمعة إلى الحي ليقضي وقته مع الصغار. ينتظرونه بفارغ الصبر. يعدون الدقائق ويراقبون مدخل الحي في لهفة لطلة جسده العريض وبيده كيس الحلوى. يجتمع حوله الصغار مرددين (عم رشيد) وكأنهم نحل. يوزع قطعة حلوى لكل

طفل محروم. يأخذ طريقه وهم يتبعونه. ومنهم من يخفي ما حصل عليه وينادي «عم رشيد أنا لم تعطني نصيبي». يداعب من أصر عليه أنه لم يحصل على قطعته وهو يضحك. يتوجه بعد ذلك إلى منزله ليكمل هوايته مع ابنتيه.

هذه الجمعة ليست كسابقاتها. دخل المنزل فوجد أخاه عادل يهم بالخروج بعد زيارة قصيرة لوالدته. تلاقى الأخوان وجها لوجه. وجد رشيد أن هذه فرصة مناسبة ليلقي العتب من قلبه في وجه أخيه. وقفة عادل تبعث رسالة مفادها الكبرياء والتمرد على القرابة. مد رشيد يده ليصافحه وكأنه هو الذي تناول يد أخيه وراح يرفعها نحو الأعلى ثم الأسفل. امتعاض عادل واضح من وجهه الشديد الاحمرار وكأن الدم تمركز في أذنيه وأوشك على إحداث فجوات ينفذ منها. رشيد لا يعلم ما حل بأخيه، بل مضى قدما بالترحيب به، والأخ يهز رأسه ولا ينبس ببنت شفة، حتى قال له رشيد ناصحاً:

— لا تطل الغياب، وأكثر من زيارات أمك.

عادل يرى أنه على حق، فرد على أخيه بعنجهية:

— أتراني مقصرا؟!

صراحة رشيد، جعلت أخاه ينظر إليه نظرة ناقصة، رد عليه:

— بالتأكيد. آخر زيارة كانت قبل شهر ونصف.

لم يكن يعلم أن والدته قد وجهت عتابها إلى عادل وقالت له: «هنتُ عليك، وكأن بطنا أخرى هي التي حملتك. ابني هو

رشيد. أما أنت، فمنه العوض وعليه العوض».

كشر عادل، ورفع حاجبيه، ليوجه أصابع الاتهام لأخيه بغضب عارم:

— أنت تُحرض أمي عليّ، كفاك حقدا يا رجل.

— معاذ الله يا أخي. إني لك نصير وسند.

— وتكذب أيضا!

— أستغفر الله، ما عهدت نفسي كاذبا.

— وما الذي غير مزاج أمي وجعلها تحمل في قلبها الكره لي؟!

— أنت...

— أتسخر؟! (قالها عادل بكره)

— هذه الحقيقة.

— عجيب!!! أنا أحرض أمي على نفسي!

— لو زرتها بشكل منتظم لما أخذت على خاطرها منك. كم نصحتك؟!

نظر نظرة أخيرة إلى رشيد ليغادر على إثرها بطريقة استفزازية جعلت رشيد يدعو له: «هداك الله، وأعادك إلى صوابك». ثم يدخل إلى أمه ليهدئ من غضبها ويترجاها بأن تسامحه.

★★★

حالة جهوزية قصوى في مقهى الدب الصغير. كل واحد يجهز نفسه. أمسك الأستاذ مسعد بكتف زميله الأستاذ فتحي قائلا بعتب:

- لمَ يا زميلي لا تكتب شيئا وتلقيه على مسامعنا؟ يجب أن تشرف المسرح بإطلالة لك.

- لا شيء لدي كي أقوله. استمتع بسماع ما تلقونه.

- يجب أن تثرينا بمعلوماتك الثقافية، شاركنا يا رجل.

- ليس لدي قدرة على التأليف الأدبي.

- شارك بأي شيء يمكن قراءته، نعم، مثلا أي شيء له علاقة بتخصصك الجغرافيا. مثل حوادث السبي لنساء عند العرب.

ضحك فتحي بتعجب:

- وما دخل الجغرافيا بحوادث سبي النساء؟ هذا موضوع تاريخ تخصصك يا أستاذ..

رد مسعد مثبتا فكرته:

- صحيح إنها تاريخ ولكن الحدث حصل على أرض الجغرافيا.

ضحكا بعمق وتناول فتحي الورقة والقلم وكتب شيئا مما سبق له أن قرأ. أعلن مسعد أن الأستاذ فتحي سيلقي عليهم اليوم ولأول مشاركة له على المسرح، تفاعل الجميع بالتصفيق. شعر فتحي بشيء هو الأول من نوعه يجتاح كيانه من رهبة وقيمة عندما يحظى باهتمام من حوله بتصفيق خاص. صعد المسرح وقال:

أعزائـي جميعـا! سـألقي علـى مسـامعكم اليـوم أجمـل مـا قـرأت، نظريـة قيـل إنهـا للفيلسـوف الرومانـي ماركـوس توليـوس كيكِـرو (سيسـيرون) الـذي ولـد سـنة ١٠٦ ق.م. لكـن هنـاك مـن شـكك أنهـا نظريـة، قبـل الميـلاد لم تكـن المصـارف موجـودة بمعنـى مصرف حسـب مـا أعلـم، ولكنهـا تبقـى نظريـة تنطبـق علـى واقعنـا اليـوم بغـض النظـر عـن قائلهـا الحقيقـي الـذي يبقـى مجهـولا علـى الأقـل بالنسـبة لـي ولم أصـل لقائلهـا الحقيقـي:

- الفقـير: يعمـل. – الغـني: يسـتغل الفقـير. – الجنـدي: يدافـع عـن الاثنـين.

- المواطـن: يدفـع للثلاثـة. – الكسـول: يعتمـد علـى الأربعـة. – السـكير: يشـرب في صحـة الخمسـة. – الصـيرفي: يسـرق السـتة. – المحامـي: يغـش السـبعة. – الطبيـب: يقتـل الثمانيـة. – حفـار القبـور: يدفـن التسـعة. – السياسـي: يعيـش علـى دمـاء العشـرة.

تصفيـق حـار، هالـة مـن الاسـتغراب، هـذه النظريـة هـي أجمـل مـا قيـل اليـوم. عـاد فتحـي إلى طاولتـه بشـعوره العريـض بالقيمـة، ربـت علـى كتفـه الأسـتاذ مسـعد وهـو يقـول مازحـا: «تتفلسـف فلسـفة لم يتفلسـفها فلاسـفة متفلسـفون بالفلسـفة».

- كل هذا لأني أسمعتك ما تحب من النمط الأدبي (رد فتحي).

- بـل أضحكـني توصيـف الطبيـب والسياسـي. (يضحـك مسـعد بإسـراف). ذكرتـني بالطبيـب عندمـا تشـكو لـه مـن الـزكام ويكتـب لـك وصفـة طبيـة بهـا عشـرة أنـواع مـن الأدويـة. لا توجـد وصفـة طبيـة وليـس الـدواء الأول بهـا مضـاد حيـوي، والثانـي مضـاد

التهابـات. والثالـث فيتامـين أول، يليـه فيتامـين ثانـي وثالـث.

يضحك لؤي وهو يقول:

– الوحيـد الـذي ينقـاد وراء كذبـه هـو الطبيـب العربـي. لـو تشـكو لـه مرضـا ليـس فيـك، لا يمكنـه أن يكتشـف أنـك تكـذب عليـه. بـل يتفاعـل مـع الكذبـة، وكأنـه بالـكاد وجـد زبـون.

قال فتحي معقبا:

– قـد تجـد الرثـاء لحالتـك مـن نبـاش القبـور ولا تجدها مـن الطبيب. عنـف في المعاملـة وخشـونة في الأداء. إنهـم أجلاف.

قال مسعد ولم تتوقف لديه نوبات الضحك:

– أمـا لـو لعنـك التاريـخ وقـام يحقنـك بحقنـة أو طلـب مـن المـرض فعـل ذلـك. بتاريخـي، يطعنـك بخنجـر في مؤخرتـك. تجـده يـزداد بسـالة وهـو يقـول لـك انـزل سـروالك. لـكل مهـني هوايـة. (يشير بسـبابته موجهـا السـؤال لهمـا...) أتسـتطيع أن ترفـض أوامـره بخلـع سـروالك؟ ليـس لـك حـق في التمرد عليـه، دكتاتوريـة مطلقة.

قال فتحي داعما للموضوع وهو يضحك:

– ليـس الموضـوع فقـط حقـن. حتـى الأمـراض الجديـدة الـتي لم نرهـا في الواقـع. أتعبونـا وكل يـوم يخترعـون لأنفسـهم مرضـاً، أنفلونـزا الخنازيـر، أنفلونـزا الطيـور، جنـون البقـر. جنـون الصراصـير، كأنهـم في حديقـة الحيوانـات أو في مركـز بيطـري.

تدخـل أحـد الجالسـين في الطاولـة المجـاورة داعمـا لحـوار يسـمعه وتفاعـل معـه:

– مرة يقولون الشاي له أضرار صحية. وبعد فترة، يقولون مفيد لصحة، وكذلك القهوة. ما هو مفيد بالأمس هو مضر لصحتنا اليوم. ينسون بسرعة أنهم قد أطلقوا كذبة سابقة.

★★★

وصل جاسر نبيل إلى حدود التوسع وانتهى منه. والآن، حان وقت التعمق فيه على حساب الطبقة الوسطى. رجل الاقتصاد من الدرجة الأولى اسمه تغلب على جميع الأسماء. لا أحد يمكنه مناقشته. وليس هناك من يتجرأ على ذلك. ومن أقدم على المنافسة، يمسح اسمه من سوق المال والأعمال. هذا الرجل ليس له تأهيل علمي في الصغر. في السنوات الأخيرة كان له جلسات مع أساتذة جامعيين في علم الاقتصاد الحديث والعلوم السياسية. لكن الخبرة غير المحدودة وروح المغامرة كانتا أهم من تلقيه دوارات علمية أوصلته إلى قمة الثروة. الشيء الوحيد الذي ليس له خبرة فيه التعمق الشديد والاستيلاء من خلال السيطرة على سوق البورصة والأسهم. جاءته توجيهات بالتعمق في السوق المالي. قبل ذلك، عليه معرفة جميع تفاصل الميدان. استعان بكبار أساتذة الاقتصاد في الجامعة وكبار سماسرة الأسواق المالية لتقديم شروح إضافية عن البورصة. أسابيع وهو يجمع المعلومات الدقيقة حتى شعر أنه اكتفى. والآن، عليه الدخول بكل ثقة بمساعدة كبار المحللين الاقتصاديين والخبراء والسماسرة الماليين. أنشأ قسماً خاصا يجمع هؤلاء المساعدين، يُقدم له النصح والتوجيهات. عرض إحدى المؤسسات للاكتتاب واضعا أربعين في المائة من الأسهم ثمنا بسعر المؤسسة كاملة. كسب أسهم ستين بالمائة. يعرف أن الجمهور

مغفل، فقال مقولته أمام كبار المستشارين: «هذه تجارة وشطارة». الآن، كل شيء على ما يرام من الناحية الاقتصادية. أما من الناحية الأخرى، فقد بدأت المضايقات بشكل مكثف أكثر من الماضي. بعد نجاح كل المشاريع، أصبح وجبة دسمة لا غنى عنها للبعض. هذا الصراع جعل جاسر يشعر بنوع من الفراغ في السلطة إلى جانب المال ما الحل في مثل هذه الموقف؟ أسبوع انقضى وجاسر يفكر بشتى الطرق من أجل ضم السلطة مباشرة إلى جانب المال. وهذا يعتبر إحدى استراتجية وجوده في هذا المكان.

تحت شجرة النخيل في مزرعته، ظل واقفا لفترة طويلة وهو منهمك في التفكير: «أستطيع الوصول إلى منصب وزير، أستطيع فعل ذلك. هل سينفعني هذا المنصب إن نجحت؟! وهل سأجد الوقت لإدارة الشؤون المالية أم أقضي جل وقتي في الوزارة من أجل البلد؟! هذا ما لا أريده. أريد سلطة ونفوذا دون إعطاء الآخرين من وقتي، ولكن كيف ذلك؟ لو دخلت مجلس الشعب، هل سأجد الفرصة لتوسيع النفوذ دون إهدار الوقت في شؤون الدولة؟ أعضاء مجلس الشعب لا يحضرون الجلسات إلا مرات قليلة في الأسبوع، وربما في الشهر. وفي المرة لا يتجاوز مدة الحضور ساعة. هذا ما أريده. ماذا لو فشلت في الاقتراع؟ حتما ستنهار سمعتي وسيؤثر ذلك عليّ سلبا. يجب علي أن أجد طريقة عن طريق الحزب». هذا ما كان يدور في خلد جاسر.

انتقل في منتصف اليوم لزيارة مفاجئة إلى مكتب مسؤول رفيع المستوى في الحزب هو من أصحاب الكلمة الأولى بتسمية المترشحين. دخل عليه، استقبله بحفاوة وترحيب شديدين. طلب

قهـوة احتسـياها وهمـا يتحدثـان عـن أمـور شـبه تافهـة اعتـادا عليهـا علـى سـبيل تبـادل المجامـلات.

- أنـت سياسـي لـه ثقلـه خـدم البلـد لسـنين عديـدة وضحـى بحياتـه مـن أجـل الشـعب (هـذا مـا قالـه جاسـر).

- أنـت رجـل اقتصـاد ناجـح رفـع رأس الاقتصـاد الوطـني ونسـتطيع أن نأخـذ منـك الخـبرة في الإدارة الماليـة لأنـك تعتـز بالوطنيـة والاسـتثمار في بلـدك (رد عليـه الدكتـور ناصـر الحمـراوي).

دخـل جاسـر في صلـب الموضـوع عندمـا قـدم سـيجارا راقيـا للدكتـور ناصـر وأشـعل لنفسـه واحـدا وهـو يقـول بطريقتـه المعتـادة المتثاقلـة الـتي تنبـئ عـن اللامبـالاة بمـا يطلبـه:

- أريد أن أكون أحد رجال هذا الوطن.

أجابه الدكتور ناصر بمجاملة:

- أنت كذلك...

- أريد أن أصبح أحد الأعضاء الفاعلين في الحزب.

- ومـا المانـع في ذلـك؟! للحـزب الشـرف العظيـم أن ينضـم إليـه رجـل مثلـك..

ضغط ناصر على جهاز المناداة ليقول للسكرتير:

- احضر استمارة الانتماء إلى الحزب فورا.

- تحت أمرك دكتور.

سحب يده من على الجهاز وعاد يقول لجاسر بترحيب:

– ثوان والاستمارة أمامك. دقائق وتحصل على بطاقة العضوية.

– لدي بطاقة قديمة كعضو عادي استخرجتها قبل ثماني سنوات على ما أذكر.

– دعك منها. هذه البطاقة الجديدة خاصة بمنظري الحزب، أصحاب التاريخ العريق في خدمة الحزب.

طرق السكرتير الباب، دخل، وضع الاستمارة على الطاولة وخرج. قال الدكتور ناصر لجليسه وهو يمد له الاستمارة:

– خذ الاستمارة وأكمل البيانات. وإن أردت، خذها معك وأرسلها لي في الغد مع صورتين شمسيتين.

– سأرسلها في الغد مع المحامي. لأني لا أملك الآن صورا شمسية.

– افعل ما تريد.

وجد جاسر الفرصة جيدة للخوض في موضوع الترشح، فقال متسائلا:

– أنا أقيم في حي «الجماهير» الراقي.

– حي مشهور...

– من هو مرشح مجلس الشعب هناك؟

– المرشح هو «سيف الخالد» أحد كبار الحزب.

– ورجل أعمال مشهور يا دكتور.

– وكذلك أيضا، هل من معضلة معه؟!

– لا، إنه صديق ومنافس تجاري. طبعا في الماضي، أما الآن أنت تعلم كم حجمه الاقتصادي.

– لم يتطور كثيرا.

– هل سيترشح باسم الحزب هذه المرة؟

– نحن مستاءون من هذا الشخص، أظهر فشله.

– ماذا لو ترشحت أنا؟

وقف الدكتور ناصر، توجه نحو جاسر ورمقه بنظرة تأمل وتفكير عميق، ثم جلس على الكرسي المقابل لضيفه وقال ناصحاً:

– مالك وما لهذا. لم تعد لعضو مجلس الشعب قيمة تذكر هذا الزمان. إنها موضة قديمة. إن أردت، سنقدمك مرشحا لمنصب وزير الاقتصاد لأنك اقتصادي ناجح تستفيد الحكومة من خبرتك ونجاحك.

– لا أريد أن أكون وزيرا. أعمالي كثيرة ولا يمكنني التفرغ لعملي وعمل الوزارة.

– سندرس هذا الموضوع.

– لا أريد معارضة تكون عقبة أمامي في الدائرة.

– وجود الأحزاب أمر مهم.

أطفأ جاسر سيجارته ورفع ناظريه بشكل خاطف نحو الدكتور ناصر:

- لا أريـد أي منافـس قـوي. ابحـث عـن حـل وأنـا سأشـارك في الحــل.
- إذن، عليك التعامل مع الأحزاب المنافسة.
- وهو كذلك.
- وإذا استعصى الأمر، لديك ورقة الأحياء العشوائية.
- وضعتهم في بالي تحسبا.
- هذا جيد.
- افعـل مـا تـراه مناسـبا يـا دكتـور! وسـيكون لنـا تعامـلات هامـة جـدا في شـتى المجـالات.

عـض الدكتـور شـفته السـفلى ورفـع حاجبيـه وهـو منغمـس في التفكـير وتحميـص مـا يـود طرحـه:

- لدي سؤال.
- تفضل.
- ماذا تريد من الانتخابات؟! وما هي مصلحتك؟!
- خدمة الشعب.
- منوال قديم.
- ماذا تقصد؟

- دعك من الانتخابات. أنت تبحث عن الحصانة ونحن حصانتك. ليكن بيننا رابط مشترك وشراكة حقيقية، ستجدني خلفك. أما مجلس الشعب فإنه يفضح ولا يستر. مجلس الشعب موديل قديم جداً وهو لأصحاب الأعمال المتواضعة. (قالها الدكتور ناصر ناصحاً)

كأن جاسر فهم المقصود ولكنه تغابى:

- لم أفهم.

- تصرف وكأنك وزير ولا عضو. ونحن وراءك ولن يعيقك شيء. المهم أن تتذكرنا دائما.

- تقصد.... المقبلات.

- فهمك أكبر.

دس جاسر يده في جيبه وأخرج دفتر الشيكات الخاص بحسابه في أوربا ووقع على مبلغ نصف مليون دولار ومده لناصر وهو يتابع حديثه:

- في المستقبل، ستصلك الوجبة الرئيسية.

تناول الدكتور ناصر الشيك وقال لجاسر:

- لو لم تزرني اليوم، كنت سأزورك في الأسبوع القادم. وهذا في برنامجي، فلا يعقل ألا نلتقي.

سحب جاسر كرت هاتفه وسلمه إلى الدكتور وقال:

- هذه أرقام هواتفي.

وقـف جاسـر وصافـح الدكتـور ناصـر. وحـين هم بالمغـادرة، اسـتوقفه الدكتـور قائلا:

– كنـت ألتقـي بـك عـن طريـق شـوقي. كان مفوضـا عـني دون أن تعلـم. منـذ الآن، التعامـل معـي مباشـرة.

ابتسم جاسر قبل أن يخرج وكانه كان يعلم ذلك وهو يقول:

– كما تريد.

آخـر لقـاء لجاسـر مع شـوقي كان قبل أربعة أشـهر. اعتـاد على إزالة الكثـير مـن العقبـات لجاسـر كونـه نائـب رئيـس مجلـس الـوزراء قبـل إقالتـه مـن المنصـب بعـد حمـلات تشـهير كـبرى قامـت بهـا الكثـير من الصحـف بعـد فضيحة مالية من العيار الثقيـل. والحقيقة أنه كان واجهة لغـيره. ولتغطيـة الفضيحـة، تم التضحيـة بـه مـن قبـل رجـال الظـلام.

اقتنـع جاسـر بـكلام الدكتـور ناصـر أن مجلـس الشـعب موديـل قديم ولا يليـق بشـخصيته، اتخـذ قـرار نسـيان هـذا الموضـوع والتفـرغ لخطـوة جـد مهمـة وهـي جـذب شـخصيات كـبرى اجتماعيـة وسياسـية وثقافية وعلمية لأهداف مرسـومة مسـبقا لا يعلمها إلا جاسـر وبالطبع مرؤوسـوه.

★★★

حـي الصفيـح صـورة مصغـرة لعـالم أكـبر منـه بكثـير، أصبـح الحـي مرتعـا للجريمـة والتمـرد علـى الأخـلاق. يتـم ذلـك عـن طريـق سمسـار متخصـص في عقـد اللقـاءات بـين الفتيـات أو الأولاد حسـب الطلـب. بعـد زوال الشـمس يبـدأ الـرواج، جميـع الزبائـن تقريبـا معروفـون لـدى السماسـرة. ومـا أن يهاتفـه، يبـدي طلبـه ويتـم إرسـال الطلـب

إلى المنزل أو الفندق عند المساء. في الماضي كانت الجريمة نادرة والانحراف نادرا. أما اليوم، وقد تبدل الحال، فشرفاء الأمس أصبحوا يعانون من فساد أولادهم. لم يبق إلا القليل من الأسر لم يتسلل إليها الداء. وفي أي لحظة، قد تقع أسرة ما في وحل الفساد.

شرفاء الحي متذمرون مما آلت إليه الأوضاع. كم تمنى الجميع لو أنهم يستطيعون الرحيل. ولكن إلى أين؟ الانتقال إلى أحياء القارونيين بحاجة الى تأشيرة دخول، ولا يمكن لموسوي امتلاك جواز سفر «المال»، إذا، ما الحل؟ سؤال طرحه الكثيرون من أبناء الحي وأجابوا عنه بأنفسهم. الحل بين يدي تجار البشر والدماء. الأحياء القصديرية منبع واضح لجمع الأموال والانتقال من حالة الفقر إلى الثراء. هذا المنبع ليس للأهالي بل للمجرمين. الأهالي ضحية لعبة الزمن على يد من لا إنسانية له. كم من عصابة ظهرت في جميع الأحياء المشابهة تتاجر بالإنسانية وأخرى في الدعارة في كلا الجنسين الذكور والإناث من الأطفال والشباب. الآن، تجد أطفالا متسكعين أمام الأحياء ينتظرون من يأخذهم للممارسة الشاذة مقابل القليل من المال!

والأشد سوءا اختطاف الأطفال ممن أصبحوا أطفال شوارع بالذات. الأسبوع الماضي، اختطف مجنون يعتبر من أبناء الحي. قبل زمن ليس بالبعيد، اتخذ من إحدى زوايا الحي مكاناً له. وبعد اختفائه لفترة أسبوع، لا أحد أدرك ما حدث له. فقد تم قرصنة أعضائه الداخلية ثم رمي كالعلبة البلاستيكية لا قيمة لها في مزبلة. الوضع يسوء. فقد ظهرت عصابات تعمل على تهريب البشر إلى دول أخرى. وعصابات ليست أقل إجراماً وفتكا بالكائن

البسيط الفقير والجاهل، يغرون الأسر ويشترون أعضاءهم البشرية هم وأولادهم مقابل مبلغ مالي بسيط، بالنسبة للتاجر. أما الفقير، فالمبلغ يبدو كالحلم لا يصل إليه...

هذه السلبيات والكوارث قوارب نجاة لكل مغلوب على أمره. لا يتردد أحد في بيع ما يملك. هذا إذا كان يملك شيئا يستحق البيع مقابل دفع المبلغ لمهرب ما يقوم بتهريب ابنه إلى دولة تتوفر فيها فرص العمل عن طريق دروب طويلة آخرها قارب صغير. ظاهرة أصبحت شائعة، فمن يوفقه اللّه، حسب قول الأهالي، يحتفلون به قبل رحيله في طريق الموت الذي يبحر إلى عالم المجهول. ولا تبخل النساء بالزغاريد وتوزيع الحلوى احتفالا بالثراء المحتمل على الأسرة التي سيغادر أحد أبنائها. رغم أن أحد أهالي الحي اقتاد ابنه ليودعه. وما هي إلا أيام، حتى وصله نبأ وفاة ابنه نتيجة غرق القارب. تفكيره بإرسال ابنه الثاني فاق لحظات العزاء.

هذه السلبيات جعلت عبد الحميد مطمئنا نوعا ما على ابنه إبراهيم الذي يعتقد أن تشدده وقاية من الأخطار المستقبلية «لا خوف من التدين بل الخوف من الانحراف الأخلاقي والوقوع في الجريمة» كذا قال ذات يوم. كلما وجد ابنه ملتزما بعمله وبالصلاة، ازدادت سعادته وتشجيعه له أن يمضي قدما في هذا الطريق.

إبراهيم شاب يقدس والديه، يعاملهما باحترام وتقدير ويسمع لنصائحهما. أصبح أكثر هدوءا ووقارا في أنظار الأهالي إلا لمياء. انزعاجها جاء نتيجةً لتغير طباعه نحوها. صبت جم غضبها على التدين، تعتقد أنه كان عائقاً حال بينهما ودون تحقيق لهدف كان مرجواً منذ سنين.

إبراهيم في شكله الجديد شاب ملتحي يرتدي ثوبا أبيض وكوفية بيضاء وسروالا أبيض أطول من الثوب. ذلك معلوم منذ تدينه. التطور الجديد حمله بيده سواك بشكل دائم. يبصق على الأرض كل دقيقة. أثر الحب الماضي مازال في قلبه. يعتقد أنها لو تدينت لدخلت الجنة معه. فجل همه ألا تبقى ضالة. منذ فترة لم يلتقيا على انفراد، وإن التقيا اكتفيا بالتحية العابرة. آخر محاولة للجمع بين قلبيهما كانت يوم جلس إبراهيم إلى جانب والده بعد صلاة الفجر، فقال عبد الحميد لابنه بعتب:

– يا بني، كل ما هو فيك يزيد إعجابي بك. أحب شكلك هذا العامر بالإيمان والإخلاص لله عز وجل. ولكني اختلف معك في قضية لمياء.

– لقد نسيتها. (قالها دون تفكير)

– إنها فتاة طيبة يا بني! عشنا عمرا تجمعنا المحبة والأخوة والجوار مع أسرتها وكنت أنا وأبوها رحمه الله نريد أن تكللنا المحبة باختلاط الدم بين الأسرتين بزواجك من لمياء.

– لا أريد الزواج من فتاة لا تحترم الطريق الذي أسير فيه.

– كنت تحبها وهي كذلك.

– كنت أحبها. أما اليوم، فأنا أراها فتاة مغرورة.

– ولكنكما تربيتما العمر كله في مرتع واحد.

– واختلفنا على سبب واحد.

– هذه آخر فرصة لك معها يا بني!

قال إبراهيم بارتباك:

– ماذا تقصد؟!

– والدتها تحدثت إلى أمك بشأن هذا الموضوع مساء الأمس. بأن شابا من المدينة تقدم لخطبتها.

قال إبراهيم مصطنعا اللامبالاة:

– وما شأني بذلك؟!

– لعلك يا بني! ترغب في الزواج منها.

هو يعرف أنه اتخذ طريق اللاعودة، في رأيه أنه وهب روحه لله سبحانه وتعالى. مازال يحبها. ولولا طريقه الذي يسير فيه، لعدل قراره في شرط التزامها الديني.

– فلتتزوج من شاب متحضر.

– أخشى أن تندم.

– علام أندم؟! أنا شاب يريد رضا الله.

– وهل رضا الله بالابتعاد عن لمياء؟!

– أقصد...أقصد أني أحب هذا الطريق الذي اخترته لنفسي ولن أندم على هذا الاختيار.

– إذن، لتبلغ والدتك أم لمياء أنك لا ترغب في الزواج منها بطريقة مهذبة كي لا تجرح مشاعر الأسرة.

وقـف عبـد الحميـد وهـو يتابـع قولـه بأنـه ذاهـب ليتمشـى قليـلا لعلـه يسـتعيد جـزءاً مـن صحتـه.

الألم يعصـر قلـب إبراهيـم ويطحـن مفاصلـه. يُصـبر نفسـه بالإيمـان الـذي يغمـر قلبـه مـن مجمـل محاضـرات تلقاهـا. يعـرف أنـه قسـى علـى لميـاء ويتمنـى مجاهرتهـا بمـا في قلبـه إلا أن رضـاء الله حسـب مـا أُملـي عليـه يمنعـه مـن نشـوة الدنيـا ويحثـه علـى العمـل للآخـرة. لـذا، زار لميـاء في محـل عملهـا، نظـر في عينيهـا نظـرة أبكتهـا، تلـك النظـرات اسـتطاعت اسـترجاع الذكريـات مـن قامـوس الماضـي. وبعـد صمـت متقـع لثـوان، سـألها إبراهيـم، أمازالـت تحبـه. أجابتـه، بـأن لا يسـأل هـذا السـؤال، وبأنـه يعـرف الإجابـة. ثـم اسـتدركت كلامهـا لتقـول: «ما...زلـت....» وصمتـت، فقـال لهـا إنـه مـازال يحبهـا وقلبه عامـر بحبهـا. تفاعلـت وهـي تسـأله عـن سـبب تقاعسـه وتهاونـه تجاههـا. أجابهـا بأنـه يـرى سـعادتها مـع شـخص آخـر وكل همـه أن يراهـا سـعيدة مسـتمتعة بحياتهـا. أخبرتـه أن سـعادتها معـه ولا يمكـن لخـلاف فرعـي علـى العمـل أن يفـرق بـين قلبيهمـا المتعانقـين، وأن يقضـي علـى الماضـي الحافـل بالحـب. هـواهُ جعلهـا أكثـر هـدوءا ووداً وأثـار فيهـا مشـاعر دفنتهـا مؤخـراً. اعتـذر لهـا وطلـب منهـا الصفـح. بـدأت تستشـعر أن ثمـة أمـرا يخفيـه في قلبـه. سـألته عـن سـبب هـذا الاعتـذار. أجابهـا بأنـه لا يسـتطيع الارتبـاط بهـا. يتـدارك دموعـه وهـو يطلـب منهـا الصفـح مجـددا. تترجـاه أن يفصـح عمـا في قلبـه ومـا يمنعـه منهـا. انسـحب بهـدوء وهـو يقـول لهـا:

— أتمنـى لـك حيـاة سـعيدة مـع مـن تقـدم لـك. وأنصحـك بتقـوى الله والمحافظـة علـى الصلـوات في أوقاتهـا. النقـاب عفـة..

انفجـرت بـكاء، عيناهـا ينظرانـه يغـادر، أوشـكتا علـى الاقتـلاعِ للحـاق بـه. «إبراهيـم لـو لم تكـن تحبـني لمـا بكيتـك، تحبـني لم تتركـني؟ سـأترك عملـي فأنـت أغلـى.....» توقفـت لميـاء عـن الـكلام مدركـة أن لا فائـدة. فجسـده يتحـرك ويخطـو خطـوات لخـارج المحل.

«فـات الأوان، لـن أجعلـك تشـقين مـن بعـدي. خـيرا، لـك أن تبكي لحظـات علـى أن لا تبكـي العمـر بأكملـه. أنـا ذاهـب لمـا هـو خـير وأبقـى». هـذه تمتمـات إبراهيـم وهـو يتحسـس طريقـاً حالـت الدمـوع بينـه وبـين إبصـاره. هـذا اللقـاء غريـب كالريـح الـتي تسـبق العاصفـة، غبـار يتطايـر دون مـبرر. هـي لا تـدري مـا يـدور مـن حولهـا. فقـد بـدا إبراهيـم أشـبه بمشـتت الذهـن كمـن يأخـذ قيلولـة بعـد المغـرب.

نهايـة الأسـبوع، أُعلنـت خطبـة لميـاء مـن شـاب تخـرج مـن كليـة الأدب لغـة إنجليزيـة، تعـرف عليهـا عندمـا زار المحـل الـذي تعمـل فيـه لشـراء بعـض الأغـراض، وأعجـب بهـا. لم ينتظر طويـلا حتى تقدم لخطبتهـا. في هـذا اليـوم حتمـا لميـاء سـعيدة وحزينـة في نفـس الوقـت. سـعيدة لخطبتهـا وحزينـة علـى مصير إبراهيـم، تعاتـب نفسـها قليـلا. ومـا تلبـث إلا لحظـات حتـى تـبرر موافقتهـا علـى عريسـها بكـون إبراهيـم رفـض الارتبـاط بهـا. أقيمـت حفلـة متواضعـة، حضـر فيهـا المدعـوون جميعـا حتـى عبـد الحميـد وزوجتـه، ماعـدا إبراهيـم المنهمـك في محاضـرة في منطقـة اليبابـة مـع أبـو معـاذ الـذي أبـدى اهتمامـا غـير عـادي بإبراهيـم. فهـو يـرى فيـه شـخصاً مناسـبا لتنفيـذ عمـل جيـد لـه ولـن يقـوده. خاصـة بعـد أن أبلـى إبراهيـم بـلاء حسـنا في التدريبـات الميدانيـة والفكريـة ممـا سـهل التعامـل معـه.

★★★

الخصخصة سبب نجاح الكثيرين في اقتصاد الدول المتقدمة. يجب تخصيص المنشآت العملاقة الحكومية. تتم الموافقة، شركات جاسر في المرصاد لكل ما يعرض. لا يمر وقت قصير حتى يمتلك نصيبا جديدا من اقتصاد البلد. الآن بدأت مرحلة جديدة. ظهر الدكتور ناصر للوقوف في طريق جاسر طالبا حصة في المشاريع المخصخصة وإلا يتم رفض المشروع. جاسر يعرف أن في هذه المرحلة يجب أن يكون الدكتور ناصر شريكا معه في حصة متواضعة. لذلك، لم يبخل عليه. يرسل حصته أولا بأول دون تأخير. بدأ بالخصخصة في الأسعار التي يراها مناسبة. الدكتور ناصر ومن وراءه مرتاحون من جاسر فقد ظهر لهم كوكيل لنواياهم. بالأمس، خصخص مصنع تعليب الأسماك بقيمة خمسين مليون دولار فقط. هذا المبلغ هو ثمن الأرض من بداية الساحل إلى نهايته. أما المكسب، فسيتمثل في المصنع الحديث وسفن الصيد. ومع خصخصة هذه المنشأة، ناقش البرلمان مشروعا يمنع الصيد العشوائي بحجة أنه يهلك الثروة السمكية ولا يسمح الصيد إلا بترخيص. هنا، أصبحت شركة جاسر ومن يقفون وراءه هم ملوك الأسماك في البلد، لا بل في المنطقة برمتها، استهلاك داخلي وتصدير للأسماك المعلبة. أما الصياد، فأصبح عاطلا عن العمل بفعل قانون جديد يمنع الصيد العشوائي إلا إذا كان الصياد يمتلك إمكانيات علمية أُعلن عنها تحت ظروف معينة وشروط استثمارية قاهرة تنفر المستثمر المنافس وتبعده عن هذا المجال.

لم يعد جاسر وشركاؤه الدخلاء العقول الوحيد التي تفكر بالمشاريع القابلة للاستثمار، بل هناك من يشاركه في الداخل أيضا

بالتفكير ووضع أسماء شركات للخصخصة، لأن المصلحة أصبحت واحدة. جاسر يدير كل شيء، يُسلم لكل شريك حصته من الشركات المستحدثة والمؤسسات العملاقة التي يعتمد عليها الملايين من المواطنين ماعدا شركاته التي لم يسمح لهم بالدخول كشركاء بها.

★★★

كالعادة، الأستاذ مسعد جالس في غرفة المدرسين يقرأ الجرائد ويدون الملاحظات ليقرأها في مسرح المقهى. وكما تعود، يقرأ كل عنوان غريب أمام كل أستاذ. وكما قال المثل «قطع العادة، عداوة»، هذا الرجل تعود على التقاط الملاحظات برغم من قطعه عهدا أمام المدير في المرة السابقة بأن يتخلى عن هذه العادة. ولكنه لايستطيع التخلي عن ذلك. مثله مثل السمك إذا أخرج من الماء، ترى لعابه يسيل عندما يقرأ أمرا يلفت النظر ويثير الفضول. أثار اهتمامه مقال جعله يقرأ عنوانه لكل من يصادفه. في صفحة الأخبار الدولية (تحويل رؤساء أربع شركات صينية للقضاء بتهمة ظهورهم في شريط مصور وقد غلبهم النعاس).

كل من صادفه في طريقه سمع عنوان المقالة وعلق عليها حسب رأيه حتى وصل هذا العنوان إلى مسامع المدير الذي علق قائلا:

– ألم تكن أنت الخامس يا أستاذ مسعد؟!

– أتسخر مني يا سيادة المدير؟!

– أخشى أن أرفع عنك تقريرا في يوم ما.

– وهل ارتكبت جريمة؟!

— نعم، أنت مثل للأستاذ الفاشل، يبث سمه في العقول. وصبري عليك لن يطول.

— وماذا صنعت هذه المرة؟!

قال المدير بغضب يصاحبه عتاب:

— تقرأ الجرائد وكأنك تعمل في سلك الإعلام ليس في التعليم. أنت أستاذ. وعليك القيام بواجبك كتربوي.

— أرجعني للتدريس، مللتُ من العمل الإداري، وسأقوم بواجبي على ما يرام.

— لماذا؟ لتحرض الطلاب وتسحق مستقبلهم...

— أنا أستاذ، لا إداري.

— اذهب إلى عملك، وإلا سأرفع عنك تقريراً وأحيلك للجنة القانونية.

— أمرك ياسيادة المدير.

تنهد المدير وهو يقول في سره: «أشعر أنه على حق في تعليقاته. وما دخلي أنا في هذه الأمور. لو تهاونت معه لطارت روحي. أزالك الله يا أستاذ مسعد لأنك ستكون سببا في زوالي».

انطلق مسعد متذمرا وهو متأبط محفظة صغيرة بها الأوراق. ظل يجوب الساحة ذهابا وجيئة يراقب السلالم والحمامات المدرسية حتى سمع الجرس المدرسي الدال على انتهاء فترة العمل. إن وقت خروج الطلبة قد حان. خرج إلى البوابة وظل هناك لدقائق حتى خرج الأستاذ فتحي، صافحه وهم بالحديث معه:

- المدير السيئ يسبب أزمة قلبية لموظفيه.
- هل تشاجرت مع المدير مجددا؟
- لقد تعودت على انتقاداته، كم قلت له إني أريد أن أدرس الطلاب ولكنه يرفض.
- أنت تخرج عن موضوع الدرس إذا ما درست الطلاب. تتحول إلى الحديث عن السياسة والمشاكل المحيطة بالمواطن.
- هذا جزاء من يقدم ما يجب على الطالب فهمه.
- هذه مشكلتك مع المدير وغير المدير. لنتابع مشينا ونتحدث.
- في رأيك يا فتحي، ماذا أصنع بنفسي؟!
- توقف عن الانتقادات أو ظل كما أنت.
- حتى أنت تنتقدني.
- أنا فقط أنصحك وأحب لك الخير.
- بارك الله فيك وفي نصيحتك. (يسخر...)

★★★

الأستاذ فتحي على عجلة من أمره هذا اليوم، استقل سيارة أجرة متوجها نحو المطعم الذي تعمل فيه نرمين، طلب لقاءها، استغربت لهذه الزيارة غير المتوقعة ! حدث غير عادي.

خرجت إليه مرتبكة وبيدها مريول التنظيف. للتو خلعتها ونسيت أن تخفيها من شدة التلعثم. وقفت أمامه صامتة لا تقوى على النطق

ببنـت شـفة حتـى بادرهـا هـو بالتحيـة وردت عليـه بارتبـاك، قـال:

– جئت إليك في وقت غير مناسب.

– خـ. خـ..خيرا إن.... شاء اللّه.

– خيرا، هل تستطيعين أخذ إذن بالخروج.

– ليس قبل ساعة من الآن.

– إذن، سأنتظرك.

– ولمَ؟!

– لأمر ما في نفسي.

– مـا كنـت لأتمنـى أن ألقـاك في هذا المـكان وأنا أعمـل جالية صحون.

– لا عيـب في ذلـك. أنـا أيضـا كنـت أعمـل في مطعم وقدمت استقالتي لكـي أبحـث عـن عمـل آخر.

قلل ذلك من خجلها وبثقة متواضعة:

– هل ستنتظرني؟

– نعم، سأقف على الرصيف حتى تكملي عملك.

– ألا نتقابل في وقت آخر.

– لا أستطيع، أريدك اليوم. اذهبي إلى عملك وأنا في انتظارك.

ذهبـت لإكمـال عملهـا. انتظرهـا في الخـارج يمشـط الشـارع ذهابـا وجيئـة وكلـه توتـر ولهفـة في آن واحـد.

ما أن خرجت حتى اقترب منها وطلب منها الذهاب معه إلى مكان هادئ ليتحدث إليها. وافقت على أن يكون المكان المقصود قريبا. اقترح عليها الذهاب إلى المتنزه، عارضته لبعد المسافة، ألح عليها مؤكدا أن المسافة قريبة إذا استقلا سيارة أجرة، وافقت، استوقف سيارة أجرة. وصلا إلى المكان المقصود، جلسا على كرسي عام في منتصف المتنزه. الجو ساكن وكأنه قطعة من حرير لا يتحرك إلا بفعل فاعل، بادرها:

- أنتِ مستغربة لهذا التصرف. آتي إلى مكان عملك وأصطحبك إلى المنتزه فجأة وليس بيننا موعد مسبق ولم يسبق لي أن تحدثت إليك بشكل مطول عدا الأسبوع المنصرم.

- هذا صحيح.

- دون مقدمات للحديث، أود القول إني أُعجبت بطريقة تصرفك عندما طلبت الطلاق بمجرد التشكيك في نزاهة شرفك.

- وما الجديد في ذلك؟ فقد قلت لي هذا الكلام الأسبوع الماضي.

- أعرف ذلك، ولكن الجديد اليوم أني معجب بك.

- قلت لي ذلك سابقا.

- ولكني لم أقل إني أريد الارتباط بك.

صدمت واجتاحت جسدها موجة حر استقرت في وجهها لكنها تظاهرت بالثبات:

- رحمة بي بعد ما حصل لي؟ أم ماذا؟!

- بل حبا وإعجابا بشخصيتك العظيمة. لعلك تعرفين شخصيتي وطباعي ليس من طبعي المراوغة، أحب الوضوح. من عادتي الدخول في الموضوع مباشرة دون مقدمات.

- ألا تركت لي فرصة لأفكر؟

- لكِ ذلك لا تعذبيني بالتأخير بالرد صدقيني، سأكون لك حبيبا مخلصا.

- أخاف أن تعاتبني في المستقبل.

- الذنب ليس ذنبك؟!

- أقصد عتابك لي كجالية صحون في مطعم. (قالتها متداركة حتى لا تظهر ضعفها)

- وأنا عملت نادلا في مطعم. ما العيب في ذلك؟!

- أنا لا أرى عيبا في ذلك.

- ولا أنا (ابتسم وتابع...) لي شرط هو خير لك.

- ما هو؟!

- أن لا تعملي من الآن وصاعدا وسأكون أن المسؤول عنك.

- ألا ترى أنك استعجلت الحديث بهذا الموضوع معي وأنا لم أعتد عليك بعد وأنت كذلك.

- نحن أبناء حي واحد وكلانا يعرف الآخر. أنا صريح. وكما قلت لك سلفا، لا أحب اللعب بالكلمات والماطلة. أحب الخوض في لب الموضوع على المقدمات. وهذا نوع من الوضوح.

على العموم، سأمنحك يوما واحدا للرد على مطلبي.

- يوما واحدا فقط!!!

- لا تجبريني على تغيير رأيي وأمنحك ساعة واحدة.

ابتسمت ابتسامة صغيرة مع شعور بملكها لكل جميل حولها، وقالت:

- ألا تعتقد أنه يتوجب عليك إعادتي إلى أهلي؟

- أبهذه السرعة؟! يوجد عصير طبيعي في المنتزه، لنذهب ونشتري...

- في المرة القادمة. سيحل الظلام وأنا لم أعد إلى منزلي، لنستوقف سيارة أجرة.

أعادها إلى الحي وقد تأخر وقت عودتها، وجد والديها في انتظارها. قابلاها بالتوبيخ والسؤال عن سبب التأخر، أخبرتهما بما حدث لها اليوم. فرح الأبوان وحثاها على القبول به.

★★★

في قرية التواليب، على تلة مرتفعة، اللواء نايف واقف ومن خلفه حراسته العسكرية بزيهم العسكري. يتلفت اللواء للنظر من حوله مستمتعا بالجو القروي وسكون المنطقة وانعدام الفوضى. هو من عشاق الريف، وبين الفترة والأخرى، لابد له من الذهاب لقرية ما كترفيه أو بغرض عمل سري. أحد الضباط اقترب من اللواء وقال له إن من ينتظره قد وصل. تقدم خطوات وأشار للعقيد عمر بالاقتراب. قدم العقيد التحية العسكرية للواء.

الجو جميل هنا. (اللواء بدا مستمتعا)

– نعم سيدي، جو يبعث على الانشراح، وهذا ما تفتقده المدينة.

أتدري أن القرويين ببساطتهم إلا أنهم سعداء؟! العيش مع الطبيعة له مذاق ارتباط الإنسان بالأرض.

– أنا ابن الريف سيدي.

– نحن في الجيش لنا ارتباط وجود مع أبناء الريف، هم البحر ونحن السمك. رحم الله العميد فاروق، كانت أغلب لقاءاتنا واجتماعاتنا في الريف.

تبادلا أطراف الحديث لوقت وجيز من الزمن، ثم انتقلا للحديث عن موضوع مهم هو سبب لقائهما لهذا اليوم:

أحسنتم، عمل رائع، ضربة موجعة. (اللواء يعبر عن إعجابه الشديد وهو يأخذ حزمة أوراق من العقيد).

نحن لهم بالمرصاد سيدي، ولا نغمض أعيننا وإن كنا نائمين. (هكذا قال العقيد).

قبل تسع سنوات، حدث وأن اختفت كمية من ذخيرة الرشاش الآلي محلي الصنع من أحد المعسكرات. استنفرت، حينها، الأجهزة المختصة وتم اتخاذ الإجراءات اللازمة في مثل هكذا قضية. ملف التحقيق لم يغلق. لم تصل الجهات المختصة بالتحقيق لمعرفة وجهة الذخيرة طيلة سنوات. هذا الأسبوع وبعد تسع سنوات، تمكن فريق من جهاز المخابرات بقيادة العقيد عمر من مصادرة كمية من الذخيرة على الحدود قادمة من الخارج. ونتائج الفحص

أثبتت أنها محلية الصنع. هنا، أبلغ العقيد قيادة الجيش. وهذا اللقاء، هو للوقوف على نتائج التحقيق السري. لأن الغريب في الأمر هو اختفاء ذخيرة محلية الصنع من المعسكر وتم تهريبها للخارج. وبعد سنوات، نفس الأيادي تعيد تهريبها لإدخالها البلد؟ لغز يجب حله.

أعتقد أننا أفشلنا مخططاً هو مجهود سنوات لعدو يتربص بنا. (هكذا قال العقيد عمر).

- الأمر خطير. كان الهدف منه هو توريط الجيش بحدث ما وطلب لجنة تحقيق دولية وإدانة الجيش لأن الذخيرة محلية وخاصة به.

- ونحن يقظون أفشلنا هذه المؤامرة سيدي اللواء.

- المؤامرات ستستمر. لأن الهدف هو إضعاف الجيش وتفكيكه. وعبر التاريخ، لم تشن حرب دون مبرر. لكننا لسنا غافلين لما يحاك ضدنا.

- سنستمر في البحث والتحري عن جميع المتورطين، خيوط مهمة توصلنا لها، أعدك أيام وينتهي الأمر سيدي.

- جيد أن نهدم مشروعا عدائيا باليقظة.

تحرك اللواء قليلا، أخذ كمية هواء معتبرة ليملأ رئتيه وقال:

- «ما أجمل الهواء هنا».

ثبت ناظريه في عيني العقيد ورسم ابتسامة باهية تدل على انبساط أساريره:

- «ما رأيك أن نحتفل بنجاحك على الطريقة الريفية؟».

- طبعاً... سيدي تحت أمرك، ولو أني ما زلت أنتظر المزيد في هذه القضية. (العقيد يرد...)

أشار اللواء لأحد مرافقه، تقدم المرافق، سأله اللواء: «هل أحضرتم المؤنة الغذائية؟» أجاب: نعم.

بدأ بالمشي، تبعه العقيد وحراسته سيرا على الأقدام ومن ورائهم ثلاث سيارات للحراسة، أمسك اللواء بيد العقيد وتابع...

- أجمل ما في الريف بساطة القرويين وأكلهم التقليدي. عندما أرفه عن نفسي ليس لي أجمل من زيارة ريفية وأطرق بيتاً قروياً وأنزل عنده ضيفا فجأة، إنهم يحسنون صنع الخبز وكرماء النفس. أشعر بجمال الحياة وأنا أراقب ابتسامة قروي فقير وهو فرح بوجودي. كما قلت لك، هم البحر ونحن السمك.

كسر العقيد الصمت وقال:

- فعلا سيدي، صدقت.

- أيضا، المكان مناسب للاجتماع. (أضاف اللواء).

اقتربوا من منزل يبدو الرغد على مالكه، لكن اللواء تجاوزه مواصلا سيره. الأطفال يتصفحون أوجه الزوار. اقترب طفل ومد يده بالسلام على العقيد وفر هاربا. تقدم بعض المارة، ألقوا التحية عليهم. وواصلوا مشيهم، النساء المارات يختبئن في أقرب زاوية فالرعب حاضر، لواء وعقيد ومرافقة عسكرية ليست بالأمر بسيط الحدث. في البداية، اعتقد أهالي القرية بأن الزيارة خاصة بـعدل القرية (كبير القرية) لأنهم ينظرون له كشيء كبير،

والجميع يهابونه، وهو أيضا يتحدث عن علاقاته بالمسؤولين. وما أن تعدى الموكب دار عدل القرية حتى اندهش الجميع (إلى أين تذهب الدولة؟) هكذا يتساءلون مع بعضهم. توقف اللواء فجاءة أمام منزل متواضع. أمسك اللواء بمزلاج الباب وطرقه عدة طرقات. أهالي القرية في ذهول تام (الدولة عند أحمد تامر؟) فتح الباب مالك المنزل وأصابته الصعقة والرعب، فغر فمه، واضطربت نبضات قلبه، بادره اللواء:

— نحن اليوم ضيوفك.

تبدد الرعب تدريجيا ليقول بارتباك مطلق «مرحباً» ويداه ترتعدان من الصدمة «أهلا وسهلا، شرفتموني، تفضلوا...» غير مستوعب. دخل اللواء والعقيد واثنان من حراسته الشخصية ليبقى البقية في الخارج. كان البيت نظيفا من الداخل ومرتبا برغم تواضع محتوياته. جلسوا في غرفة استقبال صغيرة فوق حصيرة قديمة.

قال اللواء لأحمد مالك المنزل: «نريد أن نبقى وحدنا لبعض الوقت. أحضر لنا لبناً وخبزاً بعد نصف ساعة من الآن». وأحمد يردد: «أهلا وسهلا، نورتمونا...»

دخل أحمد إلى المطبخ وقال لزوجته: «طلبوا لبناً وخبزاً». هنا راحت الزوجة توبخ زوجها وتندب حظها «كبار الدولة في بيتنا ونطعمهم لبنا وخبزا؟ أي مجنون أنت؟ يا فضيحتاه؟ أخرج بسرعة واذبح أربع دجاجات. لا، سبع دجاجات، لا أخرج فورا واذبح العجل». قالت الأم لابنها ذي الثماني سنوات بأن يذهب إلى بيت خالته ويحضر من عندهم ما طبخوه اليوم وأقراص العسل. هم

أحمـد بالخـروج وصريـف البـاب وصـل لمسـامع اللـواء، اسـتدار نحـو النافـذة القريبـة ونـادى أحمـد بـأن يعـود إليـه، سـأله اللـواء: إلى أيـن تذهـب؟ أجـاب: إنـه ذاهـب لذبـح دجـاج والعجـل، طلـب منـه اللـواء عـدم فعـل ذلـك.

أغلـق أحـد الضبـاط بـاب الغرفـة وأخـرج مـن الحقيبـة خارطـة ورقيـة وبـدأوا اجتماعـاً قصيراً، حـددوا مواقـع وناقشـوا ملفـات عـدة.

هـذه طريقـة مثلـى عنـد اللـواء لأي اجتمـاع سـري بعيـدا عـن الاخـتراق بواسـطة وسـائل التصويـر والتسـجيل ومـا شـابه مـن طـرق في هـذا المجـال. هـو يقـرر المـكان ويختـار المنـزل الـذي ينـزل فيـه في نفـس اللحظـة كمـا فعـل اليـوم.

سمـع عـدل القريـة بوجودهـم وجـاء يركـض نحـو بيـت أحمـد. مُنع مـن الدخـول مؤقتـاً. فـترة زمنيـة حتى سمح لـه بالدخول بعـد أن انتهى اللـواء ومـن معـه مـن غرضهـم. قابـل اللـواء ودعـاه إلى بيتـه، لكـن اللواء فضـل البقـاء حيـث هـو. وتناولـوا مائـدة قرويـة ذات مكونـات تقليديـة.

واسـتمعوا لأحمـد وعـدل القريـة عـن مشـاكلهم واحتياجاتهـم، قالـوا للـواء إن مشـكلتهم في مضخـة الميـاه، منـذ سـنوات والجهـات المعنيـة لم تسـتجيب. وعدهـم بالتدخـل لـدى الجهـة ذات الاختصـاص.

في المطبـخ، حـدث جـدل بـين أحمـد وزوجتـه، قالـت لزوجهـا: «فرصـة، الدولـة كلهـا في بيتنـا، اشـتك لهـم، قـل لهـم إن عـدل القريـة ظلمـك. حتمـا، سـينتصرون لـك». كان رده: «وهـل أنـا خسـيس حتـى أسـتقوي علـى ابـن قريـتي بضيـوفي؟» تنـاول أحمـد أكـواب الشـاي وتوجـه لضيوفـه. عـدل القريـة يرتعـد واعتقـد لتـوه أن أحمـد لـن يفـوت

فرصة كهذه ويشتكي له، فقال في سره: «اليوم نهايتك يا عدل، مالي ومال أحمد؟!».

مجتمع قروي بسيط، مازال يعيش بعضا من جمال الماضي برغم تسلل داء التمدن. تداعت القرية وكل يرسل الطعام. خرج اللواء ومن معه فوجد حراسه على مأدبة غداء كرم القرية. أمر بإنزال المؤنة الغذائية من السيارة المرافقة وتقديمها لأحمد.

ما حدث اليوم في هذه القرية ترك لغزا هل أحمد مجند سري لدى الدولة؟ الجميع يتكهن. زوجة أحمد غير مصدقة، وتسأل زوجها: لماذا هو بالذات كانوا ضيوفه؟ يرد هو بسؤال مماثل.

★★★

كالعادة، مغادرة الشيخ أبو إيمان منزله عيد عند صفاء وعودته جحيم. عاد للتو، منادياً «صفاء...صفاء». كانت في حالة ذعر تمسك بيدها جهاز تحكم التلفاز تحاول إطفاءه. الدخول المفاجئ أربكها. فهي بحاجة لثوانٍ حتى تخرج من قناتها التلفزيونية المفضلة. عاد وبيده كيس هدية لها. فقد اشترى لها ملابس داخلية مثيرة لتلبسها في الليل. فاجأها حضوره ليقف أمامها وتقع عيناه على القناة التلفزيونية. رمى الكيس جانبا وصرخ في وجهها «ما هذا؟!»، ارتعد جسدها وزادت دقات قلبها بشكل جنوني، عادت خطوات إلى الخلف وأخفت تلقائيا جهاز التحكم خلف ظهرها. بالكاد، ابتلعت ريقها: «كم حذرتك من هذه القنوات؟» ردت عليه بصمت، صرخ: «ألم أقل لك إن مسلسلات الكرتون تفسد ولا تُصلح؟»، ردت عليه برعب ووجل محاولة الدفاع عن

نفسـها: «مازلـت طفلـة، وكل الأطفـال يتابعـون قنـاة الأطفـال». هـذا مـا كان ينقـص الشـيخ حتـى يهيـج وكأنـه قطيـع مـن الثـيران وهـو يصـرخ: «قليلـة أدب..». وجـد نفسـه أمـام واقـع لـزم تدخـل يـده في الأمـر. اقـترب منهـا بسـرعة خاطفـة وضربهـا: «أنـت لسـت طفلـة، أنـت مكتملـة النضـج». هكـذا يفـتي لمـن لا يسـتطيع التعامـل بالنصـح مـع زوجتـه حتـى تسـتقيم. عصفـور يرتعـد في ليلـة شـتوية ممطـرة وبـاردة. صدرهـا يتضخـم مـع كل شـهقة ألم وهـي تكفكـف دمعهـا. وقـف أمامهـا كالغـول متوعـدا: «لـو شـاهدت قنـاة الأطفـال مجـددا، سـوف أضربـك وأكسـر التلفـاز، شـاهدي القنـوات الدينيـة، شـاهديني أنـا في القنـاة الدينيـة وافتخـري بـي. تريديـن أن لا تدخـل الملائكـة هذا البيـت؟ أتريديـن أن تسـكن معنـا الشـياطين؟ لـو سمعتـك تقولـين إنـك مازلـت طفلـة، سـأقص لسـانك..».

عندمـا قالـت بعفويـة أنهـا مازالـت طفلـة، أثـار فيـه ذلـك موجـة غضـب عارمـة اجتاحـت مـا حولـه وكأنهـا أشـعرته بشـي مـا. لـذا احتـاط بإغـلاق بـاب المنـزل مـن الخـارج عنـد خروجـه ومـن الداخـل قبـل نومـه تحسـبا لشـكوك صـارت تـراوده.

★★★

سـهرة هـذا الخميـس يقضيهـا الأسـتاذان معـا. اعتـادا علـى بعضهما علـى الرغـم مـن اختلافهمـا أحيانـا في الآراء.

بعـد اللقـاء المحـدد سـلفا، التقيـا واسـتوقفا سـيارة أجـرة. سـائق السـيارة معـروف لـدى الأسـتاذ مسـعد، كان جـاراً حميداً. تفاجأ مسـعد وكذلـك السـائق. فتـح بـاب السـيارة ليأخـذا بعضهمـا في الأحضـان:

خمس سنوات لا أراك يا رجل، أين كنت؟ هكذا سأله مسعد. يرد عليه: «في ربوع الدنيا». ما هي أخبارك؟ (الكلام لجار مسعد).

- أنا، كما أنا، أستاذ ضحى بحياته من أجل هذا الجيل العاجز عن الوقوف.

- كما أنت، منتقد وناقم.

التفت إلى الأستاذ فتحي وقال:

- عرفني على الأخ.

- آسف! لقاؤك أنساني أدب اللقاء، هذا (ويشير بيده باتجاه فتحي) الأستاذ فتحي زميلي في المدرسة (ثم يشير نحو صديقه القديم) وهذا الصديق وجاري القديم فريد.

تصافح الاثنان ورحب كل منهما بالآخر. طلب منهما فريد الصعود إلى السيارة. صعد الأستاذ مسعد ليأخذ مكانه في المقعد الأمامي. وفتحي في المقعد الخلفي.

الأستاذ مسعد متسائلا:

- كيف أخبارك، لم أرك منذ مدة طويلة؟!

أدار المحرك وضغط على دواسة الوقود لتنطلق السيارة وهو يقول:

- العاصمة واسعة وأنا موجود. كنت أعمل سائق أجرة بين المدن. الآن، أعمل في وسط المدينة.

وجه له الأستاذ مسعد سؤالا بطريقة تدل على الاستغراب:

– ألم تكمل تعليمك الجامعي؟!

– بلى.

– ولماذا تعمل سائقا يا رجل؟!

– لأني لم أجد وظيفة.

– ألهذا الحد؟! على ما أظن، كنت في قسم القانون الدولي.

– ولهذا السبب لم أجد وظيفة.

– هذه مهزلة!

– بل مزبلة. عملتُ في مؤسسة حكومية لأكثر من سنة في انتظار تثبيتي رسمياً ولم يتم ذلك. أضعت من عمري عاما في خدمة الحكومة دون معاش أساسي. ولكن الحمد لله على كل حال. أعمل في هذه السيارة مرتاحا، أنام في أي وقت أريد، أعمل في أية ساعة، لا أحد يطلب مني توقيعا على ورقة الحضور ولا للانصراف. بحرية مطلقة، أمارس حياتي.

– لكنك خريج جامعة.

– كنت. أما الآن، أنا سائق سيارة أجرة، قل لي أين اتجاهك؟!

– إلى مقهى «الدب الصغير».

غير فريد الاتجاه ليأخذ الطريق المقصود، والكلام للأستاذ فتحي:

– تقدم للعمل لدى مكتب محاماة.

نظر إليه من خلال المرآة المثبتة على الزجاج الأمامي للسيارة وقال:

- لا، أنا مرتاح في عملي. أجمع شهريا ثلاثة أضعاف راتب موظف على الأقل، رزقي بيد الله وليس بيد رب العمل.

قال مسعد:

- ولماذا تعلمت إذن؟!

- بصراحة (يتنهد..) لو عاد الزمان إلى الماضي، لما أجهدت نفسي وضيعت سنين عمري في التعليم. في بلادنا الناس سواسية، المتعلمون والجهلة، لا فرق بينهم جميعا. بالعكس، المدير الجاهل يحقد على الموظف المتعلم لأنه سيأخذ مكانه يوما ما. لذلك يقف عائقا أمامه حتى ينفره. لم تمرّ بي نهاية شهر وأنا أتسكع وليس لدي مال. لم أنتظر نهاية الخدمة للمعاش وأحسب عمري شهرا بعد شهر.

تساءل الأستاذ مسعد مؤيدا:

- أنت على حق. ولكن لا يمنع ذلك من خدمة الوطن. أنا أعاني لكني أضحي بحياتي من أجل التقدم بهذا الجيل.

- أي جيل تقصد؟! الجيل الذي يتقدم إلى الوراء أو الجيل الذي غادر إلى الخلف.(يسخر...)

قال الأستاذ فتحي:

- ما هذه الفلسفة يا أستاذ فريد؟

نظر إليه عبر المرآة مقاطعا:

- عذرا أستاذ. أنا الآن سائق ولست أستاذا. مثلي مثل أي شخص يمشي في هذا الشارع. (قالها مازحا). لو لم أتعلم لكان حالي أفضل. هنا يحترم الجاهل. المهم المال. التعليم الذي لا يجعلك وزيراً ليس ذا جدوى.

- وزير؟! مرة واحدة؟ اتق الله يا رجل. بالكاد هناك مقعد شاغر لأستاذ فما بالك بمقعد وزير. (هكذا رد فتحي).

- بربكم. كيف يتم اختيار الوزير للمنصب؟! لذلك كلمة سر، آه... (يتنهد...) ليتني أعرف كيف، لصرت وزيرا. سأفعل المستحيل. (تمنى مسعد).

استدارة خاطفة من فريد نحو مسعد ليعيدها نحو الأمام:

- ما تقصد بفعل المستحيل؟ رصيد أو...

- في تاريخي لم أسرق مليما واحدا. هذا الناقص حدوثه!

- بصراحة لو أصير وزيراً، ابني مستقبلي وأولادي. الحياة فرص. تخيل، أنهب مليار دولار...(رد فريد متمنيا).

طال الحوار بينهم، تناولوا مجمل القضايا وكل واحد يناقش الآخر ما بين مؤيد ومعارض حتى وصلوا، ليترجل الزميلان إلى المقهى الأدبي. أما فريد، فقد شق طريقه ليبحث عن زبون يوصله، فلم يبق من لقائه سوى غبار في الذاكرة.

رائحة الأدب والفن تفوح من جدران المقهى. صعد على المسرح الفنان (حمدي سلامة) حاملا عوده، جلس الفنان المجهول شعبيا، وحيا الجمهور البسيط، تحدث إليهم: «أسمعكم اليوم قصيدة

لهـا لحـن نـادر للشـيخ إمـام، وليـس لهـا إلا تسـجيل وحيـد بصـدد التلحـين، القصيـدة للشـاعر العربـي الكبـير عبدالله البردونـي رحمـه الله متنـبي العصـر الحديـث، اسـم القصيـدة «الغـزو مـن الداخـل». القصيـدة الأصليـة كمـا تعلمـون جميعـا طويلـة وقـد اختـار الشـيخ إمـام رحمـه الله بعـض الأبيـات بمـا يُناسـب لحنـه».

أطلـق يـده للعـود ليمـلأ المحيـط مسـكاً يتـدلى مـن نجـوم فيروزيـة، ينفعـل عزفـا، يشـتد العـود وتـرا وطربـا، يتحـدى رنـين العـود صـداه، ينسـج شمسـا ويعمـر صبحـا، نطـق العـود وتغنـى محدثـا فوضـى بسـاتين القلـوب. صـدح صـوت الفنـان حمـدي:

غزاة لا أشاهدهم وسيف الغزو في صدري

فقد يأتون تبغا في سجائر لونها يغري

وفي أهداب أنثى في مناديل الهوى القهري

وفي سروال أستاذ وتحت عمامة المقري

وفي حرية الغثيان في عبثية العمر

وفي عود احتلال الأمس في تشكيلة العصري

وفي قنينة الويسكي وفي قارورة العطر

ويستخفون في جلدي وينسلون من شعري

وفوق وجوههم وجهي وتحت خيولهم ظهري

غزاة اليوم كالطاعون يخفى وهو يستشري

يحتم مولد الآتي يوشي الحاضر المزري

فضيع جهل ما يجري وأفظع منه أن ندري

وأفظع منه أن ندري

وأفظع منه أن ندري

فضيعا جهل ما يجري وأفظع منه أن ندري...

أنهى الأغنية، ظل المطرب صامتا ليستجمع قواه أمام كلمات ولحن حولته إلى سحابة تهيم في ربوع السماء، والجمهور المتواضع يصفق ويهتف أحسنت، أبدعت، رووووعة..

هدأوا وراح كلٌّ يحدق في الآخر ليدخلوا في نقاش لا ينتهي عن القصيدة ومضمونها التنبئي لشكل الاستعمار الحديث لشاعر أعمى النظر بصير القلب والروح كتب قصيدته في زمن غير زمننا.

***

وقف جاسر نبيل أمام نافذة مكتبه المطلة على المدينة. من أعلى المبنى، يرى منظرها الجميل. إلا أن هذا الجمال لا يمكث إلا لحظات حتى يتلاشى عندما يرى العشوائيات تعكر عليه ذلك المنظر البديع ويصبح منظر المدينة كالمستنقع بداخل قصر. والأسوأ من ذلك التقارب الشديد بين مدينة الملوك التي أوشكت على إعلان افتتاحها رسميا وحي الصفيح. ليس من المنطق أن تعانق المدينة السياحية الأكبر في تاريخ البلد الأحياء العشوائية. الحل إزالتها بأي طريقة. كشر جاسر ليرمي أعقاب سيجارته على الأرض ويدوسها بنعله بطريقة انفعالية، استدار إلى المكتب ليطلب الدكتور ناصر على هاتفه النقال:

– دكتور ناصر.

– مرحبا.

– أريد لقاءك خارج نطاق عملك.

– لا مانع، أين؟

– في مزرعتي.

– لا، في مكان عام.

– فليكن ذلك.

– ما رأيك غدا، أو...؟

– اليوم، يا حبذا لو كان ذلك اليوم.

– بعد...(ينظر الدكتور ناصر في ساعته ثم يتابع..) أقل من أربعين دقيقة.

– سأكون في انتظارك أمام مقر عملك.

– الأمر مهم لهذه الدرجة؟!

– ليس كثيرا، بل أردت تناول وجبة الغداء معك..

انتهت المكالمة، وضع جاسر هاتفه في جيبه ليغادر مكتبه. استقل سيارته الخاصة لتتبعه سيارة أخرى من نوع جيب. على بعد أمتار عن مقر عمل الدكتور ناصر، هاتفه وأبلغه أنه في انتظاره. طلب منه الدكتور أن يبقى في سيارته وأن يتبعه بعد أن يستقل سيارته، غادر الدكتور مكتبه فورا ليخرج من المبنى

ويستقل سيارته تتبعه سيارتا حراسة ذاتا دفع رباعي ويتبعه جاسر إلى مطعم راق ليلتقيا في الداخل ويجلسا على طاولة واحدة. رحب كل منهما بالآخر، فقال الدكتور متسائلا:

- أهذه عزومة غداء أم عمل يا جاسر؟!

- صراحة، جلسة عمل.

- خيرا. أن شاء الله.

- خير ولكني أواجه معضلة ولا أقدر عليها إلا إذا وقفت معي.

- قلت لك من قبل إني ومن معي إلى جانبك إذا شاركتني القرار.

- الآن، أشاركك القرار.

- قل ما عندك.

- يا دكتور، أنت تعرف أني مساهم في بناء اقتصاد البلد.

ابتسم الدكتور ناصر بسخرية وقال:

- هذا أمر بديهي. (قالها وهو يفتح ذراعيه)

- استثمرتُ مبالغ طائلة لا يقدر عليها أي رجل أعمال في البلد في بناء المدينة السياحية الكبرى، مدينة الملوك. هذه المدينة تعتبر أكبر مدينة سياحية في العالم العربي.

- أعرف ذلك. ولهذا السبب أنت تحظى باحترام من قبل رجال الدولة.

– والمشكلة التي أواجهها هي ذلك الحي العشوائي، حي الصفيح. إنه على وشك معانقة مدينتي. كأن هذا الحي (يقطب جبينه ليكمل بغضب...) واقع على قلبي. لقد شوه صورة المدينة بشكل عام.

– هذه مشكلة تواجهها جميع الأحياء المشابهة. بل جميع المدن الكبرى.

– هذا منظر غير حضاري لعاصمة ذات تاريخ وطابع سياحي. ماذا سيقول السياح عندما يرونها من الجو وهم في الطائرة؟! فما بالك عند زيارتها؟! مثل هذا الحي يوحي بأن الفقر منتشر في بلادنا.

– وما المطلوب؟!

– إزالة الحي.

– صعب. هل سنرمي الأهالي في البحر؟!

– من قال نرميهم في البحر؟!

– إذن ماذا؟

– ننقلهم إلى حي جماعي خارج المدينة بعشرين كيلو متر أو أربعين كيلو (يتفاعل...) وإذا سُمح لي، ننقل جميع الأحياء العشوائية إلى خارج المدينة. وأعدك بأن أجعل من العاصمة أجمل عاصمة عربية على الإطلاق.

– سيرفض السكان هذا العرض.

- قرار حكومي بإزالة الأحياء العشوائية والجميع سينصاع.

- سهل للغاية، خلال نصف ساعة يكون القرار جاهزاً. لكن المشكلة في التنفيذ.

- مادام القرار في نصف ساعة يكون التنفيذ في يوم واحد.

- لا أظن أني أستطيع فعل ذلك.

أخرج جاسر شيكا كتبه قبل مجيئه وقدمه للدكتور ناصر وقال:

- في هذه الورقة شيك بمليون دولار.

ابتسم الدكتور بسخرية وقال:

- تشريد حي مقابل مبلغ زهيد!

- من قال تشريد يا دكتور؟! سمها إعادة إسكان.

- لا تستطيع الحكومة إعادة إسكانهم.

- أنا أسكنهم خارج المدينة. وبذلك، لا حجة لدى المعارضة. بالعكس هناك الكثير ممن يقفون وراء الفكرة ويطالبون منذ زمن بإعادة إسكانهم، وإذا بنا نلبي رغبتهم. بالعكس، مشروع يضاف إلى رصيدكم أنتم.

- وكيف ذلك؟!

يتفاعل جاسر في الكلام ليزيد من نسبة الإقناع:

- نستطيع الاستفادة من نقل الحي للترويج الإعلامي لمجهود الحزب الحاكم بإعادة إسكان العشوائيين من أبناء شعبنا. ألم

يكـن ذلـك مطلـب النـاس بالأمـس القريـب؟ بـل حتـى السـاعة. عنـدي أرض علـى بعـد أربعـين كيلومتر عن العاصمـة، ينتقلون إليها مـع بيوتهـم القصديريـة ومبلـغ ألفـي دولار لـكل أسـرة كتعويـض.

— وإن رفضوا ! ! !

— نبني لهم منازل متنقلة ومؤقتة مع الألفي دولار.

— وإذا قاوموا القرار وطالبوا بشقق سكنية كعادتهم.

— الأمـر سـهل. نعدهـم بالإسـكان خـلال عامـين إلى حـين ننتهـي مـن بنـاء العمارات السـكنية.

همهم الدكتور ناصر وهو يهز رأسه وقال:

— فبركة ! ! !

— عليـك نـور، ومـع الزمـن سينسـون. ليسـت هـذه أول كذبـة تنطلـي عليهـم. الشـعب بأكملـه مدمـن علـى الكـذب وعلـى تصديـق الكـذب. يـا دكتـور (وهـو يرفـع يديـه ويحركهمـا تلقائيـاً مـع حركـة شـفتيه) لـو قـال أحـد الصـدق، فلـن يصدقـه النـاس لأنهـم جـزء مـن الفبركـة. ومنـذ متـى كان الشـعب يعـرف مصلحتـه؟!

— القضية مطبوخة سياسياً وعملياً!

— وطبخ سبعة نجوم يا دكتور. (يصطنع المزاح)

— كل هذا بالمبلغ البسيط!

رد عليه جاسر مناوراً:

– ليكن الضعف.

شكك الدكتور ناصر في نوايا جليسه:

– هناك رائحة غريبة ياجاسر.

– مثل ماذا؟! الأكل لم يأت بعد. (يمزح مجدداً)

– الأكل لايأتي إلا بأمر. لا أحد يتقدم إلى هذه الطاولة إلا بإشارة. رائحة طبخك يا جاسر.

– وحياة عيونك يا دكتور! لا شيء فيه غموض.

رد الدكتور عليه باستهتار وبإشارة من يده رافضا ما قاله جاسر وقال:

– لا تحلف بحياة عيوني، هناك طبخة محكمة، أنت ماكر يا جاسر وأنا أمكر منك.

– بصراحة...

قاطعه الدكتور:

– ألم أقل لك لا تلعب معي مرة أخرى. كن صريحا لأكون صريحا معك.

ظل جاسر ثابتا فقال بثقة:

– أريد ضم الأرض والجبل إلى المدينة السياحية، بحيث يصبح الحي ملعبا للجولف، ويصبح الجبل منتجعا سياحيا مطلا على المدينة يصعد إليه السياح عبر العربة الهوائية (الكيبل كار)... ما أجمل منظر المدينة من الجو، مذهلة حقاً...

حـدق الدكتـور ناصـر في عينيه وظل صامتا، فتابع جاسـر مسـتدركا:

- ليس السياح فقط، بل عامة الشعب...استثمار..

نطق الدكتور جاسر معاتبا:

- يـا مفـتري! كل هـذا مقابـل مليـون دولار. الأرض حكومية وسـتملك للأهالـي، سـنتخذ القـرار قبـل الانتخابات.

- جمد القرار، وأنا حاضر لما تطلب.

- خمسة ملايين دولار.

- مبلغ مرتفع جدا.

- قليل جدا على مشروع ضخم كهذا.

- ثلاثة ملايين دولار.

- خمسة.

- أربعة ملايين دولار.

- خمسة ملايين وإلا نلغي الصفقة.

- هذا غير منطقي يا دكتور.

- لا أحب المفاصلة. الكلمة التي أقولها هي التي تنفذ.

- إذن اتفقنـا. هـذا المليـون عربـون، وباقي المبلـغ بعد الإزالـة، اتفقنا؟

همهم الدكتور وصمت ليفكر ثم قال:

— اتفقنا، مطلع الشهر القادم سنشرع في العمل. نمهد له إعلاميا.

★★★

هاهو الأستاذ مسعد جالس على طاولته المفضلة القريبة من خشبة مسرح مقهى الدب الصغير يرتشف الشاي الأخضر ويدون ملاحظات إضافية في هرم تجليه.

«الكلمة توازي العبوة الناسفة، مرعبة في نظر الموالين وقادتهم، ولم يدركوا حتى اللحظة أن الكلمة لا تؤثر ولن تغير إذا كانت بقصد إصلاح الحال العام، تُسمع وتنُسى في الساعة. الكلام نفسه متداول منذ زمن بعيد وليس هناك جديد. وإن وجد، فالناس مشغولون بأمور الحياة والاكتراث للقيل والقال من باب الصدفة أو التسلية حتى وإن كان الحدث مرًّا. أي كلمة حق ليس لها مردود عكسي والمردود السلبي يبقى حصرا على خطابات الشقاق والنعرات التي تثير الضغائن وتهيئ الأجواء مستقبلا لأي أعمال انتقامية إذا ما انفلتت الأمور وراحت نحو اللااستقرار. والفضيحة العقلية أن الملاحقة والمراقب ضد الكلمة التي هي سبب في اللافوضى فقط تنبه لاستدراك الأمور. أما ماله من تراكمات لتزيد الضغط الداخلي تدريجيا باتجاه الانفجار ذوي الدمار الشامل لا تحرك ضدها، ولا متابعات ولا محاكمات لأي منها، ولم تتطرق القوانين إلى العقاب الشديد لأي مصدر يكون من وراء قصده ما يثير حفيظة الآخر. في تلك الحالة يظن صناع القرار أنهم مستفيدون منها لكون الشعب ليس منشغلاً بالفشل الاقتصادي والإداري الذي يحتاج إلى مجهود لإصلاحه، متجاهلين أن ذلك سبيل للهلاك والسقوط المروع حيث لا تنفع أي إصلاحات؛ فالعقول صارت معجونة بالشر. فقط الشعب

منشغل فيما بينه حيث قسم نفسه بغباء لعين لطوائف ومناطق وأحزاب وميول فكرية ليصل إلى مستوى روث الحيوانات متسببا في إبادته ذاتيا كالانتحار الذاتي. ويفني نفسه ولا يدرك أنه يلعق مزابل الذاكرة اللعينة وينساق الجميع إلى المقاصل بطوابير، وكل يبرئ نفسه المذنبة».

رواد المقهى يتوافدون تباعا، وقت الإلقاء قرُب، أكثر من ساعة ويبدأ الإلقاء. سحب لؤي الكرسي المقابل للأستاذ مسعد إلى الخلف وجلس عليه، وسأله عما يُدون وماذا سيلقي على مسامعهم. أجابه الأستاذ مسعد بعتاب لعدم إلقائه السلام عليه أو مصافحته. ذلك العتاب أقرب إلى المزاح. اعتذر وصافح الرجل، فقال مسعد مفتخرا بأنه يحب أن يصافح الناس لأن ذلك يزيد من قيمته ويرفع معنوياته. ساد المزاح تلك الطاولة ما بين ذا وذاك ثم انتقل للنقاش وكشف الأستاذ مسعد أنه سيتحدث اليوم عن فساد الاستثمار، أما لؤي فقد قال إن موضوعه كثيرا ما تم طرحه من قبل كتاب آخرين ولكن يبقى هذا الموضوع ذو أهمية بالغة، ثقافة (لا والمقاطعة) لكل ما يرتفع سعره، خاصة أن المواطن العربي يقبل على شراء سلع يزيد سعرها وبمقدوره الاستغناء عنها أو استبدالها بغيرها. قال مسعد متكهنا، ربما أن المواطن العربي يظن أن الزيادة في الأسعار تدل على أزمة قادمة. لذا عليه شراء كميات أكثر مما يحتاجه تحسبا.

قال لؤي إن العربي يستهلك اللحوم إذا رفعت أسعارها وكذلك الحبوب والسكر. مما يسبب أزمة غذائية والسوق يكاد ينفجر من كثر البضائع. ذلك يحدث في مواسم مثل رمضان والأعياد الدينية. عقب عليه الأستاذ مسعد: «الحرب في أطراف الكرة

الأرضيـة والأزمـة في بلادنـا»... وتواصـل الحديـث بينهمـا حتـى جـاء الأسـتاذ فتحـي وجلـس بطريقـة تـدل علـى الغضـب. سـأله زميلـه مسـعد عـن سـبب غضبـه غـير المعهـود، أجابـه بأنـه قـادم مـن (هيئـة المراقبـة والأمانـة) وذلـك أخـذ منـه وقتـا بالذهـاب إلى قلـب المدينـة والعـودة عـبر حافـلات النقـل العـام ناهيـك عـن الانتظـار تحـت حـرارة الشـمس. سـأله الأسـتاذ بتعجـب مطلـق عـن سـبب تواجـده هنـاك وتسـاءل: «أظنـك أسـتاذا يـا صديقـي لسـت بائعـاً متجـولاً أو مراقبـاً». أجابـه بأنـه ذهـب صباحـا لشـراء لـبن طـازج مـن أحـد الملابـن، فشـاهد اللبـان يخلـط اللـبن بالمـاء... قاطعـه الأسـتاذ مسـعد أن ذلـك شـيء طبيعـي في بلادنـا، ومـن جهتـه قـال لـؤي إن الـرزق بـلا غـش لا يكـون لـه طعـم. مـا حصـل أن فتحـي رأى ذلـك أمـرا لا يجـب السـكوت عليـه، فقـرر الذهـاب إلى (هيئـة المراقبـة والأمانـة). وهنـاك انتظـر لبعـض الوقـت حتـى جـاء المسـؤول عـن التفتيـش. وبعـد ربـع سـاعة، سمـح لـه بمقابلتـه.

قلـت لـه: «أتقـدم إليـك بشـكوى ضـد لبـان يخلـط اللـبن بالمـاء». سـألني: «كيـف عرفـت ذلـك»؟ فأجابتـه بأنـني رأيتـه بـأم عيـني وكنـت أشـير بإصبعـي حيـث وضعتهـا قبالـة عيـني. قـال لـي: «اذهب واشـتر مـن غـيره». في البدايـة ظننتـه يمـزح فسـألته: «إلا تضعـون ذلـك اللبـان تحـت المراقبـة؟» أجابـني بتهكـم: «أأتـرك عملـي وأتابـع لبانـاً؟ إذا لم يعجبـك لبنـه، لا تشـتر منـه واشـتر مـن غـيره». غـادرت مكتبـه إلى هنـا وندمـت علـى مجهـود نهـار مـن الذهـاب إلى الهيئـة والعـودة.

قـال الأسـتاذ مسـعد: «بـالله عليـك. أيـترك المكتـب المكيـف ويخـرج تحـت أشـعة الشـمس مـن أجـل سـواد عيـون مواطـن..».

قال لؤي، بأن هذه الصغائر لها تراكمات ومع الزمن تصير كبائر يصعب التعامل معها.

أضيء مصباح صغير على المسرح يدل على بدء الإلقاء، وقف مسعد وتقدم، اعتلى المنصة وحيا الجمهور الذي لا يتجاوزون السبعة عشرة، وقال لهم: قبل أن أدخل إلى موضوعي، أريد أن ألقي على مسامعكم نكتة، ذهب رجل إلى هيئة المراقبة والأمانة وتقدم بشكوى ضد لبان لمزجه اللبن بالماء، فقال له المسؤول «اذهب واشتر من غيره» .... ضحك الجميع لهذه النكتة ... فأوقف ضحكهم صوت مسعد: يا سادة، هذه نكتة حدثت اليوم لزميلنا الأستاذ فتحي.

بدأ النقاش حول ذلك والتعليقات كافية لجعل ذلك الموظف رمادا لو سمع ما قيل عنه. بعدما أشار لهم الأستاذ مسعد بيديه ليهدأوا وهو يقول: «موضوعي اليوم على فساد الاستثمار». وراح يتحدث ارتجاليا ويتساءل:

— ما هي فائدة الاستثمار؟! مثلا، يدخل البلد مستثمر بعشرين مليون دولار، يمنح أرضا مجانية لمشروعه، تقدم له خدمات مجانية مثل الماء، الكهرباء، الهاتف، الطريق، يعمل لديه خمس مائة أو ألف عامل، يعفى من الضرائب والجمارك، لأنه مستثمر ويشغل اليد العاملة العاطلة عن العمل. وأنا هنا أتساءل: «كيف يدفع المواطن الفقير مقابل الخدمات ولا يدفع المستثمر الغني الذي يستثمر عشرين مليون دولار ويخرج من البلد أضعاف ذلك سنويا أرباحا؟! أليست عملية استنزاف للعملة الصعبة بدون فائدة؟! يقولون إن الاستثمار يشغل العاطلين عن العمل. عند احتواء ألف عاطل للعمل فماذا عن

بقيـة ملايـين العاطـلين؟! هـل هـذا المسـتثمر شريك للكبـار حتـى يسـمح لـه بنقـل العملـة الصعبـة إلى الخـارج؟

الاسـتثمار الحقيقـي يجـب أن يكـون حصـرا بأيـادٍ وطنيـة ومـن أبنـاء الوطـن. المسـتثمرون بالخـارج تحـت طائلـة القانـون لإبقـاء العملـة الصعبـة داخـل البلـد. أمـا المسـتثمر العمـلاق الـذي يسـتحوذ علـى الوطـن بمـا فيـه، لا نريـده. لتؤسـس الدولـة مؤسسـة عملاقـة وتقـوم هـي بتلـك المشـاريع وتشـارك الشـعب بأسـهم لمـن أراد، وكل حسـب إمكانيتـه والالتـزام بالدفـع الفـوري للمواطـن إذا فشـل المشـروع ومحاكمـة أي متخـاذل أو فاسـد في المشـروع علنيـا، والبـث المباشـر ليكـون عـبرة لغـيره... سيقولون يجـب ألا تسـتثمر الحكومـة تحجيمـا للفسـاد أو أنهـم لم يسـتطيعوا التحكـم بالفسـاد، أقـول لهـم يـا أغبيـاء هـذا العصـر محصـن بالمعلومـات الرقميـة وأجهـزة التتبـع عـبر الأقمـار الاصطناعيـة وكامـيرات المراقبـة في كل مكتـب. وضعهـم تحـت المراقبـة علـى مـدار السـاعة ممكـن، الأمـر سـهل ولكـن سـتكون عامـل قطـع رزق للمسـتفيدين والمتمصلحـين مـن وراء الشـراكات مـع الاسـتثمار الفاسـد. ليكـن مالنـا لنـا وشـركاتنا لنـا. لـو انسـحب المسـتثمرون مثـلا مـن أي دولـة، يحصـل لهـا انهيـار فـوري وتخضـع للضغـوط الدوليـة. لـذا هـذا اسـتعمار مالـي يقابلـه اسـتحمار شـعبي، لم اسـتحمار شـعبي؟ لأن الشـعب وجـد بذلـك الاسـتثمار طـوق نجـاة وحـلاً لـكل مشـاكله الاقتصاديـة وكأنـه يصفـق للمسـتفيد مـن وراء الاسـتثمار بـدلا مـن رفضـه بصـوت واحـد. لم يقـض أي اسـتثمار أو عولمـة علـى البطالـة في البلـدان الأخـرى. الـذي قضـى عليهـا هـو العلـم وتشـييد المؤسسـات الإنتاجيـة الصغـيرة والشـركات نصـف الحكوميـة والتدريـب

المهني والذكاء الصناعي واستقلالية القضاء العادل. غير ذلك هراء ومحاربة طواحين الهواء بسيف من خشب. فساد الاستثمار عملية نصب واحتيال، وتعد هذه جريمة تعاقب عليها قوانين كل الدول الناجحة لأن النصب والاحتيال أيا كان شكله جريمة كبرى تؤدي إلى تلوث النوايا وانشغال المجتمع بالحذر من كل عملية اقتصادية صغيرة أو كبيرة واضعا في حسبانه الفخ.

★★★

منذ فترة لا يستهان بها وإبراهيم مختف عن المنزل، لا يعود إليه إلا في أوقات متقطعة متحججا بعمله. إبراهيم تغير، أصبح شخصا غامضا، هذا هو رأي والدته. أما والده، فقد رد عليها بأنه في إياد أمينة. إنه في بيت الله ومن دخله فهو آمن ولا خوف عليه. والخوف لو كان مع رفقاء السوء.

إبراهيم شاب مسير مسلوب الإرادة ليس لديه القدرة على اتخاذ القرارات. القرارات تأتيه مع الفتاوى. الفتوى الجديدة بأن الشاب الذي وهب روحه للتنظيم يجوز له الكذب على والديه والتمويه عليهما كي لا تتسرب الأسرار «استعينوا على قضاء حوائجكم بالكتمان».

لهذا السبب، جاء إبراهيم إلى والديه وسلم لهما مبلغا من المال وقال لهما إن هذا المبلغ حاصل عليه من تجارته المتواضعة التي بدأت تتطور يوما بعد يوم. وأبلغهما أنه مضطر للسفر إلى مدينة أخرى حيث سيقام معرض للكتاب الإسلامي، معللا ذلك بأن لديه زاوية يعرض فيها الكتب وسيحصل على مبلغ مالي معتبرا لقاء هذا العمل وسيكون بمثابة تجربة وبداية الصعود في هذا

المجال. وأكد لهما أن المعرض يستمر لشهر ونصف، وربما شهرين وخلال هذه الفترة، سيرسل لهما المال بالطريقة التي يراها مناسبة. ودع والديه وغادر الحي متوجها إلى معسكر الجماعة بصحبة شخص أرسل برفقته. وهناك، واصل التدريب بشكل مكثف.

★★★

أخذ الأستاذ فتحي والدته وتوجه لمنزل أسرة نرمين لطلب يدها. استقبل بحفاوة بالغة من قبل الأسرة. وبعد الحديث لفترة وجيزة، اتفق والد نرمين والأستاذ على موعد الخطبة والعقد في آن واحد، الأسبوع القادم دون حفلة. وهذه رغبة نرمين. وافق الأستاذ بعد أن أكد لها بأنه سيبيع منزله في الحي ويستأجر شقة في المدينة لأنه توظف في الجمعية الخيرية التابعة لجاسر نبيل، حيث يتقاضى راتبا يؤهله للسكن خارج الحي. إلا أنه أشار إلى إمكانية حدوث ذلك بعد العرس بشهر أو أكثر حتى يتقاضى أول راتب له، على أنه سيسكن مع عروسته في الحي بشكل مؤقت. وافقت نرمين وكذلك أهلها.

انقضى الأسبوع وتزوج الأستاذ فتحي من نرمين بطريقة شبيهة بالسر، لا حفل، لا دعوات، إلا للأسرتين فقط. أشد الغاضبين للزواجِ الأشبه بالسري هو الأستاذ مسعد. فقد أبدى اعتراضاً شديداً وكعادته بأن لا يحتفل بزواج صديقه.

تحققت رغبة الأستاذ. وأخيرا، تزوج من أحب. فرحة نرمين أكبر بكثير من فرحة زوجها. نالت لقاء صبرها وعوضها الله بشخص متعلم. ومثقف، محترم بشهادة الجميع. لن تلقى منه

سـوى الاحـترام والتقديـر، وكذلـك مـن أمـه كلثـوم. فقـد وجـدت في نرمـين ابنتهـا الـتي رزقهـا الله بهـا في آخـر عمرهـا.

★★★

التاسـعة والدقيقـة صباحـا، أفـاق الشـعب علـى كارثـة اقتصاديـة أهلكـت الآلاف مـن المواطنـين، المئـات مـن الشـركات المبتدئـة و شـبه العملاقـة، في ثانيـة. حـدث اضطـراب شـبه كامـل عـم أرجـاء البلـد. أغلبيـة الشـعب أمـام شاشـات التلفـزة. المسؤولون وقفـوا عاجزيـن أمـام انهيـار غـير مسـبوق. المستشـفيات في حالـة اسـتنفار لاسـتقبال الضحايـا جـراء هـذا الانهيـار الاقتصـادي. البلـد في شـبه فوضـى وكأن كارثـة طبيعيـة حلـت علـى الجميـع.

عقـد اجتمـاع طارئ لمجلس رئاسـة الوزراء لمناقشـة أسـباب الانهيار. إلى هـذه اللحظـة، السـبب مجهـول لأن عنصـر المفاجأة أربك المسـؤولين.

قبـل فـترة، أُعلـن عـن بـدء الاكتتـاب لكـبرى الشـركات الناجحـة والصاعـدة. تدريجيـا، باعـت أسـهمها الـتي لا تتجـاوز النصف بأسـعار تضاهـي أسـعار الشـركات بـكل أسـهمها. دخـل المسـتثمرون الصغـار والمتوسـطين في هـذه الشـركات. وفجـأة، حـدث إغـراق السـوق بالأسـهم المعروضـة للبيـع للتسـبب بانخفـاض الأسـهم بنسـبة ثمانـين بالمائـة إلى أزيـد مـن ذلـك.

شـركات جاسـر نبيـل وراء هـذا الانهيـار. ومـا أن علـم الدكتـور ناصـر بمـا حـدث حتـى انتفـض مـن مكتبـه ليتوجـه للقـاء جاسـر في الشـركة الأم. وفي طريقـه، وصلـه خـبر عـبر هاتفـه النقـال أن المتحـدث باسـم شـركة جاسـر أعلـن اسـتعداد الشـركة لإنقـاذ السـوق بثلاثمائـة

مليـون دولار لشـراء الأسـهم المتعثـرة. وهـذا البيـان جعـل الكثيريـن يظنـون أن الـروح عـادت لاقتصـاد البلـد بعـد أن كان يحتضـر. يـدل هـذا علـى أن الخطـة مدروسـة بإحـكام. بارتبـاك، هاتـف ناصـر جاسـر وطلـب منـه الحضـور فـورا إلى مكتبـه، وأمـر السـائق بإعادتـه إلى مكتبـه فـورا. ومـا هـي إلا عشـرون دقيقـة وجاسـر في مكتـب الدكتـور ناصـر.

قال الدكتور ناصر بغضب:

— ماذا صنعت؟! حتما أنت معتوه.

— لم أفعـل إلا واجـبي الأخلاقـي تجـاه بلـدي. دفعـت مـن خزانـتي ثـلاث مائـة مليـون دولار لأنقـذ اقتصـاد البلـد.

— اقتصاد البلد انهار!

— بل انتعش. وهذه هي الرأسمالية.

— بفعلتك هذه ستضع نهاية لمشوارك الاقتصادي.

— بل هي بداية.

اشتد غضب الدكتور ناصر وهو يقف أمام مكتبه:

— دمـرت البلـد وتقـول إنهـا البدايـة؟! سـتحال إلى التحقيـق، لقـد شـكلت لجنـة مـن وزارة الاقتصـاد وأخـرى مـن مكتـب النائـب العـام وسـتكون نهايتـك حتميـة.

— فليكن.

— شركاتك هي السبب!

– بل الرأسمالية هي السبب والاستثمار في سوق الأوراق المالية.

– ماذا تقصد؟!

– أليست البلد قائمة على الرأسمالية يا دكتور؟!

– بلى.

– إذن، هذا ما حدث. الفضل لي لأني أنقذت البلد من الانهيار. والانهيار صدفة لأني مالك الشركات ولو كان غيري هو المالك لشركات لحدث ما حدث. والفرق أني تبرعت لإنقاذ السوق وما كان غيري ليجرؤ على مجازفة كهذه.

دخل مدير مكتب الدكتور ناصر:

– اتصال هاتفي لك يا دكتور.

– أنا مشغول الآن.

– اتصال مهم.

– سآتي حالا.

وجه ناظره إلى جاسر وقال له:

– انتظرني ريثما أكمل المكالمة.

خرج الدكتور ناصر إلى مكتب السكرتير المقابل لمكتبه ليتحدث. لم يشأ تحويل المكالمة إلى مكتبه. كي لا يسمع جاسر الحوار بينه وبين المتصل.

جلس جاسر على الكرسي بانتظار عودة الدكتور ناصر. لم يهتز بل ظل ثابتا وصلبا وجسورا لأنه درس الوضع مع كبار مساعديه من المستشارين الاقتصاديين والقانونيين الذين هم مستشارو وزارة الاقتصاد ويعتبرون من كبار منظري الاقتصاد والقانون الوطني.

انفرجت أسارير الدكتور ناصر بعد سماعه تأكيداً أن هناك ارتياحاً من الخطورة التي أقدم عليه جاسر بدعم البورصة بثلاث مائة مليون دولار. لقد أصبح في نظر الجميع منقذ اقتصاد البلد.

دخل الدكتور ناصر إلى مكتبه ليقول لجاسر:

– لنلتقِ في المكان الذي التقينا فيه آخر مرة بعد قليل. سأنطلق بسيارتي وتتبعني.

بعد نصف ساعة، جالس الاثنان في المكان المقصود، فبادر الدكتور جليسه:

– أنت داهية. لم أتوقع أنك بهذه العبقرية. من أين اكتسبت هذه الخبرة الاقتصادية؟!

– خبرة عمل.

– أنت رجل خطير. ولا أجاملك لو قلت إنك أخطر من الكهرباء.

ضحك جاسر وقال:

– أنا رجل اقتصاد.

قال الدكتور ناصر بجدية:

– نجوت من فعلتك لأني إلى صفك.

– وحقك محفوظ.

أخرج من جيبه شيكا وناوله للدكتور ناصر:

– هذا شيك بخمسة ملايين دولار.

بغضب رد عليه:

– هل أنا شحاذ؟!

– معاذ الله.

– بكارثة بهذا الحجم، تسخر مني.

– لك ما تريد.

– ثلاثون بالمائة من مكسب الانهيار.

انتفض جاسر:

– هذا غير ممكن.

– قلت لك عندما أقول شيئا لا تقل لا.

– هذه المرة أقول لا.

وقف الدكتور ناصر:

– بعد خمس دقائق، سأعلن لوسائل الإعلام عن السبب والهدف وأتركك الشارع ليتصرف معك.

– أموالي في الخارج وسأغادر البلد حالا لأني أملك جواز سفر بريطاني. أنا مستثمر أجنبي. ونخضع للتحكيم الدولي.

- دقائـق وملـف يثبـت تورطـك بدعـم الإرهـاب وسـيكون جاهـزا. حينهـا لا بريطانيـا ولا أمريـكا ولا أوربـا سـتتركك حـرا طليقـا. ولـو اسـتثمرت في كـبرى دول العـالم المتقدمـة مـا اسـتطعت جمـع ثلاثـة بالمائـة مقارنـة ببلادنـا. هنـا الخـير الوفـير!!! كـن عاقـلا وإلا فاتتـك الفرصـة. الثلاثـون بالمائـة تـوزع وليسـت لـي وحـدي.

كان جاسـر نصـف واقـف ويـده تسـتندان إلى الكرسـي. عـاد ليجلـس علـى الكرسـي فتابـع الدكتـور ناصـر:

- لسـنا أغبيـاء. كل معلومـة عنـك موجـودة في ملـف وذكاؤك لـن ينفعـك بشـيء اليـوم. لا البحـث عـن أجهـزة مراقبـة في مكتبـك سـتنفعك، ولا أمـين سـرك، ولا المشـاغل القصريـة، ولا التجـارة غـير المشروعة. أعـرف أنـك تسـعى لتصبـح أثـرى أثريـاء المنطقـة. لـن يحـدث ذلـك إلا بمباركـة مـني ومـن هـم خلفـي. وكمـا وضحـت لـك، الخـير في هـذه البلـد وليـس في غيرهـا. (هـذا مـا يعـرف عـن جاسـر في اللحظـة، مـازال يجهـل الكثـير)

بدهشة قال جاسر.

- أنتـم تعلمـون بـكل شـيء؟! (تنهـد جاسـر ليتابـع قولـه...) موافـق علـى دفـع المبلـغ علـى أن تسـاعدني علـى مـاأنـوي فعلـه في المسـتقبل.

- ما هي نواياك المستقبلية؟! (قالها بعد تفكير معمق)

- الدخول في قطاع النفط.

– هـذا يعتمـد علـى تعاونـك معنـا وإخلاصـك لمـن يقـف خلفـك. سـنعتبرك واجهتنـا الاقتصاديـة.

– موافـق علـى دفـع المبلـغ شـريطة منحـي تسـهيلات في قطـاع النفـط ومـن ضمنهـا امتيـاز وسـاطة التنقيـب والتصديـر.

– موافـق، أريـد تعهـدا بـأن لا تخـوض مغامـرة إلا بإعلامـي بهـا مسـبقا لكـي لا تقـع في مـأزق. حينهـا، سـأتخلى عنـك.

– حسنا.

– هـذه التجربـة لا تكررهـا إلا بعـد عامـين على الأقل وتحت إشـرافي.

– سنرى الظروف.

– أمـا موضـوع حـي الصفيـح، فسـيتم إعـادة النظـر في وقـت الإزالـة. سـنتأخر حتـى يلتقـط الشـارع أنفاسـه.

– كنتُ سأطلب منك ذلك.

في حقيقـة الأمـر، سـبق وتلقـى جاسـر أوامـر مـن مشـغليه بعـدم نقـل الأحيـاء العشـوائية ويقـف ضـد نقلها.

★★★

كثـير مـن النـاس متذمـرون مـن تجـار الخضـر والفواكـه، مـن أسـلوب البيـع المصحـوب بالغـش التجـاري. نخبـة الخضـار والفواكـه توضـع كعـرض، ومـن خلـف كومـة العـرض توضـع النوعيـات الرديئـة. والمشـتري يكتشـف أنـه تعـرض لعمليـة غـش عندمـا يعـود إلى المنـزل. إذا اكتشـف في نفـس اللحظـة، لا يسـتطيع فعـل شـيء سـوى القبـول

بما كان من نصيبه لأن البائع يظهر خشونة في التعامل. وكثيرا ما يوجه سؤالا للمشتري يعجز عن الإجابة عليه: «إذا بعتك النوعية الجيدة من سيشتري المتبقي؟ أو لم تحضر كلها من حقل واحد؟!» أمام ذلك، يضطر الزبون، في نهاية المطاف، إلى القبول بما وضعه البائع في الكيس وكأنه هو من أخطأ في حق البائع. نتيجة ذلك، هناك الكثير ممن تعود وأصبح لا يبدي أي معارضة أمام ظاهرة الغش وكأنها ظاهرة طبيعية وفطرية. فيمثل هذا المجتمع، الفساد يمارس كل حسب استطاعته فلا حصر له، طاعون تفشى ويتغلغل في مفاصل البنية المجتمعية. لم يعد الفساد حصرياً بالمسئول فقط، بل انتقلت العدوى لتصيب الكثير من أبناء هذا الوطن. ظاهرة بكل المقاييس حيث يستحيل العلاج الموضعي أو إزالة مواطن الضرر إلا بعمل أشبه بالمستحيل عبر تفعيل الدور القانوني وتحديثه مع كل خطوة تقدم لفكرة فساد مبتكرة حيث لا يدع فرصا لثغرات. عمل أقرب إلى المستحيل للتغلب على فساد المجتمع. ويعود السبب للبحث عن سبل رقابية على المجتمع. أي ظاهرة خرافية طفت على سطع الحياة في هذا الوطن الجميل؟ هكذا يتساءل الناقمون على الوضع العام في البلد.

رشيد لم يكن من بين هؤلاء. يبيع على هوى الزبون ورغبته. يغربل الخضار إلى مستويين، درجة أولى بالسعر الذي يبيعه أي بائع في السوق، ومستوى ثان بسعر أقل. صحيح أن المكسب قليل جدا مقارنة بالآخرين. لذا، وضع في حسبانه أنه يستطيع بيع ثلاثة إلى أربعة أضعاف ما يبيعه زملاؤه الباعة. وهكذا قد يتساوى معهم في المكسب. من يشتري منه اليوم يعود ليشتري منه في المرة

القادمة. أصبح لديه زبائن دائمون. ومع مرور الأشهر، يزيد من الكمية المسوقة. حتى أصبح لديه معاون. دخله تحسن قليلا.

شيء وحيد يتمناه منذ سنين طويلة وبدأت ملامح تحققه تظهر في الآونة الأخيرة (أخذ أمه المعاقة لأداء العمرة).

يتعمق في التفكير حول هذا الحلم، يحتاج لفترة طويلة من العمل لكسب المال وادخاره. ما الأكثر خيرا صرف المال في تحقيق حلمه أم صرفه على فقراء ويحتسب ذلك عند الله؟ حقا، هذا التفكير خلق زوبعة في عقله. واذا به يجد نفسه في طريق التوفير المالي وانقاص ما كانت تقدم يداه تدريجيا لتحقيق حلمه.

★★★

بعد تدريبات دامت لأشهر، اجتمع الشيخ أبو معاذ بإبراهيم واثنين من زملائه تحت الشجرة. وقف أمامهم بجسارة وثبات المقاتل وقال:

- اليوم يوم الحسم، اليوم يوم الجنة، يا ترى من نصيب من تكون؟! طلبت من الأمير أن أنفذ هذه العملية بنفسي، وأظفر بحور العين. ولكنه رفض ووعدني بعملية مستقبلية وقد اختاركم أنتم. هل أنتم مستعدون؟

أجاب إياد:

- أنا على أتم الاستعداد.

وحين ظل الآخرون صامتين قال الشيخ:

- إن نجحتم بهذه العملية ستعودون سالمين.

شعر إبراهيم بنفسه يخرج وهو يسأل:

– أليست استشهادية؟!

أجابه الشيخ:

– عملية هجومية ثم الانسحاب والعودة سالمين، كمين للكفرة المرتدين الذي تعاونوا مع الكفار لمحاربة المسلمين والمجاهدين.

– أأنت مستعد يا مظفر؟

– أنا مستعد.

– وأنت يا إبراهيم، هل أنت مستعد؟

نظرا إبراهيم إلى زميليه وقال:

– وأنا كذلك.

قال الشيخ:

– المعلومات مع أخيكم في الله إياد. خذوا أسلحتكم الرشاشة ومسدساتكم والذخيرة. والله، إني أردت لكم الجنة وحور العين يا إخوان، حور العين الحالقات الناتفات. والله، إني أرى لكم الجنة أمام عيني وبينكم وبينها خطوة في سبيل الله. الله راضٍ عنكم. أنتم تدافعون عن دينكم من الزوال. اذهبوا بعون الله. الله معكم جميعا. أنا في انتظار انتصاركم.

إنطلق الثلاثة على متن سيارة ذات دفع رباعي يقودها إياد. في منتصف الطريق، شرح لهم الخطة، مهاجمة سيارتين يستقلها جنود على حدود الجبل. كل واحد منهم يأخذ موقعه بانتظار

قدوم الدوريتين اللتين تمرّان من ذلك المكان كل ساعتين. أوقف السيارة في مدخل فرعي وسلم نسخة من مفاتيحها إلى كل واحد ليعود من بقي على قيد الحياة. وبعد دقائق من المشي في طريق غير معبدة بطريقة التخفي على حافة الطريق، وصلوا إلى مثلث الطريق بحذر شديد وتلفت في كل الاتجاهات وأصابعهم على الزناد مستعدين لأي طارئ مفاجئ. كل واحد منهم تمترس في نقطة حيث تمرّ السيارة الأولى ينقض عليها الثلاثة بأسلحتهم الرشاشة من ثلاث محاور. أما الثانية، فقد زرعت لها عبوة ناسفة. يقضون على الجنود وينسحبون إلى سيارتهم ليعودوا إلى المعسكر. أمسك إياد بهاتف مبرمج يستعد لضغط عليه حين تمشي الدورية الثانية من فوق العبوة التي زرعت قبل. مثل هذه الحظات يتطلب إيمانا لا حدود له وشجاعة كافية تثبتان أقدام المقبل على هذا الفعل. لا شك أن الخوف قائم والرعب يدب في الأوصال كنزلات الحمى، ولا سبيل للمهاجم إلا تذكر محاضرة ما تزيد من الأقدام والشجاعة وتغلب الوسواس والتحذير الفكري. هذه اللحظات قائمة في حسبان المحاضرين. لذا، يتطرقون إليها كثيراً ويخضع المهاجم لدوارات عديدة كي لا يقع في فخ التضليل من المهمة الموكلة. انتظروا حتى ظهور الدورية المكونة من سيارتين، استعدوا، اقتربت، أسلحتهم متأهبة. شعر إبراهيم بالتردد والرغبة بالانسحاب الفوري، فوجد نفسه تخاطب قلبه وعقله بعبارات مختلفة وكأن هناك من يرددها في أذنيه، «خيرا لك الشهادة في سبيل الله، مقبلا غير مدبر».
اقتربت السيارة الأولى من المثلث، خفضت السرعة لتلف نحو المنعطف المقصود المتجه إلى الجبل، انفجرت السيارة الثانية ثم انهمرت النيران على السيارة الأولى من ثلاثة محاور، اخترقت

الطلقات النوافذ والأبواب، قتل السائق فورا واصطدمت السيارة بكومة من التراب والأحجار على قارعة الطريق، توقفت، تتابعت الطلاقات باتجاه السيارة الأولى. المفاجأة كانت صدمة للجنود الأربعة. منهم من أصيب ومنهم من رد على مصدر النيران، فتح أحد الجنود الباب المتوسط للسيارة وخرج وهو ضاغط على زناد البندقية باتجاه أحد المصادر. قتل إياد بطلقة أصابته في رأسه. عاد الجندي ليبحث عن المصادر الأخرى ليقضي على مطلقيها. اتخذ من إطار السيارة متراسا له ليحتمي من الرصاص المنهمر كالمطر. زميله الآخر خرج من الباب وراح يقاوم، فسقط قتيلا بطلقة من الخلف وجهها له مظفر. خرج وراءه الثالث حيث أبصر مصدر الرصاصات التي أصابت زميله وراح يهاجمهما حتى قضى على مظفر فأراده قتيلا في الحال.

اتخذ هو الآخر من إطار السيارة في الجهة الأخرى متراساً، استطاع إبراهيم أن يرى طرف رأسه وهو متمرس، طلقة واحدة كانت كافية للنيل منه. الجندي الأخير مازال يوجه نداء إلى القيادة. ظل لثواني يبحث عن المصدر بتحريك رأسه يمينا ويسارا، لم ير شيئا. ومن خلف السيارة تقدم إبراهيم ليصوب بندقيته نحوه، نظر الجندي في وجهه. لم يستجد الرحمة بل ظل رابط الجأش مثله مثل مصوب البندقة. أطلق إبراهيم رصاصات لا عدد لها في صدره وهو يردد «الله أكبر.....الله أكبر...» انحنى الجندي جانبا وبيده بندقيته ليرتطم في الأرض ويلفظ أنفاسه الأخيرة.

راح يركز ناظره في شفتي الجندي وهو يتمتم حتى التف رأسه قليلا نحو الخلف. وقتها، فارق الحياة. غادر مسرح العملية،

يركض، هذه هي العملية الأولى التي يطبقها على أرض الواقع وتختلف عن التدريبات. أدار محرك السيارة وانطلق مسرعا حسب الخطة إلى أحد الكهوف الجبلية.

أحسنت صنعا يا إبراهيم، والله إن إخوانك الآن يستمتعون بالجنة مع حور العين. رزقك الله مرضاته ونعيم الإيمان (كلمات قالها أبو معاذ عند قدوم إبراهيم وهو يقول: الحمد لله نال إخواني الشهادة، وليتني معهم الآن..).

★★★

يتم الاستعداد لعملية خاصة تتطلب الدقة والحذر. التحركات في كل اتجاه. نقطة الالتقاء حدُدت في عرض الجبل عند الثلث الأخير من الليل.

العقيد عمر لديه خريطة مواقع السلاح. صباح هذا اليوم، اصطحب معه أحد مساعديه إلى أحد المواقع في مزرعة الدواجن. فتحا القبو بعد تفريقهم للدجاج، سحب العقيد قناصة وتفحصها بيديه، يهز رأسه مستحسنا وهو يقول لمساعده:

- إنها قناصة خارقة للدروع (انتيسنايبر) تخترق الدروع الواقية والسيارات المصفحة من بعد ألفين وست مائة متر. إنها رائعة وعملية وشديدة الدقة. جيد أن نمتلك مثل هذا السلاح.

- أهو نادر؟!

- نعم. لا تمتلكه إلا ست أو سبع دول.

- أنحن منهم؟

- نحصل عليه من تجار لهم طرقهم في اقتنائه، (يتفحص صنعها...) قد تكون صنعت في إيطاليا.

أخرجا اثنتي عشرة قناصة مع الذخائر ونقلوها إلى سيارة نقل صندوقها ثلاجة دواجن، وأعاد المكان إلى شكله السابق وتوجها نحو الشرق. الرحلة طويلة تخللها تبادل الحديث ومناقشة الخطة ونسبة نجاحها وفشلها...

في منتصف هذا الليل، بدأ الجميع يتوافد إلى عرض الجبل. العقيد عمر أول الواصلين بدءًا للاستعداد، خطوة تتبعها خطوة، من ارتداء الملابس الخاصة بالعملية وانتعال أحذية التسلق إلى توزيع القناصات وذخائرها، فريق القناصين اثنا عشر. أما فريق الهجوم، فهم عشرة من ضمنهم العقيد عمر، وفريق الحماية الخلفية ثمانية أفراد.

الهجوم مهمة القناصين في المرحلة الأولى تتزامن تقريبا مع الهجوم بالآلية الرشاشة لفريق العقيد.

تحركوا جميعا عبر ثلاث شاحنات مخصصة لنقل البضائع. عبروا الملتويات الجبلية إلى أن وصلوا إلى المدخل المؤدي إلى الهدف. توقفت الشاحنات وترجلوا جميعا بأسلحتهم واخترقوا الأشجار الكثيفة عبر مرتفعات. يستمرون بالمشي منقسمين إلى ثلاث فرق تساعدهم أجهزة الرؤية الليلية، توغلوا بين الكثافة الطبيعية من أشجار وحشائش. الزمن المفترض للوصول إلى الهدف ثلاث وأربعون دقيقة. يعدون الزمن مع عدوهم، يترقبون أي هجوم مباغت. لذا تقدمهم بخطوة سريعة يتزامن مع حركة السلاح. فريق يتوجه نحو اليمين والفريق الآخر نحو الشمال. وبعدها، تتبادل أدوار

الحركات وكأنهم مبرمجون. اقتربوا من الهدف وبان لهم، حسب الخريطة والبوصلة، إن المسافة الفاصلة تصل إلى ألفي متر. تمركز القناصون على التل المقابل للهدف. كل عنصر أخذ مكانه حسب الخطة. ينتظرون ظهور أول خيوط الشمس. اللواء نايف يتابع الوضع عبر اللاسلكي مستعد لتدخل عبر العموديات إذا تعقدت المهمة. يجب إنجاحها بتصفية قادة التمرد الذين يحاولون الظهور عبر دعم خارجي، حيث سيعقدون اجتماعا تأسيسيا في تلك المنطقة المحاطة بتلال متفاوتة الحجم. الاجتماع، حسب المعلومات الاستخبارية، سيبدأ عند الثامنة صباحا في منزل شُيد لهذا الغرض على شكل منزل ريفي متوسط الحجم. لا توجد فيه غرف، بل قاعة بحجم المبنى من الداخل. اليوم هو يوم إعلان أهداف التنظيم المسلح انفصال الشرق.

وصلت الساعة السابعة حضر مراسل قناة عربية إخبارية بتجهيزاته المناسبة لتسجيل وقائع الاجتماع والأمر الذي كان فيه شك من حضور أجانب.

بدأ توافد الأعضاء إلى المنزل بسيارات قديمة وجديدة. دخل الجميع، وفي الوقت المحدد بدأ الاجتماع بحراسة من عناصرهم وعنصرين أجنبيين حول وعلى الطرق المؤدية إلى المبنى.

الثامنة والخمس دقائق، جاءت إشارة البدء بالهجوم. انطلقت رصاصات بعدد حراس التمرد. منهم من خر قتيلاً ومنهم من اختبأ وبدأ يرد على مصدر النيران بشكل عشوائي لعدم وضوح الأهداف المهاجمة. توالى قنص من يظهر أو يطل برأسه من النافذة للاستطلاع أو الرد على الهجوم. استمر الهجوم حوالي

خمس دقائق وفريق العقيد يتقدم بعد محاصرة من تبقى من الحرس. استسلم من تبقى على قيد الحياة وهم أربعة. كبلوهم وواصلوا هجومهم تحت غطاء من القناصين. يقتربون بسرعة غير عادية كرجال القوات الخاصة. بل هم كذلك، فأغلبهم تلقوا تدريبات عالية المستوى وهم من النخبة العسكرية. اقترب العقيد مع فريق الاقتحام من باب المنزل الموصد، ثبتوا عليه قنبلة خاصة لخلع الباب وابتعدوا بسرعة خاطفة. انفجار يليه سقوط الباب. رمى أحد المهاجمين قنبلة دخانية بعد أن تقنعوا الأقنعة. بدأ الأقتحام وقتل من يصادفهم واحداً تلو الآخر. تبقى أجنبي ممن حضروا الاجتماع واثنان آخران يصرخون ويعلنون الاستسلام. بهجوم جسدي عليهم بعد رميهم السلاح، ألقوهم أرضا، كبلوهم وبدأ الإخلاء مصطحبين من سلم نفسه. وتولى أحد المهاجمين جمع الوثائق من على طاولة الاجتماع. في حين كان زميل آخر له يجمع ما تبعثر منها على الأرض. دقيقتان وهم خارج المبنى جميعا ينسحبون إلى سيارات المنشقين. حيث إن خطة الانسحاب تتم عبر سيارات أعدائهم لأن وصولهم للهدف كان مشيا لمسافة ليست قريبة. الانسحاب سريع. وأيضا توزيع للمهاجمين في سيارات إلى جانب الشاحنات ذات القدرة الحركية تحسبا. فقد تم اختيارها بعناية بحيث تتناسب مع طبيعة العملية.

أُبلغ اللواء بنجاح العملية مع علمه بذلك لعدم تلقيها نداء الاستغاثة.

بهذه العملية سجلت علامة للنجاح الباهر لضربة استباقية لم يسمع بها أحد سوى الداعمين خارجياً. أما داخلياً، كالعادة المهاجم مجهول، والعدو الخارجي ومن يواليه في الداخل تخامر

عقولهـم الشـكوك حـول عـدة جهـات لم يسـتطيعوا حتـى السـاعة تحديـد منبـع الهجـوم.

بـدأ التحقيـق السـري مـع المعتقلـين وراح العقيـد عمـر ومـن معـه بدراسـة وثائـق الاجتمـاع لمعرفـة المزيـد عـن حجـم المؤامـرة الـتي ربمـا أجهضـت بعـد الهجـوم الناجـح. وبـدا اللـواء نايـف مرتاحـا عندمـا تأكـد شـفهيا مـن أحـد مسـاعديه أنهـم قضـوا تمامـاً علـى التمـرد وهـو مـازال في إطـار التكويـن. ومـازال متأكـداً حتـى اللحظـة أن أمثـال هـؤلاء الخبثـاء كثـر وقـد يطلـون بأوجهـم القبيحـة في أي زمـان أو مـكان. لـذا وجـب عليهـم اليقظـة لأي محاولـة مشـابهة. فمـن الواضـح أن الداعـم لـن ييـأس وأن لديـه اسـتراتيجيات بديلـة لـكل فشـل.

★★★

اقتحـم الباحـة الخلفيـة للمسـجد شـخصان مجهـولان بشـكل مفاجـئ منتعـلان أحذيتهمـا. وهـو أمـر غـير مألـوف، لم يسـبق للشيخ أبـو إيمـان أن رآه. اندهـش بعـد أن نظـر إلى أقدامهمـا. ليعـود وينظـر في وجـه عتيـق الـذي فهـم معنـى هـذه النظـرة: (أقـم الأذان)

غادر عتيق المكان ليترك الشيخ مع ضيفيه.

- أأنت الشيخ أبو إيمان؟ (سأل أحدهما).

- نعم أنا هو، هل من خدمة أستطيع أن أقدمها لكما؟!

- نوبـات صـرع تنتـاب أخـي وقيـل إن بـه جنيـا، والآن هـو هائـج، ونريـدك أن تقـرأ عليـه آيـات.

تملص الشيخ بدا واضحاً:

– بعد صلاة العصر.

– نريدك الآن، ربما يرتكب جريمة.

– لن يحدث شيء.

– قلت لك إنه هائج، ونحن في ورطة، افعل خيرا بنا، اقرأ عليه وعد بسرعة. لن يستغرق ذلك طويلا.

– وصلاة العصر؟ (تساءل الشيخ)

– نصليها في جماعة منفردة. أنت تمنع جريمة قد ترتكب في أي لحظة وجزاك الله خيرا.

أدرك الشيخ أن لا مفر، ووجب الذهاب معهما:

– أين هو الآن؟

– قريب من هنا.

خرج معهما، طلب منه الرجل أن يستقل سيارته، فعل ما طلب منه.

اتصل عتيق فورا من غرفة المؤذن بأبو معاذ، أبلغه بما حدث، أطفأ أبو معاذ هاتفه ونزع الشريحة وأتلفها وطلب من الجميع ومن بينهم إبراهيم الانتقال إلى كهف آخر لا يعرفه حتى عتيق تحسبا لأي طارئ.

بعد أكثر من عشر دقائق، قيل للشيخ أبو إيمان أن مساعد مدير المخابرات يريد التحدث إليه عن برنامج فتوى هو من يعده ويقدمه، متحججين بأن هناك فتوى يريدون مناقشتها.

عـذر غـير مقنـع. ولكن الشـخصين اللذيـن هما ضابطـان في المخابرات أقنعـاه وأكـدا لـه سـبب اسـتدعائه. وأن الأمـر يقتصـر علـى طلـب إعداد برنامـج تلفزيونـي لمصلحـة الوطـن. ظـن الشـيخ أنهمـا ربمـا يريدانـه لتقديـم برنامـج عـن الإرهـاب أو مـا شـابه ذلـك.

«لـو فضـح أمـري، لاعتقلونـي ومـا قدمـوا لـي بهـذه الطريقـة. ولكانـت طريقـة الاعتقـال بطريقـة تعسـفية. أمـا هـذه الطريقـة، فتـدل علـى أن الأمـر ربمـا يكـون خـيرا، خـيرا إن شـاء الله. لاشـيء يدينـني، ولكـن لمـاذا قـالا لـي أن اذهـب معهمـا لأقـرأ علـى قريـب لأحدهمـا سـكنه جـني؟! أمـر محـير، «شـعرت منـذ الوهلـة الأولى أن هنـاك شـيئا مـا»، هـذا مـا يتمتـم بـه الشـيخ في سـره.

في غضـون نصف سـاعة، أُدخل الشـيخ أبو إيمـان إلى مبنى المخابرات ثـم إلى مكتـب ضابـط. اسـتقبله ورحـب بـه ليدخـل الأمـان إلى قلبـه، تحـدث إليـه قليـلا وعـبر له عـن إعجابـه بأدائـه الديني وأشـد بما لفت انتباهـه وجعلـه يتابـع برنامـج للفتـاوى فتوى الـزواج الجماعـي. هذا قد يحـد مـن ظاهـرة العنوسـة وتفشـي الفاحشـة بـين طـلاب الجامعـات.

كـرر الترحيـب بـه وأكـد لـه أنـه معجـب بـه مثلـه مثـل سـائر الشـعب لأنـه أصبـح معروفـا وطنيـا وعربيـا. كثـرة الترحيبـات تطمئـن الشـيخ تدريجيـا. وصلـت المجاملـة إلى حـد أنـه قـال لـه بأنـه يفكـر باسـتحداث منصـب جديـد ويطلـق عليـه اسم (مفـتي المخابـرات) ليتـم اسـتصدار الفتـوى بكيفيـة التعامـل مـع شـتى أنـواع النـاس والأجنـاس المتورطـين في المسـاس بأمـن الوطـن. «نحـن مسـلمون ونخـاف الله ونريـد معاملـة المضريـن بالوطـن حسـب مـا تقتضيـه الشـريعة واسمـح لنـا يـا شـيخنا أن أهاتفـك عندمـا تقتضـي الحاجـة لأخـذ مشـورة دينيـة».

كلمات صادرة من فم مسؤول وهو يحرك يديه متبعا أسلوب لغة الجسد ليكون الإقناع عبر اللسان والحركة.

قال الشيخ أبو إيمان مرحبا برغم من عدم الارتياح التام. فهو في مبنى يدب منه الرعب بمجرد سماع اسمه فقط:

- أنا تحت أمر الوطن والحكومة. وكلي إخلاص لهذا الوطن لأن الإخلاص للوطن هو إخلاص لله سبحانه وتعالى. وهذه فتوى.

مد المسؤول يده إلى الهاتف وتكلم مع ضابط تحت إمرته يدعى (الضابط رقم تسعة). وقال له بأن الشيخ أبو إيمان موجود في مكتبه وإذا كان يريد عرض بعض المقترحات على الشيخ فليأت فورا. ثم أعاد سماعة الهاتف الخاصة بالشبكة وعاد ليتحدث إلى الشيخ. هذا الأسلوب اللين والسلس أرعب الشيخ ولكن الثبات أفضل وسيلة للسيطرة على الموقف. هذا هو أسلوب شيخنا المعتاد، ابتسم، يخلل لحيته براحة يده وهو يتمتم: «اللهم ماأغفر لنا وارحمنا وأمن وطننا». من المؤكد في مثل هذه المواقف السبحة حاضرة وبقوة، تدور حول أصابع اليد اليمنى مع كل حركة شفاه. نظر المسؤول إلى وجهه واصطنع المفاجأة:

- اعذرني يا شيخنا! وجودك أنساني كرم الضيافة، ماذا تشرب؟

دخل الضابط الذي طُلب عبر الهاتف، صافح الشيخ ومدحه قليلا ثم أشار له مديره برمشه وهو يسلم على الشيخ، فقال الضابط للشيخ:

- هل تتكرم بالحضور إلى مكتبي يا شيخنا؟

نظر الشيخ نحو المدير ثم إلى الضابط الواقف أمامه وقال:

- لا مانع لدي، تحت أمرك.

مد الضابط يده إلى الإمام باتجاه الباب وقال:

- تفضل يا شيخ.

فتح الباب وخرج معه إلى مكتبه، طلب منه الجلوس، جلس، تناول علبة سجائر، أخرج سيجارة له وأخرى للشيخ، ناوله وهو يقول:

- سيجارة (اصطنع التذكر...) أعاد السيجارة إلى العلبة وهو يقول: أعتذر، نسيت أنك شيخ جليل ومفتي أ.....أ.....

هنا، ارتعب الشيخ وبدأ بالتعرق وواصل الضابط قول:

- ماذا تشرب؟ وسكي، (اصطنع التذكر مجددا...) آسف. هذا عيبي. على المكتب، أنسى الشخصيات المرموقة. ربما لأني تعودت ذلك.

- سأطلب لك قهوة.

مد يده نحو جهاز النداء ثم اصطنع المفاجأة للمرة الثالثة وقال:

- ماذا حدث لي اليوم؟! أنا آسف مجددا يا شيخنا. آسف جدا. كنت سأطلب لك قهوة. النيكوتين، والكافيين. وكلاهما يدخلان في صناعة المخدرات. وهذا حرام والعياذ بالله. سأطلب لك حليبا ساخنا.

ضغط على جهاز المناداة وقال:

- حليب ساخن لشيخنا.

ارتبك الشيخ، شخص بصره، مد ساخن يجتاح جسده. طبعا طلب الحليب لم يأت. هي مجرد حركة معروفة لهذا الضابط المشهور بأساليبه المختلفة عن باقي زملائه في التحقيق، فجأة حرك شاشة الحاسوب البلازما باتجاه الشيخ وقال له:

- ما رأيك؟

ثم ضغط على زر الدخول بدأ الفيديو بالعمل. من اللقطة الأولى، أسود وجه الشيخ، زاد تصبب العرق مع سقوط المسبحة من يده وكأن ما يخشاه قبل قليل حدث. ترحيب، كلمات متلاعب بها، هذا غير مفهوم ولا تفسير له سوى أنه في ورطة. لنصف دقيقة، ظل الفيديو يعمل ثم أمسك الضابط بالفأرة وأوقف الفيديو وقال:

- ما رأيك؟

أُخرس الشيخ.

واصل الضابط حديثه:

- وحياة لحيتك المطلية بالزيت، عندما جاءني هذا لم أره إلا الآن معك يا شيخ. أنا لا أحب الأذية. أنا إنسان ودود وأحب التعاون وأحب ستر الناس، وواجب على كل مسلم ستر أخيه المسلم، أليس كذلك؟!

أخذ الشيخ نفسه بصعوبة بالغة وتنهد. صفير بطنه وصل إلى مسامع الضابط. لاحظ الضابط أن الشيخ جف فمه. نظر الشيخ إلى الطاولة التي تفصل بينهما وكأنه يبحث عن ماء ليرطب فمه ليستطيع الكلام. ضغط الضابط على جهاز المناداة:

- الحليب الساخن يا ابني للشيخ، واحضر كأس ماء.

أطفأ الضابط سيجارته التي أعتمت المكتب بالدخان، مد يده بهدوء إلى تحت سقف الطاولة ليضغط على مأخذ صغير لتيار كهربائي ويقوم بإطفاء المصباح ليبقى المكان شبه معتم لأن سترة نافذة المكتب مغلقة ثم قال بسخرية:

- لماذا كل هذا الصمت يا شيخ؟!

لا حجة لدى الشيخ، الادعاء بأن ما رآه فبركة:

- هذا مفبرك وأنا عالم جليل.

بغضب مصحوب بموجة هادئة:

- أنت نصاب. ومحتال وخنزير متقمص الدين.

ضغط الضابط على زر الدخول لمواصلة مشاهدة شريط الفيديو، وضوح الشاشة في غرفة معتمة جعلته الشيخ يتابع الفيديو وهو عاجز عن الكلام، الفيديو يصور أبو إيمان في فندق وهو يشرب. وبعد دقيقة، اقتربت منه فتاة شبه عارية لتنام في أحضانه. دقيقة من القبل المتبادلة، وقفت لتنزع باقي ملابسه ومن ثم ملابسها أيضا، وهو بدوره جرها إلى السرير. أوقف الضابط الفيديو وهو يقول:

- استغفر الله العظيم، اتفو عليك يا خسيس! بالله عليك يا نصاب! تتخذ من الدين غطاء لأعمالك الشيطانية. تقول للمصلين إنك ذاهب لأداء العمرة وأنت مسافر للفسق والعمالة. والعجيب أنك تقدم لهم ماء معدنيا على أنه ماء زمزم. أنت إبليس في صورة إنسان. لدينا الكثير عنك بالصوت والصورة.

لسنا غافلين. نحن لا ننام على بطوننا. نحن يقظون دائما. كنا نرصد تحركاتك منذ سنين، منذ أول خطبة لك في المسجد ونحن صابرون عليك لنوقع بك وبكل من وراءك.

(الشيخ قطع تذكرة لدولة معادية، وأعلن أنه ذاهب للعمرة، وقام بحجز غرفة في فندق عبر الانترنت. بهذا، سهلت مهمة سفر ضابط مخابرات قبله ووضع الترتيبات في الفندق لإنجاز هذه المهمة بنجاح مع توقيت لقاء الشيخ بمن طلب منه إجراء بعض التحريات وتجنيد شباب على طريقته من أجل زعزعة استقرار الوطن.)

الكلام مازال للضابط:

الغريب أنك لست صاحب فكر متطرف. فقط باحث عن المصالح، لو كان الذي قمت به لقناعات دينيا لكان لك رحمة في قلبي لأنك ضحية فكر لم يولد معك وتعتقد يقينا أنه الطريق الصحيح. ولكني أجلس أمام شخص محترف في النصب والتمثيل واقتناص الأدوار.

سؤالي لك، كم قبضت لقاء ذلك؟

ظل صامتا وكأنه أخرس:

تابع الضابط كلامه:

- أنا أعرف المبلغ وأعرف البنك الذي حول له المبلغ تكلم، قل شيئا، تكلم، أنا أغضب فقط في لحظات الصمت، (رفع صوته وضرب براحة يده على الطاولة) هيا، تكلم.
- ماذا أقول وأنت قلت كل شيء. (قالها مطأطئ الرأس).

تحول الضابط إلى الجزء الثاني من الموضوع مستخدما أسلوبه الخاص في مثل هذه الحالات حسب خبرته الشخصية:

- قل كل ما أعرفه وما لا أعرفه.

- مثل ماذا؟!

- أسماء أعضاء الخلية في البلد. ما علاقتكم بالكمين الأخير ضد دورية الجيش؟

مد ورقة نحو أبو إيمان وقال:

- أكتب كل الأسماء مع العناوين.

لم يأخذ الورقة، فقال له الضابط ناصحا:

- اسمعني جيدا، أنا أبحث عن مصلحة الوطن والأمن. لذلك أريدك أن تعمل معنا لقاء تجاهل الإدانة ضدك. تظل كما أنت في عملك الديني وفي برنامجك على القناة الفضائية لكي تساعدنا على الاختراقات. سنوفر لك الحماية الكاملة والتامة دون أن يعلم من هم وراءك خارج الوطن. تعامل معهم وكأن شيئاً لم يكن. التقي بهم كالعادة واعتبر نفسك أحد رجالنا تعمل من أجل وطنك. لعلك تكفر عن ذنوبك لتعيش في النهاية كمواطن صالح. مبدئيا، عليك إخباري بآخر العمليات التي ستقومون بها. سيكون لك اتصال مباشر معي. معنا لن تجد صعوبة. استمر في إصدار الفتاوى وتظاهر بأن شيئا لم يكن، حضورك إلى هنا لا أحد يعلم به، اتفقنا.

رد عليه أبو إيمان بإشارة من رأسه بالموافقة وهو عاجز عن التفكير أو الرد. قال له الضابط مازحا:

– الفتاة التي نامت معك في الفندق جميلة جدا، أليس كذلك يا مجيب القاف؟! (ناداه باسمه الحقيقي قبل المشيخة)

لم يُسمعه ردا، أشعل الضابط سيجارة وأخذ نفسا عميقا وقال:

– في حال عدم تعاونك معنا أتدري ماذا سيحدث لك.

بفم جاف وبإرادة مسلوبة:

– ماذا؟!

– هذا الحاسوب موصول بشبكة الانترنت. خلال ثوان يكون هذا الفلم في متناول العالم، وسأكشف عن هويتك وسنعلم الجمهور من أنت. تخيل ماذا سيحدث لك!!

– سأتعاون معك وأكون مخلصا لكم.

– هذا ما أريده منك. بقي شيء مهم.

– ما هو؟!

– أموالك التي قبضتها ممن جندوك منذ البداية.

– ماذا بها؟!

مد له ورقة بها رقم حساب بنكي وقال:

– تحول إلى هذا الرصيد سبعون بالمائة من ثروتك واحتفظ بالباقي لرفاهيتك.

- ماذا؟! (قالها مفزوعاً...)

- وإلا...(صمت ثم تابع) آه ما أجمل متابعة فيلم إباحي لنصاب لبس درع الدين.

لما طلب الضابط تحويل الثروة، قال الشيخ:

- الآن كلنا سواسية.

صرخ الضابط:

- سواسية يا كلب. أنا أتحايل لأعيد الثروة إلى أموال الدولة لتصرف كتعويضات لضحايا. أنت تنصب على الدين وتتحايل على ربك وتتخذ من الإسلام وسيلة للنصب مستغلا غباء الجماهير التي ترى في لحيتك قارب النجاة إلى الجنة. وكأنك مسؤول إصدار تأشيرة الدخول إلى الجنة. أنت وأمثالك شوهتم الدين وباقي العلماء الشرفاء. وأمثالك هم المفسدون في الأرض والمرتزقة. أشعلتم الفتن بين المذاهب وبين المسلمين والجميع إخوة. أججتم الصراع وأشبعتم رغبتكم الخاصة ورغبة من وراءكم. عرفت الفرق يا خسيس بيني وبينك؟! أنا أتحايل باسم حزب أو نظام. أما أنت، باسم الله عز وجل، (مد له الورقة والقلم وتابع الحديث...) دوِّن ما طلبتُ منك على هذه الورقة.

منحه مهلة من الوقت لكتابة المعلومات السرية الخاصة. وبعد ذلك سأله الضابط:

- ما هي العملية القادمة التي اتخذ القرار بتنفيذها؟

- تفجير مسجد.

- وماذا أيضا؟!

- تفجير فندق الشيرتون عند لحظة زفاف نجل المؤرخ فكري سهيل.

- المفكر المتخصص في التقريب بين المذاهب!!

- نعم.

باستغراب قال الضابط:

- مؤرخ عظيم مثل فكري سهيل. أليس اغتياله جريمة؟!

- جاءتني أوامر بذلك.

- أتعرفه عن قرب، أو قرأت له؟!

- لا.

- ماذا تعرف عنه؟

- فقط أعرف أنه استطاع أن يوحد المذاهب بالتقريب التاريخي، وضع نظريات الاختلافات الفرعية بينهما، وأثبت حقائق تاريخية حول أصول الصراع.

- أهذا ما أزعجهم؟!

- بالضبط.

- سؤال أخير قبل أن تنصرف.

- ما هو؟! (بالكاد قالها أبو إيمان).

- هل أنت مسلم فعلا أم أنك متخصص في العلوم الإسلامية؟!

صمت ولم يرد وهو يحدق في وجه الضابط، كرر له السؤال وظل منتظرا الإجابة حتى قال الشيخ:

- نعم، مسلم.

كشر الضابط وقال:

- لا أعتقد ذلك. من أين جئت بهذا الكم الهائل من التبريرات للعنف والأدلة والأحاديث التي تناسب مشروعكم؟ ما هذه الفتاوى الغريبة المتعلقة بالجنس وإرضاع الكبير؟! من أين تستقي مصادرك؟

- أي شيء أقوله هو موجود في كتبنا الإسلامية.

- لا، لا، لا. حتما تمزح.. قصة زيت كبد الحوت أول طعام أهل الجنة، والتي قلتها أمس في برنامج التلفزيوني من اختراعك؟

- لا يا سيدي. لا أقول شيئاً غير موجود في الكتب الإسلامية.

- وإرضاع الكبير و مدة حمل المرأة أربع سنوات للجنين الواحد؟

- موجود أيضا بكتب التراث.

تنهد الضابط ليتابع كلامه:

- أتدري ما هي أصعب مهمة في مجال المخابرات وتعتبر شبه مستحيلة؟

- ما هي؟!

- تجنيد أشخاص مخلصين للدين وذوي أخلاق ومبادئ. من الصعب أن تجعل مؤمنا يرتدي درع التمرد على الأخلاق ويجرؤ على الحانات وارتكاب جرائم وعمليات احتيال من باب التمويه. ولكن من السهل تجنيد مجرم ليرتدي درع الدين وإقامة الصلوات الخمس في أوقاتها وصيام الاثنين والخميس وإطلاق اللحية من باب التمويه.

تناول الضابط الورقة التي كتب عليها أبو إيمان المعلومات، وناوله رقم هاتفه وهاتف الطوارئ ليحفظهما. وطلب منه أن يظلا على تواصل سري. وعندما يحتاجونه، فلهم طرقهم في الوصول إليه.

خرج أبو إيمان من مبنى المخابرات وكأنه مخلوق بلا رأس يتخبط تائها في الطريق، وكأنه معتوه لا يدري أين يذهب. بعد فترة من فقدان الوعي الحسي، عاد إلى منزله لينعزل لعله يستعيد وعيه.

بالأمس، لا صلاة مغرب ولا عشاء أداها. وبدون نوم، توجه فجر هذا اليوم إلى المسجد مقررا التعاون التام مع المخابرات. كان على باحة المسجد قبل الأذان بنصف ساعة، توجه نحو غرفة الحارس والمؤذن عتيق، طرق عليه باب الغرفة أيقظه من نومه «عتيق..عتيق..عتيق....» فتح له وهو بثوب النوم، سأله: أين كنت يا شيخ، قلقت عليك؟

اصطنع الضحك:

- لماذا لم تهاتفني؟ إذا أنا مشغول تقلق عليّ.

- إشارتك بالأمس لي فهمتها واتصلت بأبو معاذ وحذرته.

— حسنا فعلت من باب الحذر. تواصل معه وقل له لا يقلق. فقط طلبا مني بالأمس أن أقرأ القرآن على شخص به جني. أتعبني ذلك الجني، بالكاد أخرجته وأحرقته.

— لم يكن مسلما؟

— جني جاء من الهند. ولكني بفضل الله تغلبت عليه. لعنه الله، رفض أن يدخل الإسلام. أفكر أن أتناول هذه القضية في برنامجي التلفزيوني. وهذا ما أخرني عنكم حيث جهزت بعض الحصة التصويرية.

قطع حديثهما صرخة خفيفة أطلقها الشيخ لنوبة ألم مفاجأة. تساءل عتيق ما حصل له. جلس الشيخ على مرتفع أسمنتي وهو يقول «نوبة ألم تضرب وتختفي». أراد عتيق أن يأخذه للمستشفى لكنه رفض وقال إنه سيتناول العسل بالحبة السوداء وسيكون بخير بإذن الله.

★★★

«مقهى الدب الصغير عالم مفعم بالثقافة المتبادلة بين رواده. المقهى عاصر الزمن الجميل حين كانت الدنيا ملتقى أمل، حين كانت القلوب قلباً واحداً والتوجه العام نحو الأمام لفترة وجيزة من الزمن. ذلك الدافع مرتبطة ذكراه فقط بقلوب معاصريه. تبدلت الدنيا كأنها نفضت نفضا وبعثرت كل الطموح والأحلام وطاقات البناء والإبداعات المختلفة نحو الأفق البعيد بلا عودة. المقهى مرتبط بذاكرة انطلاقات الاحتفالات بخروج الاستعمار من الأقطار العربية، قطر يليه قطر، عالم فريد ذو لغة واحدة ونبي واحد ويعبد الجميع ربا واحدا. كانت بداية مستحسنة تقف أمامها

نهايـات مبهمـة. كان العـالم العربـي متحـرراً مـن مـاضٍ كـره نفسـه اقتتـالاً دينيـاً وقبليـاً. كان عالمنـا العربـي يعيـش طفـرة ثقافيـة وفنيـة تخطـت حـدوده وأربكـت كل التوقعـات. وفجـأة يبـدأ انهيـار مرعـب ليسـتمر عقـوداً إلى أن اختلـف عبـاد الله في الله. وحتـى أن أحبـاب النـبي العظيـم محمـد اختلفـوا في النـبي محمـد واقتتلـوا. مـات الزمـن الجميـل في عمـر الزهـور ولم يكـبر أو يشـخ. ولـد هـذا الزمـن العربـي طفـلاً مشـوهاً يحمـل معـه الحقـد والكـره والانتقـام ورغبـة المـوت وكـره الجمـال. ولـو كانـت شـجرة لاقتلعهـا أول مـار أمامهـا. معركـة حربيـة اسـتخدمت بهـا جميـع أنـواع أسـلحة الـكلام ذي الدمـار الشـامل. بـين الزمـن الجميـل، والزمـن القبيـح. النتيجـة خسـر الزمـن الجميـل وسـلم جسـده للمغتصـب الزمـن القبيـح. وفعـلا، تبخـر علمـاء شـتى العلـوم الإنسـانية والثقافيـة والفنيـة وخلـق بشـهادة ميـلاد الانحطـاط والرخـص والمكـر. الزمـن القبيـح غصـن حـط عليـه قـرد. ليـس لنـا هـذا الزمـن. مـن أتـى بـه إلينـا؟ ولِمَ اختارنـا نحـن مـن بـين العـوالم؟ إنـه نحـس، نجـس التاريـخ. المـزار الوحيـد المتبقـي مـن الماضـي الجميـل عبـارة عـن مقهـى ظـل صامـدا أمـام كل المتغـيرات الثقافيـة ومـازال يقـدم نفسـه نموذجـا صلبـا للأصالـة. بـكل فخـر واعتـزاز». قـال كل ذلـك ارتجـالاً الأسـتاذ مسـعد بصوتـه المجلجـل ومـن حولـه رواد المقهـى المصدومـون لقـرار اتخـذه ورثـة المقهـى ببيعـه ليتـم هدمـه فيمـا بعـد.

«إنـه بيـع لمـا تبقـى مـن العـالم العربـي» هكـذا صـرخ علـى غـير عـادة الأسـتاذ فتحـي. أعقـب ذلـك احتجـاج وفوضـى بـين المثقفـين رواد المقهـى.» كيـف تُسـلب أمـي؟» قالهـا لـؤي.

تشنج أحد رواد المقهى وأراد التعبير عن رفضه بيعه بتناوله كرسي للشروع في الفوضى. بينما الكرسي بيده مرفوع لسقوطه الحر أرضا، يتخذ قراراً ذاتياً بالتوقف ليعيد الكرسي إلى مكانه عندما تذكر أنه كرسي مقهى تاريخي. فرغ جزءاً من غضبة بصرخة مجلجلة للخروج بموكب واحد إلى وزارة الثقافة ومن ثم إلى وزارة السياحة لعلهما يتدخلا لمنع بيع وهدم المقهى لكونه تراثاً شعبياً.

«بينهم وبين هتك عرض تراثهم، قرار تدخل إما من وزارة الثقافة أو وزارة السياحة لمنع الهدم المرتقب لعبق التاريخ». هكذا عقب لؤي.

★★★

اليوم حفل زفاف لمياء. إبراهيم ماض في شق طريقه. طال غيابه عن منزله. اختفى في ظروف غامضة بالنسبة للحي. حاليا، هو في كهف يتلقى ما ذهب من أجله.

زفت لمياء وتركت حيرة كبيرة في الحي عن غياب إبراهيم. اعتقد عبد الحميد أن ابنه مقهور لزواج لمياء وراح يعاتب نفسه وكذلك الأم بأنهما يتحملان مسؤولية انفصال لمياء عن ابنهما وأنه مازال يحبها وإلا لما اختفى.

اليوم التالي، ذهب عبد الحميد لزيارة لشيخ أبو إيمان في المسجد وسأله عن إبراهيم. أجاب الشيخ أنه لا يعلم. قال الأب إن ابنه في آخر مرة رآه قال إنه ذاهب لمعرض الكتاب ليعمل. أجابه الشيخ إن المعرض انتهى وأن ابنه لم يشارك عسى أن يكون حدث له مكروه، واعدا عبد الحميد بالبحث عنه.

صدم الأب، شعر أن اختفاء ابنه مرتبط بشيء غير سار، راح يتمتم بأدعية وهو يرتعد. دس الشيخ يده في جيبه وأخرج مبلغا من المال وناوله الأب كمساعده واعدا إياه أنه لن يبخل عليه يوما حتى يرجع ابنه بالسلامة. بكى عبد الحميد، ربت الشيخ على كتفه وقال له: إن إبراهيم سيعود ولا داعي للقلق وإنه شاب ناضج لا يضيع وحتى عودته سالما ستصل المساعدات المالية شهريا لعبد الحميد. ولكي يخفف عليه قليلا مما اعتراه، وعده بإدراج اسمه بالجمعية الخيرية ليتلقى راتبا شهريا.

ليس هذا ما أراده عبد الحميد إلا أنه يبقى جزءا من هموم يومية تعود عليها. هو أراد ابنه ولو جثة هامدة ليدعو له بالرحمة بعد دفنه وألاّ يموت بقهره باحثا عن ابنه المفقود.

إبراهيم الآن مطلوب أمنيا. لذا هو متوار عن الأنظار. يواصل تدريباته الشاقة مع رفقته. فقد، تعمق في ذلك الطرق وجفت ينابيع قلبه تجاه المجتمع وصار يرى الجميع، ممن ليسوا على طريقه، عبارة عن ضلال وفجور. لم يعد يكترث لما خلفه من عائلة وحياة ومستقبل، بل جل تركيزه ينصب نحو عالم ما بعد الموت من رضى الله ودخول الجنة ولقاء الحور العين.

★★★

على غير العادة جاء الأستاذ مسعد إلى المدرسة في منتصف الدوام يتأبط جريدة كالعادة وملفاً به أوراق. دخل إلى مكتب المدير، سأله المدير عن سبب التأخير بطريقة فيها شيء من التوبيخ. لم يرد عليه حتى انتهى المدير من النقد اللاذع. قدم له طلب إجازة دون

مرتب لمدة سنتين. استغرب المدير وسأله عن السبب. أجابه أنه يريد أخذ استراحة، فقال له المدير بأنه دائما مرتاح في المدرسة ليس لديه عمل إلا مراقبة الطلاب عند الدخول والخروج فقط. كرر الأستاذ مسعد طلبه، فقال له المدير: «يا أستاذ، نحن نحترمك، ولك مكانة في قلبي شخصيا. إن كنت بهذا القرار قاصدا الهروب من المدرسة بسبب مشاداتي معك، فأنا أعتذر. يصعب عليّ خسارة رجل مثلك، تعودنا على العمل معه...». ابتسامة مسعد معبرة، يتناول المدير بين أحضانه، عناق الزمالة، واكتشاف للتو أن بينهما صداقة جليلة. «بصراحة، سيدي المدير، أشعرتني بقيمة نفسي، يعلم الله إني سأفتقد توبيخك لي. اتخذت قراري غصبا عني»... هكذا قال الأستاذ مسعد.

استحلفك بالله، ما سبب تركك العمل معنا؟ يسأله المدير، أجاب بأنه مسافر بعقد عمل... عقد عمل؟ هكذا، استغرب المدير، استدرك بطلب من الأستاذ مسعد «ضقت بنفسي ذرعا هنا. هل من فرصة لي للسفر معك؟».

آه، ثم آه، حتى أنت أيها المدير الفاضل؟! قضيت جل عمرك في خدمة جيل لم تثمر أشجاره يوما، تريد الهجرة؟! ربما يثمر، تبا وأف وتف لزمن بغيض، لمَ هذا الشعور والإحباط؟ قلة الراتب الشهري هي السبب، أم وضع المجتمع؟ لمَ الذبح غير الرحيم للطاولات والكراسي المدرسية؟ لمَ شنق الأقلام والقراطيس؟ لمَ تُقدم المواد التعليمية للمقاصل؟ ما الذي يحدث؟ (تساؤلات للعدم من حولهما..).

راح المدير يشكو وضعه للأستاذ مسعد. إنها المرة الأولى التي يفصح بها عن مكنونات نفسه وشعوره بما حوله من تذمر. آخرها

«وضعي صعب تحملت مالا يطاق. إذا وفقني الله بعقد عمل مثلك، أستطيع هيكلة حياتي وأساعد أولادي على مستقبل أفضل...».

تأثر الأستاذ مسعد واعدا المدير أن يضعه في الحسبان للحاق به.

اعتذر له المدير وهو يرجع له طلب الإجازة قائلا إنه لا يستطيع الموافقة لأنها ليست من صلاحيته وعليه التوجه إلى مكتب مدير التربية. فهو المخول بالموافقة أو الرفض.

أخذ مسعد الورقة وتوجه إلى مكتب مدير التربية حيث واجه عراقيل لا عدد لها. ضاق ذرعا وقرر أن يترك عمله خلف ظهره وأن لا يبالي بالنتائج التي ستترتب عليه.

ليس لديه صديق يشعر أني قريب من قلبه سوى فتحي. وجد رجليه تحملان جسده بما فيه إلى منزله ليقوم بزيارة مفاجأة. قطع مسافة لا بأس بها حتى وصل. طرق الباب، فخرج الأستاذ فتحي ليجده في وجهه على غير العادة. رحب به ودعاه للدخول إلا أنه رفض. وقال له إنه جاء ليودعه لأنه عزيز إلى قلبه. استغرب فتحي وسأله إلى أين هو ذاهب؟! أجابه بأن لديه ابن عم يعمل في هولندا أحضر له عقد عمل في مدرسة للغة العربية هناك.

- وتترك بلدك. (يعاتبه..)

- لأنه تركني.

- لأنك متشائم.

- ماذا أفعل وأنا أتقاضى راتباً لا يكفيني لنصف الشهر؟ ماذا أفعل ولا قيمة لي في بلادي؟ لا قيمة لي...، سأرحل إلى حيث

تحترم المواهب واليد العاملة.

- أهذا قرارك الأخير يا صديقي؟!

- لا عدول عنه. هل ترغب في اللحاق بي؟

- لا أريد. أنا مرتاح وإن عانيت. أنا أعاني من البشر وليس من الوطن، الوطن أمانة في رأيي ولا يجب أن نتركه ونرحل. وإن رحلنا، ستبقى الحسرة تطاردنا. لن نجد وطنا بديلا له. حتى ولو ملكنا الأرض وما عليها، يبقى الوطن هو الوطن. أنصحك، تعمق في التفكير ولا تستعجل القرار، لن تجد وطناً بلا تأشيرة دخول أو إقامة أو تجديد الإقامة أو طلب ترحيل، أو الخضوع لقانون الأجنبي. مهما تعاملوا معك بالحسنى، تبقى أجنبياً، غريباً، دخيلاً. الوطن حليب أم. وإن أرضعتك مربية لها حق الطاعة كالأم بالتبني. لكن البطن أنجبتك تبقى مقدسة.

- كل قلوب الناس جنسيتي. فليسقطوا عني جواز السفر (قال ما قاله الشاعر درويش)... هنا أنا منبوذ يا أستاذ فتحي. (قالها بحسرة...)

- لا أرض تنبذ أهلها إلا أن أهلها ينبذونها.

- هذا الوطن لن أعيش فيه بكرامتي.

- لأنك لم ترد ذلك. لو أردت أن تعيش بكرامتك وتفاءلت، لأصبحت سعيدا.

- أأنت سعيد؟!

- أنا!!! لا مشكلة لدي.

- أستاذ يعمل في مطعم ولا مشكلة لديه. أمرك غريب! ! !

- توقفت عن العمل في المطعم. وسأعمل في جمعية خيرية وأقبض راتبا جيدا. وتدريجيا، سيتغير مجرى حياتي. قلت لك عن الجمعية لكنك رفضت الفكرة تماما. ما رأيك أن تعمل فيها بدلا من الرحيل؟

- يعلم الله ما وراء الجمعيات؟ كم أبغضها! أينما وجد الفساد وجدت ونشطت... لا عدول عن قراري، يا صديقي. على الأقل، سأذهب إلى بلد لا يوجد فيها الفساد الذي مزقني.

- يكفي أن تكون مثالياً ولو لوحدك في هذا العالم الشائك. حتما ستشعر بالفخر أمام نفسك وأنت ترى الكون فسدت أخلاقه إلا أنت. إنه لشعور عظيم.

- يا صديقي، حاولت أن أكون مثالياً وأعمل حسب المنطق لتقدم هذه الأمة. وكنت ومازلت أؤمن أن المجتمع لا يتقدم إلا عن طريق الأساتذة والعلماء والأدباء والأطباء. لو كان القرار بيدي لأمرت أن يلقي خطب الجمعة القادمة الأطباء، والجمعة التي تليها مهندسون، وأمرر كل المهن الإنسانية بالإضافة إلى جمعة خطبتها تكون من قبل رجل دين، يجب التنويع الفكري.

قال الأستاذ فتحي معترضا:

- لا يمكن لذلك أن يحصل. أنت تلغي دور رجال الدين.

- لا، بل يجب الارتكاز عليهم في البناء المعرفي في أصول العلم الجوهر وترك مساحة لأصحاب المهن الأخرى لصب ملخصات

باقـي العلـوم في عقـول النـاس ليعرفـوا الـدروب التنمويـة. تغـير الزمـن وصـار هنـاك آلاف الوسـائل الإعلاميـة والشـعب مشـتت كلٌّ في وسـيلته المفضلـة. تعبـت يـا صديقـي! حاولـت لكـن لم أنجـح لأنـي لوحـدي. تعرضـت لمضايقـات. العـالم لا يمكـن أن تضيئـه شمعـة بـل مجموعـة مـن الكواكـب والنجـوم. وأسـوأ مـا في الأمـر عـدم الرغبـة في النهـوض وحُـب الرقـاد. هـذه أمـة عاجـزة لا ترغـب في التغيـير سـبيلا. نحـن نقـف أمـام مجموعـة فاسـدة مـن جهـة. ومـن جهـة أخـرى، أمـة استشـرى فيهـا الفسـاد. هنـا، يظهـر عامـل المسـتحيل ويتبـدد الأمـل لأن التغيـير في مثـل هـذا الوضـع الاسـتثنائي لا ينجـح إلا بتغيـير أمـة كاملـة. آه مـن الفسـاد، هـو الـداء الـذي يمرضـني.

— الفسـاد ظاهـرة عالميـة حتـى في قسـم مشـتريات الأمـم المتحـدة. فمـا بالـك في هولنـدا. لا تجعـل العقبـة أمامـك هـي الفسـاد. كـن طرفـا في معالجـة المـرض بـزرع النزاهـة والشـرف والكرامـة في قلـوب الطـلاب. أنـا وأنـت تربويـان وعلينـا واجـب وطـني أمـام الضمـير لنقدمـه لطـلاب.

— الفسـاد في بلادنـا مختلـف يـا صديقـي. إنـه نوعـان، فسـاد صغـير وفسـاد كبـير. الفسـاد الكبـير يقـوم بـه المسـئولون الكبـار والشـركات الكـبرى. والفسـاد الصغـير يقـوم بـه المواطـن. في رأيـي أن الفسـاد الصغـير أخطـر علـى الوطـن مـن الفسـاد الكبـير، لأن الكبـير ينهـب خزينـة أمـا الصغـير ينهـب قيمـاً وأخلاقـاً ومسـتقبل مجتمـع لأجيـال قادمـة. ويبقـى مرتبطـا بتفاصيـل حياتنـا اليوميـة فيمـا بيننـا كمواطنـين.

– أدميت قلبي، لكني مازلت مؤمناً بعبور الدروب الوعرة. واجبي كتربوي أن أصنع طالبا ربما يصبح أمل المستقبل. من يدري؟ ربما يتربى على يدي «مصطفى» الطفل الذي لم يولد بعد. أنسيت نقاشنا المطول؟!

– رحم الله البردوني. سيقتلون مصطفى قبل أن يبلغ. أعرفهم جيدا. سنلتقي بعد سنتين إن شاء القدر.

– رحيلك سيفطر قلبي.

– في تاريخي... لن أنساك...

مد الأستاذ مسعد يده ليصافح صديقه. ودع كل منها الآخر.

تحسس الأستاذ مسعد طريقه بألم مطلق وكأنه يمشي فوق الشوك، لم يستطع إخفاء الغصة عن نفسه، وكأنه يهذي:

«أتراه أخطأ تشارلز ديكنز في أوقات عصيبة، عندما انتهى إلى أن الحقائق تتمرغ على الأرض وتتهاوى تحت أقدام الحب، بعد أن كانت أفكاره ووجدانه حقائق؟

نحن نحتاج للحقائق والوقائع، إنها مبدأ منقذ لمكونات وجداننا المزيفة المنعجنة بأجزاء المحيط المسموم بالدجل. عشنا الخيال وطبقنا الحب كما نفهم، وكما نستطيع إلى أقصى مداه، النتيجة موت هنا كذب هناك زيف، غش، هلاك. نحن استثناء القاعدة، الساعة في سجننا توقف الزمن، نعم توقفه ويمكن أيضا أن تعيده إلى المصيدة الأولى، خيمة في الصحراء وهجوم غادر وقيد ورقص ممسوس حول الجثث، ووليمة عشاء من لحم قتلى الهجوم، يليها

انتصار على أجساد الثكلى. نحن الخرافة. كما كنا، نحن الآن. شيطنة القيم، العدم، المجهول، اللا شيء، المحيط، الوجود، شيطنة شيطنتنا. نحن صناع الأعداء، نعادي كل شيء ولا شيء. إن لم نستطع عداء، نعادي أنفسنا، وإن انعدمت أنفسنا، حتما سنعادي أنفسا من خيال».

★★★

ألم مفاجئ لم يكن في الحسبان، عساه خيرا (هكذا تمتم الشيخ أبو إيمان في أول شعور لنوباته المفاجئة). مع مرور القليل من الوقت، يزداد الألم والتضخم. لا يدري ما أصابه. تناول المسكنات وأقوى أنواع المضادات الحيوية. كل فترة، يزيد من قوة المسكنات حتى صار الألم شديداً لا يطاق. شعر بشيء من الحرج في زيارة طبيب. أصر على اتخاذ تدابيره العلاجية كونه عمل في طب الأعشاب الشعبية. يزداد الأمر سوءاً، حيث يصعب عليه الحركة والمشي لمسافات طويلة.

تراقبه زوجته الطفلة بصمت مطبق. لم تفهم ما يدور حولها سوى أن زوجها تحاشى كل شيء من حوله. لا يأكل سوى العسل غذاء الملكات والحبة السوداء والمسكنات وأعشاب يخلطه. اصفر وجهه، نحل جسده، لم يعد يمارس معها الاغتصاب الشرعي لانشغاله بما فيه.

تجلس الطفلة في إحدى زوايا البيت في صمت دائم مترقبة لحظة فزع، لم تبرأ جراحها. انتهى الأمر، تم خصخصة جسدها من قبل غول يمارس فحوله مزيفة في البراءة.

ينام أبو إيمان لوحده منذ فترة ظهور الألم والتورم التدريجي. هذا لم يكن مطمئناً لصفاء، بل هاجس تكرار ذلك الفعل المرعب

في أي لحظة. هي مسلوبة لا حول لها ولا قوة. يرمقها بنظرات غريبة لا أحد يعرف معناها. يقصد صيدلية ويقرر تناول مضاد للفيروسات حصل عليه بدون وصفة طبية عبر صديق له دون أن يخبره ما ألم به. توقف عن برنامجه التلفزيوني مؤقتا وقل ما يذهب إلى المسجد، مكتفيا بالرد على كل سائل عنه أنه في فترة استراحة. ذات يوما، صراخه يملأ جدران المنزل ويزيد من الرعب في قلب صفاء. عند الصباح، قرر مجبرا وصاغرا ذليلا أن يزور طبيباً بشكل سري ويستحلفه أن لا يشيع لأحد أنه زاره بقصد العلاج.

هذا النوع من البشر لا يريد أن يظهر ضعفه مهما كان الثمن. دخل على الطبيب الأخصائي، رحب به، أجلسه على الكرسي وقال سلامتك يا شيخ، قال الشيخ منكسرا ومترجيا الطبيب أن يكتم طبيعة الزيارة. فمكانته بالمجتمع تتطلب سرية الحياة الشخصية. رد عليه مطمئننا أن أخلاقية المهنة كتم سر المريض وعدم الإفصاح بأي شيء إلا للمريض، وأنه أقسم على ذلك في كلية الطب. شكره الشيخ، سأله الطبيب عن طبيعة الألم، أجاب عن الأسئلة. لبس الطبيب القفازات وطلب من الشيخ الوقوف وخلع سرواله ليفحصه عن طريق اللمس والشكل.

وقف وهو يرتعد ألما، نزع سرواله، أمسك الطبيب بعضوه الذكري، لمسه، إذا به متورم وفيه صلابة، راح يتفحص الشكل بصمت، استدار الطبيب لخلع قفازه الطبي طالبا من الشيخ ارتداء سرواله. سأل طبيبه إذا كان الأمر بسيطاً، أجابه أنه لا يستطيع التأكد من ذلك إلا بعد إجراء فحص أنسجة بأخذ خزعة. تضاعف عرقه ورعبه وكرر سؤاله هل الأمر مخيف، طمأنه الطبيب ألاّ يقلق.

بقـي أبـو إيمـان في العيـادة حتـى أخـذ منـه الطبيـب الخزعـة وأرسـلها لمختـبر الأنسـجة. وعنـد ظهـور النتيجـة، سـوف يهاتـف الشـيخ لأن النتائـج تتأخـر.

عـاد الشـيخ أبـو إيمـان إلى البيـت منكسـرا يتصفح وجه صفـاء بصمت الخبيـث المترقـب شـفائه ليعود للظهـور مجددا أمام أعضـاء طفلة يتبختر بعضلاتـه وقوتـه الجنسـية المفرطـة بفعـل التغذيـة السـليمة والمكتملـة. تنـاول أدويـة مهدئـة وصفهـا لـه الطبيـب وبقـي في انتظار نتائـج المختبر وكلـه أمـل بانتهـاء هـذه المحنـة المجهولـة السـبب. راح يحـدث نفسـه متمنيـا أن ذلـك لـو حصـل في أي مـكان آخـر مـن جسـمه لـكان خـيرا.

أيامـاً وهاتفـه الطبيـب وحـدد لـه موعـداً طبيـاً. تواجـد الشـيخ في العيـادة، جلـس علـى الكرسـي. قـال لـه الطبيـب، «يؤسـفني أن أبلغـك نتيجـة الفحـص سـلبية. ولكـن للطـب إجراءاتـه للتحكـم بمثـل هـذه الحـالات وإنقـاذ المريـض. لـذا، تقبـل الأمـر بقضـاء وقـدر.» دب الرعب في أوصـال أبـو إيمـان وهـو يـردد: «مـاذا حصـل لـي؟... مـاذا حصـل لـي؟». أجابـه الطبيـب إنه مصـاب بسـرطان القضيب في مرحلتـه الأولى. حالتـه لا توصـف مـن الصدمـة والرعـب والذهـول. دارت بـه الدنيـا، شـاخصا بصـره نحـو سـواد ظـلام فتـاك. واصـل الطبيـب تهدئتـه بـأن لا ييـأس. فالعلـم يمنـع انتشـار السـرطان لباقـي الجسـم. سـأل أبـو إيمـان سـؤال الهالـك، كيـف يكـون ذلـك؟ أجـاب، بالخضـوع للعـلاج الكيميائـي لمحاصـرة المـرض كونـه لم يصـل للمرحلة المتقدمـة والخطيرة. سـأل، الشـيخ لم هـو مـن اختـاره هـذا المـرض الخبيـث مـن بـين باقـي البشـر؟ قـال لـه الطبيـب: «هـو موجـود هـذا النـوع مـن الإصابـة وللعلـم قدراتـه. أنـت مؤمـن بالقضـاء والقـدر ومؤمـن برحمـة الله».

– ماذا أقول للناس عن طبيعة مرضي؟ كيف أواجههم؟ لم أسمع بالإصابة في هذا المكان من قبل؟ ما حل بي من مصيبة (يضرب يديه).

عاد الشيخ للبيت يجر أذيال الخيبة والهزيمة أمام نفسه. لطالما تباهى بفحولته وقوته أمام نفسه وزوجته. وكم شعر بالفخر مرات لا حصر لها بما وُهِب من قوة. هاهو عاد مذبوحاً يمُني نفسه لو أنه لم يصب بهذا المرض. من ضمن مجمل هموم دارت بخلده، كيف سيصارح زوجته صفاء بمرضه وكيف ستنظر إليه بعد اليوم بلا قدرة على إشباع رغباتها(هكذا يتمتم...). يتصفح وجهها عن بعد بعين الراثي لها بدون إشباع رغباتها كأنثى. ترمقه بنظرات الكارهة والمعذبة الخائفة منه ومن أفعاله الحادة وكتم نفسها عند النوم والآلام التي تتلقاها نتيجة للعلاقة.

يبقى الاختلاف واضحاً بين تفكيره الآن وتفكيرها هي. لا يلتقيان ولكل همومه. صرخ بداخله صافعا الحائط براحة يده بقوة مفرطة ثم لاطما جبينه. أفزعها وأرعب أوصالها وهي لا تدري ما سبب هذه العنف المفاجئ تجاه نفسه.

★★★

عطلة رسمية تحولت إلى اجتماع سري للقعيد عمر والضباط بأحد فصول مدرسة تتبع مجموعة قرى في منطقة زراعية محازية للعاصمة. في تلك المنطقة وتحت حراسة الأمن السري، اجتمعوا. وبعد اتخاذ الإجراءات الأمنية، افتتح العقيد الاجتماع ودخل في صلب الموضوع المراد مناقشته:

- رحم الله معلمنا العميد فاروق. فقد كان ذا نظرة ثاقبة لا مثيل لها في تاريخ الجهاز، خسرنا رجل دولة قلما نجد مثله. كان محقا في أوامره وتكليفه لنا بدراسات تحليلية للوضع العام للحكم وتحدث عن طبيعة العلاقة بين المواطن والدولة وما يجب وما لا يجب.

الرائد قمر الدين سلم لكل واحد منكم نسخة من الدراسة التحليلية. قرأت الدراسة فزدت يقينا أن القادم مظلم وسنعيش مدة طويلة من الأمل المفقود والسنوات السود قادمة لا محالة. إذا، ما هو الحل لتفادي المستقبل الأسود؟ نحن كمحركين سريين عاجزون عن إيقاف التفسخ الذي يمرّ في طور نمو الدولة. والسياسيون هم أكبر عامل مساعد لتسريع وتيرة تفسخ الحكم للدخول في الانهيار. وللأسف، العملية تكاملية بأدوار مناصفة بين الساسة في الحكم والساسة في المعارضة. والسبب بزنزة الأحزاب على حد سواء الحاكم والمعارضة. فقد تحولوا إلى رؤوس أموال وانغمسوا في (المالسياسي). الغالبية منهم مدرك لمراحل عمر الحكم. ولكن لا يبالون. فلهم أوطان أخرى يلجأون إليها حيث استثماراتهم. من هنا، أذكركم بدورنا في هذه الدوامة. وهو من أهم أسباب وجود العلم الذي نمتهنه للحفاظ على الدولة أو استعادة هيبتها. وجود الدولة بأي وجه كان «الفساد المطلق أو وجه النصف فساد». فهي تبقى الحضن الآمن للمواطنين. وإن خسر المواطن جزءاً من أمواله بسبب الفساد، فلا يجب أن يخسر حياته نتيجة للاحتراب (القتل والاقتتال أو القتال). على الأقل يبقى حيا ولا تُصنع ظروف تسلب حياته وتفتك بما تبقى منه. نحن فعلا قلب الجندي المجهول. صحيح أغلب فئات الشعب تكيل لنا السباب والشتائم والتهم

وينعتوننا بالمتجسسين والمتطفلين. نعذرهم، فهم لا يعلمون. لو لم نكن موجودين لتسلل المتربصون بالبلد. لا يمكن لأي دولة في العالم أن تستمر ليوم واحد دون جهاز استخباراتي. كم واجهنا عوامل تؤدي للقتل المنظم ضد المواطن بقصد الفوضى والتحريض وإثارة الفتن.

في خضم السيل الجارف القادم، يجب وقف تفسخ الدولة ووضع نظريات تنقل نظام الحكم إلى الضفة الآمنة بنظريات فلسفية واجتماعية. ولكن من ننادي؟ الأمر ليس بيدينا. فقد تسلل الداء. إنها مسؤولية نظام وتوابعه من معارضة وشعب. وهذا مستحيل تطبيقه. نبقى أمام الحل المر القادم أننا نتخذ متارسنا السرية في استعادة الدولة وإعادة تكوينها. وهذا يتطلب دماء شعب وسنوات من عمره. يعتصرني الألم وأنا أرى أن الحل بيد الدولة تتناقص نسبه المئوية بشكل مخيف حتى نصل لمرحلة الانهيار.

حينها، يشتد عود المواطن ليصبح عدو نفسه دون أن يعلم. وكل ما يغلفه بالأمان يصارعه. ستصبح الأمور بيد المواطنين وهم من يتحكمون بمصائرهم المريعة ويرون أفعالهم واجبا مقدسا. حينها، تظهر الدهماء لتتغلغل كلماتها الرنانة في العقول. ولا تحدث استفاقة إلا بعدما يمرون بمراحل قاسية تبدأ بالقوة والاستظهار والحماس وتمر بالصراع الذاتي والتفكك ثم التعب والإعياء ليدخلوا في آخر مرحلة وهي السكون والتسليم. عندها، تبدأ بوادر دولة بالتكوين ذاتيا. وهذا لا يحدث إلا بعد سنوات سوداء لا يعلم سوادها إلا الله.

طلب الرئد خالد طرح سؤال برفع يده: المجتمع عدو نفسه كنتيجة؟

قال العقيد عمر:

— المجتمع يعيش حالة اختراقات كبرى. ونعترف أننا فشلنا في تحصينه، وكما قال ذات مرة العميد فاروق رحمه الله «هناك ضعف في الذاكرة الوطنية والتاريخية والاجتماعية، ويجب تحديث وانعاش هذه الذاكرة». المجتمع دون أن يشعر، يُضحي بكل ما يملك من جل مصلحة غيره، وينجر وراء معتقدات تخلقها المصالح في حينها. أنواع مختلفة لأشكال الصراعات، منها صراع الطوائف وصراع الأديان وصراع الانتماء الوطني. برغم أن كافة أنواع الصراعات تتغلف جميعها بغلاف المصلحة السياسية لمديري ومحركي الصراعات بواسطة الجماهير. هنا، من المفترض على أي دولة ترغب في الاستمرار في قلب الصراعات التي تعتبر غريزة إنسانية متأصلة ومتجذرة في عمق الإنسان أن تحافظ على إرادتها النزيهة وتبادر إلى اكتساب نفسها بإنقاذ إرادتها من مواطنيها بحيث تكون الجامع لهم بتجذير وتأصيل ألا انتساب لمنبع الصراعات، أكانت قبلية أو سياسية أو مذهبية أو دينية ليقر من في قلبه نتانة بالإذعان والطاعة. لا يمكن بأي حال من الأحوال لأي عملية هدم للدولة إلا من وراء أصوات ومطالبات وتحركات كبرى تنتمي لعصبية ما، تحت عنوان أكبر من حجمه. هدم الدولة بغرض البناء وليس هدم شخص بغرض بقاء الدولة وإصلاح نقاط الخلل.

إن عامل انتشار الفوضى تدريجيا في مفاصل الدولة ومفاصل المجتمع بشكل متوازي المسار هو سبب تكون الفساد المطلق.

سمح العقيد عمر للمقدم أشرف بطرح سؤال:

- ألا نتأثر مرغمين حسب الظرف بأقطاب الصراعات؟

الصحيح أن لا نتأثر، وندرك في كل زمان ومكان أن الصراعات مفتعلة إنسانيا ومن ورائها أسباب سياسية ومالية بالإضافة إلى السيطرة والحكم.

نستنتج أنه لا صراع تاريخي حول الأصول. ويبقى الصراع حصرا بالفروع والشكل العام الداخلي للحزب الحاكم والأحزاب المعارضة وباقي الطوائف.

- ماذا عن الارتباط العقائدي بالأحزاب؟ (الرائد خالد بعد أن أذن له العقيد)

الأحزاب ذات القوميات المتنوعة المستوردة من دول خاضت تجاربها الخاصة بما يتناسب مع طبيعة البلد فكريا وجغرافيا وتعدد الطوائف تبقى قانوناً شاذاً ذا مصدر لا ارتباط لها بطبيعة مجتمعنا وجغرافيتنا. وكونها أفكاراً حزبية قيادية طموحة ومتأثرة بالمُصدر (المورد). تبقى عاجزة عن تطوير ذاتها لأنها لا تملك مشروعها الخاص وتملك مشروع (المورد) لتبقى تحت حكم وسيطرة المُصدر الذي يبعد الألف الأميال أحيانا بإدارة مباشرة أو بإدارة فكرية عن بعد. لا أقول إنهم عملاء. لا بل منهم الوطنيون فعلا. ولكنهم تحت تأثير فكر قيادي صنع لغيره. وبرغبة بناء البلد وبحسن نية، هناك من بحث عن تجارب الآخرين لتطبيقها في بلاده. والطريق إلى جهنم مليء بالنوايا الحسنة..

وكان من الواجب المطلق خلق أحزاب حصرا بمجتمعها وجغرافية المنطقة وارتباطها التاريخي بنفسها وما حولها.

من الأخطاء القاتلة التي تعتبر سبب انحسار أداء الأمة والفشل في إدارة مشاريع الحكم المحلية، سماح الحزب الحاكم المولود نتاج علاقة ود جماهيرية في بادئ التكوين بتنوع الأحزاب المستوردة تحت مسمى الديمقراطية ليتغلغل (المورد) في قيادة أطراف شعبية لبسط يده الخشنة في الوطن. يصبح توسعياً ذا سيطرة إقليمية، يستخدمها كورقة في وجه العالم. كان المفروض للمناخ الديمقراطي الحقيقي أن لا يسمح لتواجد مشاريع لها (مورد) من دولة ما، بل يعمل على تشجيع إنتاج مشاريع حزبية وطنية، تحمل صفات جينية خاصة بالجغرافيا والتاريخ والشعب على امتداد التراب الوطني. حينها، سقوط نظام الحاكم أو فشله في الانتخابات يخلفه ببساطة ونجاح مطلق بديل محلي بسلاسة. لأن كل حزب منتج محليا له مشروع دولة مبني حسب مقاس الوطن والشعب. العملية أشبه بالإنتاجِ الاستهلاكي المحلي والمستورد. المصانع في البلد تنتج منتوجاً وطنياً ذا طابع خاص بالبلد يبقى دائما في الصدارة ويتطور. ولا يمكن التأثير على عملية الإنتاج من قبل اقتصاديات خارجية لأن المنتوج محلي. أما إذا تم أخذ تصريح لصنع إنتاج خارجي لإنتاجه في الداخل، فإدارته تأتي حسب المصالح الخارجية للمورد والأرباح تذهب (للمورد) المصنع الأم. وأي تطوير لا يأتي إلا من المورد. إنه منتج أجنبي تم تعليبه محليا يحمل نكهات وأشكل وجدت في البلد الأم، وصمام أمان اقتصاد الوطن يفترض أن يكون إنتاجاً محلياً مائة بالمائة. إذا، مقابل العولمة الاقتصادية، هناك عولمة حزبية سياسية وعولمة الحكم عن بعد بتأثر الأفراد بصناع الفكر الأصليين.

ولأن البديل المحلي مفقود، أصبحت الفوضى هي البديل، تحت شعار أنا أو الطوفان.

تلك العوامل أوجدت الاستبداد المتجذر في عمق الفساد. لو كانت المشاريع الفكرية محلية الصنع، لتمت السيطرة عن بعد على الفساد وإدارة العقول لأن جميع المشاريع وطنية.

- سيدي، تاريخيا تتحمل الأحزاب المستوردة الجزء الأكبر من المسؤولية؟ (الرائد خالد بعد أن أشار له العقيد لطرح سؤاله)

- التاريخ لن يرحم أحدا سواء الحزب الحاكم الذي لم يساعد أو يسمح لمشاريع حكم محلية وسمح لاستيراد مشاريع حكم أجنبية ودخيلة أو من ذهب وتأثر بتلك المشاريع وجاء يمثلها في البلد. الجميع اشترك في الانهيار القادم لا محالة. والكارثة الكبرى هي نتائج انقسام الشعب إلى مدافعين عن كل ما هو دخيل على البلد باستماتة للوصول إلى سدة الحكم.

هل هناك حلول ثانوية لما سبق طرحه؟ (موجها العقيد سؤاله لرائد قمر الدين..)

- سيدي العقيد، لا حل سوى استعادة الدولة تحت أي عنوان بالتزامن مع إيجاد مشروع دولة مصنع ومعلب محليا وبأيادٍ وطنية لأنه الجامع لجميع الفرقاء. والصراع القادم مع الفرقاء، لأنهم سيقاتلون باستماتة بواسطة جماهيرهم المتنوعة فكريا. سنكون مجبرين على إمساك العصا من المنتصف. ومطالبين بعرقلة أي فناء شامل خلال تلك المراحل. علينا أن نكون ارتكاز آخر مرحلة فيها بوادر تكوين الدولة. هذا ما نستطيع

فعله. لو تأملنا خيرا وسلمنا أنفسنا للظروف، فلن يتغير شيء للآن، الجميع تقريبا ينغمس في عصبية لا مثيل لها في التاريخ تدار بواسطة علم التحكم عن بعد بأساليب مختلفة نفسية وتكنولوجية وإعلامية.

انتقل الكلام للعقيد عمر لختام الاجتماع:

– ما أود قوله بعد هذا التوضيح أن كل واحد منكم أمامه ظرف مكتوب باسمه بداخله معلومات تخصه. لكل واحد اتجاه وله تحالفه الخاص. كل يقرأ ما يخصه قبل أن نتلف الوثائق. اليوم هو موعد إعلان خطة عمل تتناسب مع المرحلة القادمة وتمسك بخيوط أحداث مستقبلية. كل منكم يعرف كيف يتصرف. اجتماعاتنا القادمة ستكون فقط لمراجعات أسماء قيادات من مختلف التكوينات في الجيش والتنسيق معها بغرض التماسك في أية حالة، أي انهيار سواء كان واقعياً أو افتراضياً.

يجب أن نتكيف مع المرحلة القادمة مهما كانت مظلمة. وعلينا جميعا أن لا ننسى، مهما طال الزمان، أن النصر للجهاز. هذا ما تعلمناه في دراساتنا وتكويناتنا. لا يبقى حيا في تاريخ الدول سوى الجهاز الذي ينتشل نفسه ويبقى في الصدارة.

وقف العقيد عمر بجسارة العسكري ورفع يد القسم، فعلوا مثله، تلوا القسم الوطني.

انتهى


يسطرون
للطباعة والنشر والتوزيع